مجلة

كلية الآداب

جامعة فاروق الأول



المجلد الرابع

١٩٤٨

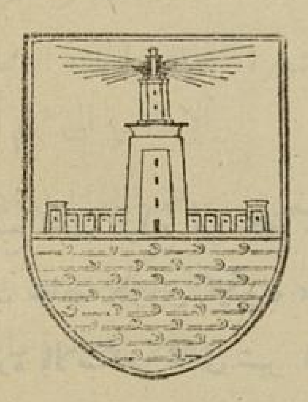
تطلب هذه المجلة من مكتبة جامعة
فاروق الأول بالشاطبي
بالاسكندرية .

الاسكندرية
مطبعة التجارة

مجلة

كلية الآداب

جامعة فاروق الأول



المجلد الرابع

١٩٤٨

تطلب هذه المجلة من مكتبة جامعة
فاروق الأول بالشاطبي
بالاسكندرية

الاسكندرية
مطبعة التجارة

كمل طبع المجلد الرابع من مجلة كليـة
الآداب بجامعة فاروق الأول بمطبعة
التجـارة بالاسكندرية فى شهر المحرم
سنة ١٣٦٨ (نوفمبر سنة ١٩٤٨)

جامعة فاروق الأول
مجـلة كلية الآداب

المجلد الرابع ١٩٤٨

موضوعات القسم العربي صحيفة

المستعربون من علماء المشرقيات[1]

جرى الاصطلاح عند المتأخرين من كتاب العرب أن يطلقوا اسم المستشرقين على من يعنون بالبحث فى لغات الشرق وعلومه ، واطلقو اسم (الاستشراق) على عملهم هذا.

ولما كان الاستشراق واسع المدى متشعب المقاصد قضت الحال بأن يقال لمن يعنون خاصة بدراسة مدنية العرب والاسلام (المستعربون) تمييزا لهم عن سائر من يعنون بلغات الشرق وعلومه.

نشأ الاستشراق فى الغرب بعامل ديني أولا وانقلب بعد الى عامل مدني . وكان سبق أن بعض ملوك أوروبا وباباواتها أخذوا العربية عن علماء الاندلس وصقلية وتعلم أمراء الصليبيين وبعض قوادهم اللغة العربية في الشام أيام غزواتهم الطويلة.

ولما قام الباباوات بانشاء الرهبنات لبث الدعوة الدينية فى الشرق ، بدا لهم أن يعلموا الرهبان لغاته ولا سيما العربية وبعض اللغات السامية كالعبرية والسريانية وهذا لتفهم العهد العتيق ، فقضى مجمع فينا سنة ١٣١١ م برياسة البابا اكلمنتس الخامس أن تؤسس فى باريز واكسفورد وبولون وصلمنكة أي في عواصم العلم فى فرنسا وايطاليا وانكلترا واسبانيا يومئذ دروس عربية وعبرانية وكلدانية وسريانية . وكانت للمدرسة الطبية فى مونبليه في فرنسا سبقت فأنشئت سنة ١٢٢٠ دروسا عربية ليتسنى لها تدريس الطب فى كتب العرب ، وفى سنة ١٢٥٤ أنشئت أول مدرسة عربية فى اشبيليه من ارض الاندلس.

وظل الاستشراق العربى فى الغرب ضعيف الأثر الى القرن الثامن عشر وما قوي الا بقوة الاستعمار وفى غضون تلك الحقبة دخل فى طور العلوم المنظمة، وقضت

---

(١) موضوع محاضرة القاها بالكلية بدعوة منها حضرة صاحب السعادة محمد كرد علي بك وزير المعارف السورية سابقا وعضو مجمع فؤاد الأول للغة العربية وذلك في أول مارس سنة ١٩٤٨

بعض الدول الغربية وفى مقدمتها بريطانيا العظمى على عمالها فى بلاد العرب أن يتعلموا اللغة العربية فكان من تعلموها من أبنائها أكثر عددا من غيرهم من الامم لأن من طبع الانكليزي المتانة في الصناعات وما خرج الاستعمار عن كونه صناعة ايضا واعدد المعدات لاتقانها ما أمكن . وأنشأت النمسا سنة ١٧٥٣ مدرسة لتعليم لغات الشرق يدرس فيها القناصل والتجار وحذت فرنسا حذوها فأنشأت مدرسة اللغات الشرقية لمثل هذا الغرض سنة ١٧٩٥ وشادت المانيا مثلها فى برلين سنة ١٨٨٧ ثم تبعتها روسيا وايطاليا وانكلترا فأسست كل منها مدرسة لمثل هذا الغرض .

وكانت جامعات المانيا تدرس العربية منذ أكثر من ثلثمائة سنة وكذلك بعض جامعات بولونيا وبريطانيا العظمى . وهكذا بدأ الاستعراب فى الغرب ونبغ مئات من بنيه فى العربية وآدابها كانوا من العوامل الكبرى في النهضة العربية الاخيرة بما أحبوا من كتب العرب القديمة وخدموها أجل خدمة بمعارضتها على النسخ المتعددة وبوضع الفهارس المنوعة لها ليسهل الانتفاع بها بسرعة ومنهم تعلمنا هذه الطريقة واعتادوا أن يشرحوا غوامضها بلغة الناشر وباللغة اللاتينية لغة العلم المعتمد عليها الى عهد قريب ، فانتفعوا بما نشروا وتمعوا بما حوت من معارف كانت مجهولة ، بل بهم تجلت مدنية العرب لأول مرة لأنهم طبعوا في القرنين السادس عشر والسابع عشر فى ايطاليا وهولاندة كتبا عظيمة من كتبنا كانت حجر الاساس في انبعاث العربية من رقدتها الطويلة ، ويكفي أن نقول أن أوروبا طبعت كتبنا بالحروف العربية قبل أن تدخل الطباعة الى القسطنطينية والقاهرة بمائتى سنة ومن تصفح معلمة الاسلام (Encyclopedie de l'Islam) التى أصدرتها أوائل هذا القرن مطبعة ليدن الهولندية بلغات العلم الثلاث (الانكليزية والالمانية والفرنسية) يتضح له مبلغ عناية الغربيين بالمشرقيات العربية ويتجلى لعينيه ما وصلوا اليه ببحثهم

وإخصائهم فى اللغات والعلوم . هذا الى مئات من كتب أجدادنا نشروها وما قطع اطراد صدورها الا الحرب الاخيرة .

ولقد أسعدني الحظ منذ نشأت ان تعرفت فى مصر والشام وفى اوروبا الى بعض المستعربين من امم اوروبا اختلطت بهم وخالتهم ووقعت على اساليبهم فى البحث والدرس والتأليف والنشر وعاونوني فى بلادهم على درس المدنية الغربية وعلى الكشف عما فى خزائنهم ومتاحفهم من كتب العرب وآثارهم فعلى من ماتوا الرحمة وعلى الاحياء منهم السلام .

حداني على معالجة هذا الموضوع وعلى الأشادة بمن لقيتهم من المستعربين حديث وقع لي منذ سنين مع الاستاذ حافظ عامر بك من رجال السلك السياسي المصري وطلب الي لما تقوض المجلس أن اكتب نبذة فيمن عرفت من المستعربين فاعتذرت بان المواد التي لدي عنهم لا يتألف منها مبحث ، فقال رحمه الله يكفى أن تدون ما على خاطرك منه فطلاب الفوائد يستفيدون منه على كل حال .

وبعد ، فلا بد لي قبل أن أشرع فى الكلام على من عرفت ممن يعنينا أمرهم أن أشير الى أن أكثرهم جعلوا علمهم لخدمة دولهم وأممهم يخدمونها فى سياستها بما تصل اليه ايديهم ويهديهم اليه اطلاعهم ، ومن خرج قليلا عن قواعد وطنية شعبه نبذته دولته فلا يتوقعن اذاً من مستشرق أن يخدم غير أمته ولهم المعذرة في ذلك ، أما نحن معاشر العرب فيقنعنا منهم أن يخدموا آدابنا بأمانة لا يتخذونها سلما الى الطعن بنا وبمقدساتنا ولا ذريعة الى اغتصاب حقوقنا فى الحياة على نحو ما فعل لامنس البلجيكي ومرجوليوث الانكليزي وكراتشقوفسكي الروسي وهارتمان الالماني وكايتاني الايطالي مع اختلاف بينهم فى مقدار الطعن والداعى الذي ساق اليه. والأب لامنس سامحه الله كان أكثرهم تعصبا علينا لأن حياته على ما يظهر كانت متوقفة على هذه المطاعن حتى لقد سماه علماء الافرنج المؤلف المتحزب (L'historien partial).

أول من عرفت من هؤلاء المستشرقين المستعربين من الفرنسيس دوسو وماسينيون وكى ومازال جاء الأول الى الديار الشامية يكشف عن آثار بلاد النصيرية (العلويين) وجبل الدروز والصفا واللجاة وقد ألف بضعة كتب فى لغته بآثار هذه الاقاليم الشامية وعرض لتاريخها ووصف آثارها وظل يخدم هذا العلم باخلاص ومقامه عظيم بين علماء الآثار وأمناء متحف اللوفر فى باريز وأصدر مجلة سيريا (Syria) ملأها بتحقيقاته وكان خير صلة بين بلاده وبلادنا لأنه لم يتدخل فى شيء اسمه سياسة ، صرف جل اهتمامه لعلمه ولم يخلط فيه غيره . ومن أهم ما كتب (طوبوغرافية سورية فى القرون الوسطى) و (العرب قبل الاسلام) وهو فيما اعلم لم يكتب بالعربية بل أخذ من نصوصها واستعملها فى تآليفه.

أما المستعرب الثاني الاستاذ ماسينيون فانه انقطع الى الابحاث الاسلامية منذ نشأته وقال لي إن العلامة السيد محمود شكري الآلوسي البغدادي رحمه الله كان له أعظم الفضل عليه بأرجاعه من الألحاد الى حظيرة الدين . وأنا أقول بل زاد على ذلك وأصبح متصوفا وأذكر انى دعوته فى إحدى رحلاتى الى باريز لنشهد التمثيل ونتعشى معا ، فقال ، العشاء أمره سهل ولكن من للمتصوف أن يشهد التمثيل . وهو صادق في قوله فانه صرف جانبا عظيما من عمره فى نشر كتب التصوف، فنشر تآليف الحلاج واخباره ـ وديوانه بالعربية كما نشر الامثال البغدادية للطالقانى وتاريخ الاصطلاحات الفلسفية. ومعظم المقالات التي لها علاقة بالتصوف الاسلامي فى معلمة الاسلام على عهدها الاخير هى من قلمه وهو لعهدنا المرجع بين المستعربين فى مسائل التصوف فى الغرب، اذا عز على أحد المشتغلين كشف غامض وحل مسألة صوفية فليس له الا باب ماسينيون لأخذ الجواب . وهو اليوم عضو فى عدة مجامع منها مجمع فؤاد الأول للغة العربية والمجمع العلمى العربى والجمعية الآسياوية وهو أستاذ في كوليج دى فرانس وكتب مئات من الابحاث والمقالات في المجلات

الأســـلامية والشرقية بالفرنسية ومنها المجلة الآسياوية ومجلة العلم الأسلامى ومجلة الدروس الاسلامية وهو يعاون طلاب العرب فى باريز ويوجههم ويرشدهم .

أما الاستاذان كى ومالزاك فشغلا بمهام السياسة وأخذ وقتهما ما هما بسبيله من مصالح دولتهما وطافا معظم بلاد العرب والفرس فى السلك القنصـلي وانتفعا بمعرفة العربية والفارسية في الوظائف التي شغلاها ، وهيأت لهما سـبيل الانتفاع فى عملها ومعرفة هذا الشرق القريب . ويليهما استاذان متقدمان على هذين القنصلين في العمر وهما السيدان أوتافى و بيات فانهما كانا يجيدان العربيـة ويكتبانها كتابة سلسة صحيحة وقـد توليا شؤون دولتهما السياسية ، والسيد أوتافى كان استاذه في العربية السيد برغش أمـير زنجبار وكان قد قضى فيها أعواما طويلة قنصلا لفرنسا وكلاهما كان معجباً بالمدنية الاسلامية يصرحان بذلك أمام الموافق والمخالف وهما آية فى معرفة تاريخ العرب معرفة ثاقبة ويعرفان الاقطار العربية كما يعرفها أهلها ، ولا أعرف ان كان اتسع لهما الوقت فالفـا فى العربية أو الفرنسية أو نشرا بعض كتبها العلمية والأدبية .

وعرفت السيد هوار مدرس العربية بمدرسـة اللغات الشرقية فى باريز وناشر كتاب البدء والتاريخ لمطهر بن طاهر ومقامات ابن ناقيا وديوان سلامه بن جندل وغير ذلك ، وله تاريخ العرب بالفرنسية وعدة مقالات فى معلمة الأسلام ومعلوماته مثل معلومات غودفروا ديمومبين ليست واسعة كثيرا أو ليس فيها شيء جديد ولا يعد كصاحبه من اللامعين المبرزين كما كان السـيد شاتيليه صاحب مجـلة العالم الاسلامى الفرنسية وأستاذ علم الاجتماع الاسلامى في كوليج دي فرانس . وعرفت المستعرب مرسـيه ناشر كتاب حلبة الفرسان ، وعرفت آمار ناشر مقـدمة الوافي بالوفيات وله مقالات كثيرة فى مجلات المشرقيات ، كما صحبت المسيو فران أحـد مستعربيهم وناشر كتاب «الفوائد فى معرفة علم البحر والقواعد» لابن ماجد الملاح

البصري وهو من المعجبين بمدنية العرب خدمها فى نطاق اختصاصه وكان يجهر بذلك في خطبه و كتاباته.

ومن المستعربين الفرنسيين الذين عرفتهم ليفى بروفنسال وقد امتاز بابحاثه في الاندلس ونشر عدة كتب ممتعة في تاريخها بلغته وهو الذي أعد الذخيرة لابن بسام للنشر وتنشرها الآن جامعة فؤاد الأول وهو المرجع الأول فى الغرب بتاريخ الأندلس وما يتعلق به وقد تمم فى معلمة الأسلام ما كان يعالجه من مقالات بلاد الأندلس ورجالها المستعرب الألماني سيبولد .

وممن عرفتهم من أبناء هذه الامة السيد بلاشير المتخصص فى شعر المتنبي والسيد بريز العالم بالأندلسيات والصدر المتقدم في البلاغة العربية وصاحب الجولات الموفقة في آدابها وحضارتها .

ومن أهم رجال الاستعراب من الفرنسيين السيد مارسيه وهو يكتب العربية ويتكلمها كما يتكلمها أدباؤها أنفسهم ويكتبونها ويعد من مستعربي الدرجة الاولى من الأوربيين وقد نشر عدة ابحاث دلت على علو كعبه في العربية وآدابها واستفاد منه كثير من أدباء تونس ممن تخرجوا به كما استفادطلاب الاستعراب من أبناءأمته. وعرفت استاذا مستعربا صرف معظم حياته فى مراكش وهو السيد ميشوبلليرعاش عيشة المراكشيين وتزوج فيهم وله مقالات في مجلات المستشرقين . كما نشأت لى صداقة مع السيد بوفا وقد نشر أشياء كثيرة بالعربيةوأكثر من ذلك بالفرنسية مأخوذا من المصادر العربية وله أبحاث كثيرة لم تشتهر لانها قليلةالجرم وان كانت عظيمة الفائدة . ويلحق بالفرنسيين العلامة مونتيه السويسرى استاذ العربية في جامعةجنيف وهو الذي نقل القرآن الكريم الى الفرنسية وله أبحاث جليلةفيالأسلام ومحاضرات وقد ألف كتاب (الاسلام) قلت فيه ان ماينشره الاستاذمونتيه الحين بعد الآخر في الأسلام يليق بعالم القرن العشرين لانه يكتب وقد نزع منه التقاليد

القديمة والتعصب الذي يتلبس به طوعا او كرها من نشأوا فى الغرب ولم يخالطـوا أهل الأسلام ولا درسوا أصوله وقواعده وتاريخه الا دراسة متقزز متحرز ومما قاله في الرسول فى هذا الـكتاب ، انه كثيرا ما حكمت عليه الاحكام القاسـية ذلك لانه ندر مثله في المصلحين من عرفت حياتهم بالتفصيل وان ماقام به لأصلاح الأخلاق وتطهير المجتمع يمكن ان يعد به من أعظم المحسنين للأنسانية . وقال ان الأسـلام يسير سيرا حسنا في نشوئه خلافا لما يدعيه بعضهم وان الواجب على المسلمين ان يحتفظوا لقيام أمرهم بما حظرته الشريعة عليهم من تعاطى المسكرات .

هؤلاء معظم من عرفت من الفرنسيين اما الأنكليز والأميركان فعرفت بضعة منهم من العيار العالى فمن أوائلهم كرنيليوس فانديك وابنه إدوارد فانديك فان كرنيليوس خدم لغتنا ونشر العلم فى ربوعنا بما كتب بالعربية من اصناف العلوم كالطب والطبيعة والجغرافيا وقد أخلص فى خدمة العرب حتى إنه استقال من التـدريس في الجامعة الأميركية فى بيروت لما ارادت عمدة الجامعة ان تنقل التعليم من العربية إلى الأنكليزية قائلا إننا جئنا هذه الديار لنخدمها بلغتها لا بلغتنا . وتآليفه علي قدمهـا ما زالت متداولة يستفاد منها وكذلك ابنه إدوارد ألف فى علم الـكتب العربية كتابا جيدا وله غيره ودرس الأنكليزية فى المدارس المصريه زمنا . ومن اعظم المستعربين من الأنكليز صديقي العلامة براون أستاذ العربية في جامعة كمبريدج فانه نشر كتبا بالعربية وله بالأنكليزية تاريخ آداب اللغة العربية وهو من أمتع ما كتب في موضوعه على ماقال لى من قرأه بلغته من أحبابي ومن رأيه فيه خطابا لمـن بهرتهم الآداب الفارسية ، إن قصيدة واحدة من المعلقات السبع خير مما قاله شعراء الفرس . وكان فى الحقيقة المدافع عن مدنية الفرس فى الغرب والمحامى المتطوع فى خدمة قضية العرب والفرس في الغرب ، اخذ كثيرا عن الأستاذ الأمام محمد عبده وله ايادي بيض عـلى العرب وهو ممن امتازوا بمعرفة الأسلام معرفة ثاقبة ، وتعمق فيه وحنى عليه وعلي

أهله مثل رصيفه صديقي العلامة أرنولد مدرس العربية فى مدرسة اللغات الشرقية بلندن وناشر كتاب المنية والامل للمرتضى في ذكر المعتزلة وهو إمام فى الأبحاث الأسلامية لم تعد عليه هفوة واحدة في كل ما كتبه ولا سيما فى معلمة الأسلام وكنا فى مصر نتكلم بالعربية وهو في سن الشباب فلما عدنا واجتمعنا فى انكلترا تعذر عليه النطق بالعربية وآثر ان نتكلم بالفرنسية ومنهم الأستاذ بفن مدرس العربية فى جامعة كمبريدج وناشر مناقضات جرير والفرزدق في بضعة مجلدات كبيرة وفيها من التحقيق اللغوي ما يدهش شهدت له بتبحره فى ادب هذا اللسان وقوة ملكته فى النقد حتى أذكر أني ذكرت له إعجابي بوستنفيلد ناشر معجم البلدان لياقوت وعشرات غيره من كتب العربية فقال لى ان التحقيق يعز فى الكتب التى نشرها وأخرج لى جزءا من هذا المعجم صحح فيه أماكن كثيرة في كل صفحة فاضطررت الى الاعتراف بخطأي .

ومن مستعربي البريطانيين الاستاذ مرجليوث أستاذ العربية فى جامعة اكسفورد وكان يكتب العربية كتابة سلسلة نقل فيها التراكيب التي تشعر بعجمته وقد نشر من كتب سلفنا الصالح معجم الأدباء لياقوت فى بضعة مجلدات والأنساب للسمعاني ونشوار المحاضرة للتنوخي وديوان التعاويذى ورسائل المعري وغير ذلك وكان مقدما فى موضوعه وسبب اشتهاره بين ابناء صناعته انه تكلم في الأسلام بما لايقره عليه العارفون فحظى عند العامة ونزلت منزلته عند الخاصة . وخليفته في اكسفورد اليوم الأستاذ جيب وهو رصيفي في مجمع فؤاد الأول للغة العربية والمجمع العلمي العربي يكتب العربية مثلنا وقد كتب أشياء كثيرة فى الاسلام بلغته وهو يعد كتبا عربية أصلية لنشرها بلغتها التي كتبت بها .

ومن المستعربين الاميركان المستر وطسون رئيس الجامعة الأميركية فى القاهرة وله تلاميذ كثيرون وأصدقاء غير قليلين فى مصر كتب إلي يوم ١٩ ديسمبر ١٩٢٤

وكانت الجامعة الاميركية فى محنة إذ كثر التقول عليها فى مصر ورموها بأنها جامعة تبشير لا جامعة علم وكنت متعاقدا معها علي إلقاء محاضرات وأردت أن أرجع عن تعاقدي فأبيت الا القاءها — قال لعل اتصالكم بزملائي اعضاء مجلس ادارة الجامعة قد اطلعكم علي رغبتنا الشديدة في خدمة مصر والعالم العربي ما وسعنا ذلك وانا لنعد معهدنا جسر صداقة بين العالم العربي والعالم الغربي يشاد على الرغبة الخالصة فى أداء الخدمات المتبادلة بين العالمين فلئن كان فى الغرب ما يستفيد منه الشرق فان في الشرق ما هو خليق ان ينتفع به الغرب . ولا ريب فى انكم تبينتم من أناقة بناء قاعتنا الكبرى والصغرى مبلغ عنايتنا وتقديرنا للفن العربى الجميل وفضلا عن هذه الخدمات بين الشرق والغرب فان مهمتنا الكبرى هى العمل على حسن التفاهم بين هذين العالمين فهنالك من الأسباب ما دعا الى الكراهية والنفور بينهما والصلة التي تجمع عندها الشعوب والجماعات بحكم الثقافات هى المحبة والوئام .

ومن مستعربي الأميركان السيد الجليل دودج رئيس الجامعة الاميركية فى بيروت فانه ووالده من قبله قد أسديا إلى الأمة العربية يدا لاتنسى على ممر السنين وتخرج علي يديه وفي جامعته مئات من ابنائنا من المصريين والشاميين والعراقيين ولم تبق الأمور الأدارية للسيد دودج وقتا يصرفه فى الأبحاث التي غلبت عليه وهو آية فى فعل الخير عرف بها زمن الحرب العالمية الأولى فأنفق كل ما عنده على الفقراء ثم باع ما أمكنه بيعه ورهن أملاك جامعته وأخذ الفضل من ذلك فصرفه علي إطعام الجياع وهذا عمل فريد قل ان عمل مثله رجل من رجال الدين ، فهو كوطسون قسيس راق خدم دينه وأمته وخدم الأنسانية .

ويلحق بمستعربي الانكلوسكسونيين مستعرب آخر عنيت به صديقي العلامة كرينكو ولد في قرية من قرى شمالي ألمانيا وأتقن فى المدرسة الثانوية اللغات الألمانية والأنكليزية والفرنسية واللاتينية واليونانية ثم درس الأردية والفارسية وسكن فى

انكلترا وتجنس بالجنسية الأنكليزية وتزوج سيدة إنكليزية وكان له فى الحرب الماضية معمل لصنع الاقمشة فى ولستر يشتغل فيه اكثر من ألف عامل وعاملة فلما نزلت الأسعار عقبي الهدنة وكان فقد ابنه الوحيد فى الحرب أثر ذلك فى صحته وحمل الى المستشفى ولما خرج منه كان افلس من ابن الزلق فجاءه كتاب من الهند يطلب منه بعض اصدقائه في حيدر آباد الدكن ان ينسخ لهم ما يشاء من كتب العرب المحفوظة في المتحف البريطانى مقابل ثلاثمائة جنيه فى السنة قال فأنا الآن أعيش بفضل لغتكم . درس كرينكو العربية بدون معلم علي الكبر وهو يكتبها كتابة صحيحة إلا انه يجد صعوبة في التخاطب بها لقلة من لقيهم من أبناء العرب . كتب لي مرة وانت تعلم اني تعلمت اللغة العربية والفارسية والهندية بلامعلم لبعدى فى شبيبتى عمن يعلم شيئا من هذه اللغات فاعتمدت علي الكتب فقط الي ان وردصديقنا كاظم الدجيلي (الى بريطانيا) ومنه سمعت اول كلمة عربية ثم سألني صديقى عماد الملك وزير سمو النظام سلطان حيدر آباد بان أعاون دائرة المعارف التي أنشأها هو في عاصمة حيدر آباد لأحياء العلوم العربية في الهند مخافة خمولها فأول كتاب هذبته كان جمهرة اللغة لابن دريد فى ثلاث مجلدات مع فهرسته فى مجلد ضخم ...

يحسن العلامة كرينكو لغات اوروبا بأسرها ويتكلم بها بسهولة ويعرف من لغات الشرق العربية والفارسية والاردية ومن لغات الشرق القديمة طرفا من الحميرية والتركية والعبرية والأرامية وهو شاعر بالألمانية لغته الأصلية . وما كان يفارق المطالعة طول حياته وما منعه معمله عن الانصراف الى التأليف اوقات الفراغ وقلت له فى اكسفورد وانا ادهش من كتاب ضخم لابن قتيبه في الشعر وقد صححه وعلق عليه حواشي مفيدة ومتى أنجزت كل ذلك ياسيدي وأنت رجل صناعة فقال كنت في بعض أيام الآحاد اترك امرأتي تتنزه وحدها وألزم البيت فاكتب وأصحح وأعلق واذا نجوت ساعات قليلة في اليوم من حسابات المصنع انقلب نحو دفاتري وكتبي .

وقد نشر السيد كرينكو عشرات من الكتب والرسائل والمقالات بالعربية والألمانية والأنكليزية مالو نشر بعضه مجمع علمي في ثلاثين سنة لعد ذلك من مفاخره فمما نشر شعر ابى دهبل الجمحي وقصيدتان لمزاحم العقيلي وطبقات النحاة لابى بكر الزبيدي وديوان عمرو بن كلثوم التغلبي والمجتبي لابي بكر بن دريد بن عبد العزيز العجلي والحارث بن حلزة البشكري وديوان طفيل الغنوي وكتاب الجمهرة (الذي تقدم ذكره) وتنقيح المناظر لكمال الدين الشيرازى وكتاب التيجان فى تواريخ ملوك حمير لعبد الملك بن هشام وفي ذيله ما بقي من رواية عبيد بن شرية والدرر الكامنة فى اعيان المئة الثامنة لابن حجر العسقلانى (مع الفهارس التى ابى الطابع نشرها اقتصادا) وهو فى اربع مجلدات والجماهر فى معرفة الجواهر لابى الريحان البيروني والمنتظم لابن الجوزى (اربع مجلدات) والمؤتلف والمختلف للآمدى ومعجم الشعراء للمرزباني ومعانى الشعر الكبير لابن قتيبة واخبار النحويين البصريين للسيرافي وكتاب الافعال لابن القطاع وتفسير ثلاثين سورة لابن خالويه وكتاب الجرح والتعديل لابن ابى حاتم وهو اليوم يعد كتبا للطبع من تراث العرب العظيم فله المنة علينا بأحياء هذه المجموعة العظيمة من كتب أسلافنا .

أحب الأستاذ كرينكو العرب والأسلام محبة لاترجى إلا من العريق فيهما ، يتعصب للعرب على سائر أمم الأسلام من الفرس والترك والهند ويعتقد (كما كتب لي في ٢٣ آذار سنة ١٩٣٥) إن زوال الدولة العربية أعني خلافة بنى أمية وانتقال مركز الأسلام من دمشق الي العراق وظهور الفرس علي العرب كان أول سبب في الحيلولة دون انتشار الأسلام فى الأمم النازلة فى الشمال الغربي اى فى أوروبا وان الدولة العباسية قام بنيانها على دمن الدولة الاموية وان دخول الفرس فى المناصب العالية أدخل الغش والخيانة في الأعمال المالية وماكان الخلفاء الا ما ندر يفكرون في شيء من اعمال الشام ومصر (ولا أذكر ما وراءها من البلاد مثل إفريقية والمغرب

والأندلس) اللهم الا ما كان من نقل اموال الخراج الى العراق لشراء الجوارى والجواهر وإعطاء الجوائز للمغنيين والشعراء وما ماثلهم . ولو تدبرت مثلا اولاد الخلفاء لرأيت ان جميع خلفاء بنى أمية سوى مروان بن محمد آخرملوكهم كانوا أبناء حرائر وبالعكس كان خلفاء بنى العباس فان أكثرهم كانوا اولاد جوار مجلوبة من غير بلاد إسلامية . وآفة ثانية وهى جلب الغلمان الأتراك الي بغداد ليجعلوا منهم عبيدا للدولة فأصبحوا أرباب الخلفاء انفسهم فى اقل من قرن . وآفة ثالثة وهى ما كان من الحروب التى نشأت بين اهل السنة والشيعة وظلت متصلة الى زماننا هذا. وقد شاهدت ما غمنى فى بلاد الهند وهنا في انكلترا عند ما عيدنا عيد الفطر فامتنع بعض المتشيعين عن الصلاة خلف إمام سنى المذهب. وكل هذامما يهين أهل الأسلام في عيون الذين لا يعتقدونه. ويضاف الى كل هذه الآفات وهو أعظمها فى خمول الامم الاسلامية استنجاد السلاطين والامراء في حروبهم بالامم النصرانية من مجاوريهم ، وأول من ارتكب هذا الأثم خلفاء العبيديين فى مصر عند استيلاء الصليبيين على الشام . قال ولو كتبت الأسبوع كله لما أتيت علي آخر براهيني . ورأى ان علي أبناء العرب اليوم ان يتحدوا في منازعهم وينزلوا عن الجدال فى تحصيل الحرية الشاملة ويطبعوا فى قلوبهم المثل الانكليزى . ان ارحاء الله تعالى اذا طحنت ببطء فهي تطحن الجيد .

وبعد فان من المتعذر الآن ان نلم بسيرة هذا المستعرب من عامة أطرافها فهو الى أعماله العلمية العظيمة داعية متطوع في خدمة الأسلام الصحيح والحضارة العربية. هداه البحث الي أمور نحن أبناء هذه الحضارة كنا غافلين عنها فقد رد مثلا علي من زعم انه توجد نسخ من المصحف الشريف بخط الائمة علي بن ابى طالب والحسن والحسين وهى مما يكثر بين الشيعة وقال لوفرضنا انهم كتبوها فانهم لم يكتبوها بالخط الكوفي بل بالخط المكي القديم الذي هو الخط المعتاد الان . وفى رأيه ان

الخط الكوفي من اختراع مسلمة النصارى من الشاميين . وكتب لي مرة انه لا يعتمد علي مؤرخي الفرس لانهم يخلطون ويخبطون خبط عشواء . حدثنى صديقي الاستاذ خليل مردم بك انه كان يسمر عند الاستاذ كرينكو فكان من جملة ما تحدث به فى تلك الليلة امام زوجته سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام وما كان من أمره مع النساء وما عملهن به وما منحهن الأسلام من الحقوق مما لم تعط مثله امة قبل العرب وبحث فى علاقة رسول الله مع أزواجه ولا سيما مع عائشة أم المؤمنين . قال ومازال يتدرج فى حواره حتى ذكر كيف خرجت روح الرسول الطاهرة وهو على حجر عائشة . فلما سمعت امرأته هذا الكلام شهقت بالبكاء وخرجت من الغرفة . فقال الأستاذ كرينكو اني اتعمد إسماعها مثل هذه الأخبار لانها ليست محيطة بكل ما فى الأسلام من محاسن .

والاستاذ ليس له ارتباط بجامعة ولا بجمعية وكل ما فرح به ان اختاره المجمع العلمي العربي فى دمشق عضوا فاكبر هذا التنويه به وعده فخرا له . كما كان من أكثر من اختارهم هذا المجمع اعضاء مراسلين له فانهم اظهروا فى كل فرصة تفاخرهم بانضمامهم الينا وعدونا وعددناهم كاننا ابناء أسرة واحدة .

ومن مستعربى الأستراليين الأستاذ جفرى نشر كتاب المصاحف للسجستانى وهو معروف في مصر كان يدرس فى الجامعة الأميركية بالقاهرة . ومن أكبر المستعربين من الطليان الأمير كايتاني فانه تفضل فى سنة ١٩١٣ وقبلنى فى قصره في رومة ابحث فى المصورات التى صورها عن المخطوطات العربية في تاريخ الأسلام ولقد قضيت في هذه المهمة ثلاثين يوما رأيت منه عطفا كبيرا واطلاعا واسعا وانقلبت من لدنه بمذكرات ثمينة استعنت بها علي تأليف كتابي (خطط الشام) وهو يحسن سبع لغات ومنها العربية والفارسية وقد وضع بالايطالية كتابه تاريخ الاسلام (آنالي دل اسلام) العظيم طبع منه بالايطالية ستة مجلدات ضخمة وكان يرجو ان يفسح الله

في أجله ليكمل القرن الاول للأسلام فقط فى خمسة وعشرين مجلدا وما كان يطبع من تاريخه أكبر من مئتين وخمسين نسخة وقد جعل شعاره فى كتبه قول الشاعر العربي .

كفاف عيش كفانى ذل مسألة * وخدمة العلم حتى ينقضى عمري

يقول هذا وثروته قبل الحرب العالمية الأولي كانت تقدر بخمسة ملايين جنيه ايطالى ذهبي عدا ثروة الأميرة زوجته ، كان ينفق علي العلم فقط كل سنة عشرة آلاف جنيه انكليزي ، ونشر كتاب تجارب الأمم لمسكويه وكان يعد للنشر تراجم ثلاثين ألف عالم وأديب من المسلمين فى الأندلس وهى جذاذات جمعها طول حياته المستشرق الأسباني ريبرا. ومن كبار مستعربيهم السنيور جويدي وهو معروف في مصر وكان أستاذا فى الجامعة القديمة وحاضر في أدب الجغرافيا والتاريخ فأجاد من وراء الغاية وله كتب عظيمة في اللغات السامية ولا سيما الحبشية والأمحرية وكان يعد من مستشرقى الطبقة الاولى فى الغرب كتب الى مرة .

وان كان شاعركم العربى قال

وماذا تبتغى الشعراء مني * وقد جاوزت حد الأربعين

فأنا جاوزت حد الثمانين ومازلت أكتب وأؤلف نشر جويدى من كتبنا شرح بانت سعاد لابن هشام وكتاب الافعال لابن قوطية والاستدراك لابي بكر الزبيدي وكتاب مهدي الموحدين محمد بن تومرت وديوان الحطيئة جرول بن أوس ومعانى النفس ومقالة فى أسماء الله الحسنى لكاتب إسرائيلي قديم وغير ذلك عدا المقالات بالأيطالية وغيرها من لغات الغرب . وابنه ميكل انجلو مستعرب مثل أبيه وكان يدرس فى جامعة فؤاد الأول قبل الحرب الاخيرة . وممن عرفه العلماء والأدباء فى مصر الاستاذ غريفيني ناشر فقه زيد بن علي وديوان الأخطل والطبقات لأبى بكر الزبيدي ولمع القوانين المضيئة فى دواوين الديار المصرية لعثمان بن ابراهيم النابلسي الى غير ذلك من النصوص العربية ومنها قصائد لبعض شعراء الجاهلية.

ومن الايطاليين المتازين بين المستعربين صديقي العلامة نلليـنو عضو مجمع فؤاد الأول والمجمع العلمي العربي ومدير المعلمة الايطالية (دائرة المعارف والموسوعات) وصاحب المقالات الممتعة في معلمة الاسلام الى غـير ذلك من التآليف ومنها تاريخ علم الفلك عند العرب القاها محاضرات على تلاميذ الجامعة القديمة بالقاهرة وقد نشر كثيرا من كتب العرب منها زيج البتاني في الفلك والبيان لابن رشد وكان يكتب ويخطب بالعربية ثم انقطع عن معاناة العربية مـدة فصار يسهل عليه أن يكتب بالفرنسية وصعبت عليه الكتابة بالعربية وكان يحب الشرق وأهله وقد امتاز بمعرفة بلاد شمالي افريقيـه وجغرافيتها وآثارها وتاريخها ويعـد من أعظم علماء المشرقيات عامة.

وعرفت من مستعربي الالمان والهولانديين والتشكيين والدانمركيين والسويديين والاسبانيين والبولونيين والمجريين جملة صالحة، فمن الالمان هرزفلد مكتشف آثار السامانيين وآثار سر من رأى ومنهم هوروفتس ناشر الهاشميات للكميت، درس العربية سنين طويلة في جامعة أليغار في الهند وكثير من رجال القضاء وحملة العلم من الهنود هم من تلاميذه ومنهم ريتر ناشر كتاب مقالات الاسلاميين واختـلاف المصلين للأشعري، والوافي بالوفيات للصفدي، ومنهم برتزل نشر طبقات القراء لابن الجزري مع برجسترازر. ونشر برتزل التيسير في القرآآت العشر لابي عمـرو الداني والمقنع في رسم مصاحف الامصار من كتاب النقط له أيضاً. ونشر الدكتور مايرهوف مقالات في العين لحنين بن اسحق. ومن أعظم من عرفتهم من مستعربي الالمـان العلامة بروكلمان صاحب تاريخ آداب اللغة العربية بالالمـانية وهو ناشر كتاب تلقيح فهوم أهل الآثار في مختصر السير والاخبار لابن الجوزي وعيون الاخبار لابن قتيبة وديوان لبيد وكتاب ما تلحن فيه العوام للكسائي. وعرفت من الالمان هوميل وميتفوخ وهارتمان والاستاذ هوميل من أعظم المستعربين في الغرب وقد اثبت أن حمورابي صاحب القانون كان عربيا. ورأيت هوميل في مونيخ وهو

فى الخامسة والستين يدرس لغة الجغطاى من لغات الترك القديمة ، وقد توفر على درس ديوان ابن قيس الرقيات سنين بأمل أن يجد فيه اسماء بعض الالبسة عند العرب ، وبعد البحث الطويل ظفر بلفظين اثنين فاغتبط بهذا الاكتشاف . ومن المجريين غولد صهير نشر فضائح الباطنية للغزالي ، وكتاب المعمرين للسجستانى وغير ذلك ، وكان يعد من اكبر رجال المشرقيات فى الغرب كتب مئات من الابحاث الاسلامية بالمجرية والالمانية والفرنسية والانكليزية والروسية والسويدية والخرواتية الصربية والعربية وكان يتكلم العربية جيدا درسها فى الأزهر. ومن الهولنديين سنوك هرغرونى واواندونك وهوتسما وهذا نشر زبدة النصرة للعماد الاصفهانى وتاريخ اليعقوبى والاضداد لابن الانبارى وغيره من كتب العرب وكان مدير تأليف معلمة الاسلام ، وقال لي مرة ترى أعيش وأشهد هذه المعلمة قدمت وظهرت للناس فمتعه الله بالحياة ورآها تامة كما أحب.

ومن الاسبانيين الأب آسين بالاسيوس مدرس العربية فى جامعة مجريط كتب مؤلفا ضخما بالاسبانية اثبت فيه أن دانتى شاعر الطليان أخذ قصة المهزلة الالهية من رسالة الغفران للمعري. ونشر آسين بالاسيوس من كتب العرب المدخل لصناعة المنطق لابن طلموس وغيره .

ومن السويديين سترستين من جامعة اوبسالا نشر تاريخ سلاطين مصر والشام وحلب وبيت المقدس وأمرائها لابراهيم مغلطاى وقطعة من تهذيب اللغة للازهري ومنهم بدرسن الدانمركى وسموغرجفسكي البولونى ، ومنهم موسيل التشكى وقد قضى سنين مع قبيلة الرولا فى بادية الشام رسم خلالها أحسن المصورات الجغرافية وكتب كتبا عظيمة عن اكتشافاته وكان يدعى الشيخ موسى الرويلي ورأيته في الحرب العالمية الاولى يتقلد رتبة جنرال ويصحب بعض أمراء ملوك النمسا فى رحلة إلى الشرق القريب .

هذا ما وعته الذاكرة ممن اجتمعت بهم وعرفتهم عن أمم وذلك بالاختلاط بهم وبقراءة كتبهم وابحاثهم وربما فاتني ذكر بعضهم وليس المقصود استقصاء اسمائهم كلهم بل الغاية التنويه ببعض أعمالهم ورسم الخطط لمن يحب العلم للجرى على آثارهم ، والسلام عليكم .

محمد كرد علي

قمة دلتا النيل

وتغيير موضعها منذ أقدم العصور البشرية حتى الوقت الحاضر

للدكتور ابراهيم احمد رزقانه

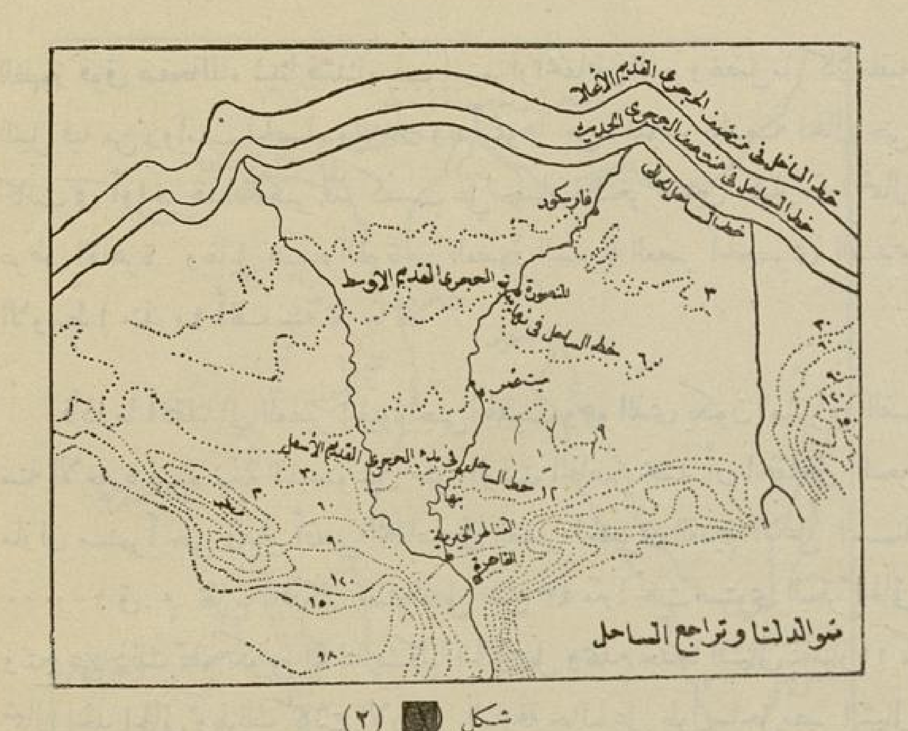
تكوين الدلتا:

لم يأخذ سطح مصر في الظهور فوق صفحة الماء الا فى أواخر الزمن الجيولوجى الثاني واستمرت حركة الارتفاع هذه خلال الزمن الثالث فى عصري الايوسين والأوليجوسين حتى أصبح ساحلها الشمالي في العصر الاخير يمتد في المنطقة المحصورة بين الفيوم والقاهرة. ولم يكن نهر النيل بشكله الحالي قد تكون بعد ولكن كان هناك نهر كبير يجرى نحو الشمال حتى يلتقى بالساحل الأوليجوسيني شمال الفيوم مباشرة وما زالت آثار مجرى هذ النهر واضحة الى الغرب من مجرى النيل الحالي حيث يطلق عليه الجيولوجيون(١) اسم «جد النيل» أو «بحر بلاماء» (انظر شكل ١)

فاذا انتقلنا الى عصر الميوسين نجد أن توزيع تكويناته يدل علي انه فى القسم الأول من هذا العصر انخفض شمال مصر بحيث تراجع خط الساحل نحو الجنوب عما كان عليه فى العصر السابق ، ولكن فى القسم الاخير من نفس العصر تنعكس الحركة وترتفع الارض ويوجد لأول مرة نهر النيل الحالي الذي أخذ في التقدم شمالا — كلما زاد ارتفاع الارض وتقهقر البحر — ناحتا واديه العظيم خلال صخور العصور السابقة.

فلما جاء عصر البليوسين ارتفع مستوى البحر من جديد حتى وصل مستواه الى ١٨٠ فوق مستواه الحالي وتراجع خط الساحل تبعا لذلك نحو الجنوب حتى

(1) J. De Morgan, *Recherches sur Les Origines de l'Egypte. L'Age de La Pierre et Les Métaux.* Fig. 3. Paris 1896.



شكل (٢)

وصل الى عرض القاهرة وتحول جزء كبير من وادي النيل الى خليج بحري[1] غير أن هذا الخليج لم يلبث أن امتلأ بالحصباء والرمال التي جلبتها المجاري المائية المنحدرة من الهضاب المحيطة بهذا الوادي ، ثم نجد ساحل البحر يتقدم نحو الشمال نتيجة لارتفاع الارض فى القسم الاخير من هذا العصر ، وكلما انحسر البحر عن منطقة تقدم النيل فيها بواديه وأخذ يلقي فى البحر كميات كبيرة من الحصباء والرمال انتشرت علي شكل دلتا.

ولما بدأ عصر البليستوسين (منذ نصف مليون سنة تقريبا) كان مستوى البحر المستمر في الانخفاض ـ مازال أعلا من مستوي الارض بمقدار مائة مترعنه في الوقت الحاضر وكانت أرض الدلتا مازالت مغمورة بمياهه ولكنها أخذت في

(1) W. F. Hume and O. H. Little, *Raised Beaches and Terraces of Egypt* in Report of the Commission of Pliocene and Pleistocene Terraces, Union Geographique Internationale p. 11, 1928.

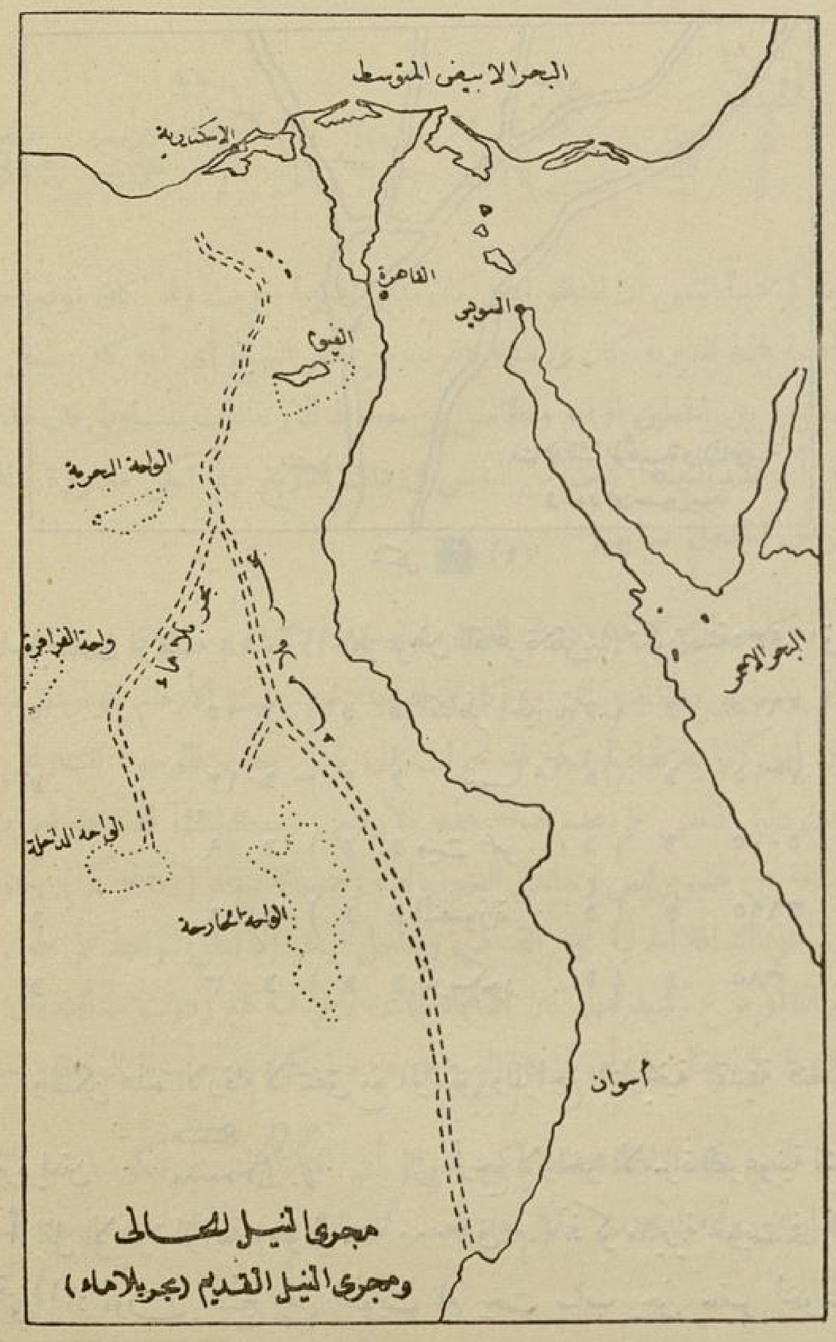
الظهور فوق صفحة الماء شيئا فشيئا بسبب استمرار انخفاض البحر وبفضل ما كان يلقيه النيل فيه من رواسب الحصباء والرمال وبدأ نموها من الجنوب بطبيعة الحال حتى كانت فى أواخر هذا العصر قد كسبت علي حساب البحر تسعين كيلو مترا شمال عرض القاهرة . ويقابل هذه الفترة من العصور البشرية العصر الحجرى القديم الاوسط (منذ ٤٠ ألف سنة تقريبا)

فأذا ما انتقلنا الي العصر الجيولوجى الحديث وهو الذى يكون العشرين الف سنة الاخيرة منذ نهاية البليستوسين حتي الوقت الحاضر نجد أن انخفاض البحر مازال مستمراً حتى وصل أقصى انخفاضه فى العصر الحجرى القديم الاعلى (سنة ١٠،٠٠٠ ق. م. تقريبا) فكان مستواه على عمق ٤٣ مترا تحت مستوى البحر الحالى ونتج عن ذلك تمام تكوين الدلتا بشكلها الحالى بل وتقدم حدها الشمالى بمقدار ١١ كم شمال الحد الحالى وبذلك كانت الاراضى الغارقة حاليا على طول ساحل مصر الشمالى عبارة عن أرض جافة صالحة لسكنى الانسان . ثم بعد هذا التاريخ تنعكس الحركة ويأخذ مستوى البحر فى الارتفاع حتى اصبح فى منتصف العصر الحجري الحديث (سنة ٦،٠٠٠ ق. م. تقريبا) علي مستوي ثمانية أمتار فقط تحت المستوي الحالى وبذلك أصبح حد الدلتا الشمالى علي بعد ثلاثة كيلومترات تقريبا شمال الساحل الحالى [١]. ثم باستمرار حركة ارتفاع البحر اتخذ خط الساحل موضعه الحالى (انظر شكلي ٢،٣)

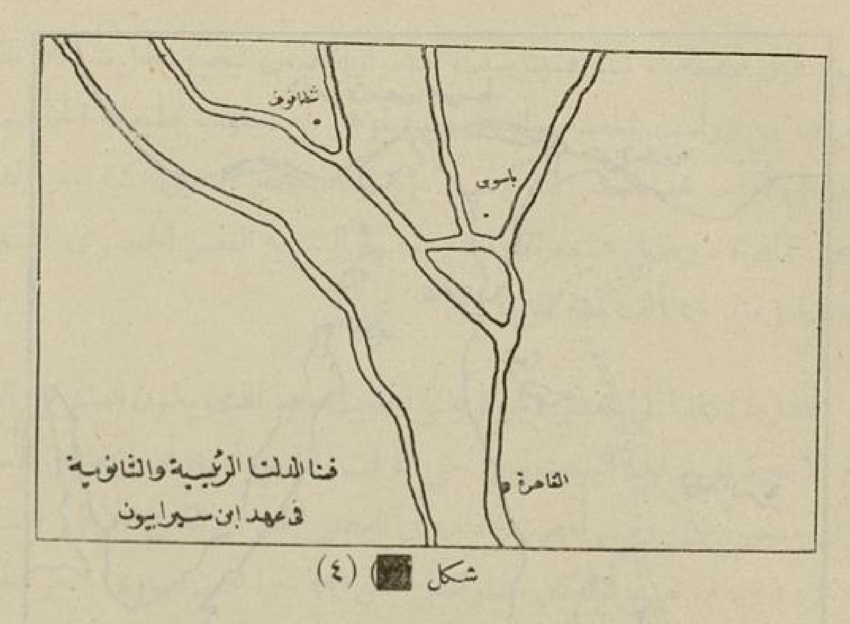
ويري الامير عمر طوسون [٢] أن تراجع ساحل البحر — أو نمو الدلتا بمعني آخر — تم على المراحل الآتية :

(1) John Ball, *Contributions to the Geography of Egypt*, Cairo 1939 pp. 31, 32, 39 and plate 8.

(2) Omar Toussoun, *Mémoire sur L'Histoire du Nil*, t. 3 1925 planche 22.


البحر الابيض المتوسط
الاسكندرية
القاهرة
السويس
الفيوم
الواحة البحرية
واحة الفرافرة
الواحة الداخلة
الواحة الخارجة
البحر الاحمر
أسوان
مجرى النيل الحالى
ومجرى النيل القديم (بحر بلا ماء)

شكل (١)



شكل (٤)

الساحل الذى ارتفاعه ١٨ مترا (خط عرض القاهرة تقريبا) تكون سنة ١١٩٣٥ ق.م.

»	» ١٥	(» » القناطر الخيرية »)	» ٩٦٢٥ »
»	» ١٢	(» » بنها »)	» ٧٣١٥ »
»	» ٩	(» » ميت غمر »)	» ٥٠٠٥ »
»	» ٦	(» » المنصورة »)	» ٣٦٩٥ »
»	» ٣	(» » فارسكور »)	» ٣٨٥ »

ولكن هذه الارقام لا تتفق مع الوثائق والمراجع التاريخية القديمة فنصوص مقبرة إمتن   التي ترجع لاواخر الاسرة الفرعونية الثالثة أو أوائل الاسرة الرابعة (حوالي سنة ٣٠٠٠ ق.م.) تذكر مديرية خويت فى النص الآتي(١): أون عج مر خويت إم يخت ساب حر سقر خويت

(1) Depsins (C.R.), *Denkmäler aus Aegypten und Aethiopien*, Zweite Abtheilung, Denkmäler des Alten Reichs, Blatt S.



ويذكر هذا النص أن المدعو إمتن كان مدير لمديرية خويت ولما كان موقع خويس عاصمة هذه المديرية كان فى سخا بالقرب من كفر الشيخ أى أنه كان يشغل منطقة محصورة بين الخطين الرابع والخامس من خطوط الارتفاعات المتساوية فان هذا يدل علي أن هذه المنطقة كانت من اليابس فى ذلك التاريخ ولم تكن مغمورة بالماء كما يفرض الجدول السابق.

كما أن المؤرخ هيرودوت الذى مات سنة ٤٢٥ ق.م. يحدثنا عن المدن القديمة بوتو وسايس وتانيس التي ما كانت لتوجد لو صحت الأرقام الواردة بالجدول لأن أماكنها بمقتضاه لم تكن قد تحولت الى يابس بعد . فالوجود التاريخى لهذه المدن دليل قطعى علي عدم صحة هذه الارقام . وكذلك قدر هيرودوت(١) المسافة بين هليوبوليس وساحل البحر بألف وخمسمائة ستاد (٢٨٧ كم) وهو رقم يزيد علي المسافة الحالية بين القاهرة وساحل البحر الابيض المتوسط علي طول فرع دمياط أو فرع رشيد فمهما كان الاتجاه الذى قاس فيه هيرودوت مسافته فان الرقم الذي ذكره يدل علي أن ساحل البحر فى عهده لم يكن جنوب خط الساحل الحالي.

ومن هذه الادلة مجتمعة يمكن القول أن الدلتا قد تم تكوينها قبل العصر التاريخى وأنه لم تحدث خلال هذ العصر تغيرات ملحوظة فى موضع خط الساحل الشمالي.

---

(1) Herodotus II, 7.

تطور قمة الدلتا:

اذا كانت الادلة الجيولوجية والاثرية والتاريخية تشير الى أن حدود الدلتا الشمالية قد تعرضت لعده ذبذبات قبل العصر التاريخي وانها لم تغير موضعها خلال هذا العصر فان الامر ليس كذلك فيما يختص بقمة الدلتا ، إذ تشير نفس الادلة الى انها في تغير مستمر منذ تكونها حتى الوقت الحاضر .

ونحن اذا نظرنا الى خريطة طبيعية للمنطقة المحصورة بين حلوان والقاهرة وجدنا أن الهضبة الشرقية تحتضن النيل فى هذه المنطقة وتشرف عليه بواسطة سلسلة من التلال هى من الجنوب للشمال جبل حوف وجبل طره وجبل المقطم فلم تسمح له هذه المرتفعات بتكوين سهل فيضى كما لم تسمح له بالتفرع فى الاتجاه الشرقى على طول امتداده بين حلوان ومصر العتيقة ثم بمجرد ان تبتعد عنه الهضبة فى هذا المكان الاخير نجده يمد له ذارعا نحو الشمال الشرقى ، وأما في غرب النهر فى نفس المنطقة فنجد الهضبة الغربية بعيدة عن النهر ويزداد بعدها عنه كلما اتجهنا شمالا ولهذا استطاع أن يكون سهلا فيضيا متسعا ومن الجائز أنه استطاع أن يمد له ذراعا فى الاتجاه الشمالى الغربى يخرج منه عند منفيس . وعلي أي فان هذه المنطقة — من الوجهة الطبيعية — أنسب مكان لتكون قمة الدلتا الاولى اذ تشرف التلال عليها من الشرق والغرب ثم تأخذ التلال في الابتعاد عن النهر كلما سرنا شمالا حتى يتحول المنظر الطبيعي الى سهول متسعة أشبه شيء بالبوابات التى تؤدى الى ميدان فسيح .

ومع أنه ليس لدينا — من الوجهة الاثرية — نصوص صريحه من اوائل العصر الفرعونى تعين لنا موضع قمة الدلتا في تلك الفترة ألا أننا نستطيع أن نستنتج من التقسيم الاداري رأى الفراعنة فى موضع هذه القمة التي كانت بمثابة الفاصل بين الدلتا والصعيد فقد جعل الفراعنة من منفيس حاضرة القسم الادارى

الاول من اقسام مصر السفلي وأشاروا اليها إنب حج أي الحائط الابيض الذي كان يفصل بين الدلتا والصعيد ويقع عند طرف كل منهما لحماية أهل الصعيد من اغارات أهل الدلتا ومعني هذا أن ماتلا منفيس شمالا كان معتبرا — في رأى الفراعنة قبيل قيام الحكم الملكي — من الدلتا . وكان قلب منفيس وحيها الرئيسي في موضع قرية ميت رهنية الحالية أي جنوب رأس الدلتا الحالى بحوالى ثلاثين كيلو مترا ، هذا فى غرب النهر وأما في شرقه فقد اعتبر الفراعنة منطقة المعصرة وطره الحالية قسما اداريا من اقسام شرق الدلتا وأطلقو عليه اسم (١)
ولاشك ان التقسيم الادارى كان صدي للحالة الطبيعية القائمة فى عهده أوقبله ولهذا يمكن القول أن رأس الدلتا كان فى بدأ الحكم الملكي المصري أو قبله بقليل فى منطقة منفيس وطره وأن تفرع النيل كان يبدأ من هذا المكان .

فاذا ما انتقلنا الى الدولة الحديثة نجد نصوصا صريحة تعين موضع قمة الدلتا مثل النص الآتى الذى أورده برجسن فى قاموسه (٢)

---

(١) قرأ زيتا اسم هذا الاقليم عينن وقال انه هواقليم الذى يشغل المنطقة الجبلية بمحاجر المعصرة وطره على الشاطيء الايمن للنهر تجاه منفيس وقد ورد ذكره في مقبرة الملك ساحورع من الاسرة الخامسة في أبوصير . وكان يعين الحدود الفاصلة بين منطقتى نفوذ الالهين حورس وست أي بين مصر العليا ومصر السفلي . وقد اعتبر هذا الاقليم فى العصر اليوناني مديرية مستقلة من مديريات الوجه البحرى كتب اسمها بهذا الشكل
كما ورد اسم عاصمتها فى الصيغ ، ، [انظر Sethe, dans Bodchardt, Sahure, II, p. 131 et III, pl. 72; Dümichen, Geog. Inschr I, pl. 66, n° 36; Gauthier, Dictionnaire des Noms Géographiques contenus dans Les textes Hiéroglyphiques t. I. p. 78].

(2) Brugsch, *Dictionnaire Géog. de l'Ancienne Egypte*, Leipsig 1879 p. 622.

حابي إم خري عحا

أى النيل الذى ينبع عندي خري عحا

وكذلك جاء فى نفس القاموس النص الآتى :

ومعني النص « هذه المنطقة التى هى خرى عحا تدفع النيل نحو مدينة جـدجد (بوصير) وتجعل النيل يأتى وتقيسه بالذراع لـكي توصله الى كل المصبات »

ولا يمكن أن تفسر هذه النصوص الا علي ان مدينة خرى عحا (مصر العتيقة الحالية) كانت تقع عند قمة الدلتا حيث كان ينبع عندها من النيل الاصلى أحد فروعه الرئيسية وهو فرع دمياط الحالى الذي كانت تقع عليه مدينة جدجد(بوصير جنوب سمنود بقليل).

ثم فى أواخر الحـكم الملـكي المصري نجد المؤرخ اليوناني هيرودوت (القرن الخامس قبل الميلاد) يشير اشارة دقيقة الى موضع قمة الدلتا فى عهده فيقـول [١]

Μέχρι μὲν Κερκασώρου πόλιος ῥέει εἷς ἐὼν ὁ Νεῖλος τὸ δὲ ἀπὸ ταύτης τῆς πόλιος σχίζεται τριφασίας ὁδούς, καὶ ἣ μεν πρὸς ἠῶ τραπέται

ومعني النص « يجري النيل الآن حتى مدينة كركاسور في مجرى واحد ولـكنه بعد ذلك يتفرع الى ثلاثة فروع »

فأين كانت تقع مدينة كركاسور التي جعلها هيرودوت قمة للدلتا ومكانا يتفرع النيل عنده الى فروعه الرئيسية ؟

(1) Herodotus, 2. 17.

لم يعين لنا هيرودوت موضع هذه المدينة ولكن سترابون الذى كتب بعد هيرودوت بأربعة قرون يعين لنا موضعها بالدقة فيقول(١)

Ἐντεῦθεν δὴ ὁ Νεῖλός ἐστιν ὁ ὑπὲρ τοῦ Δέλτα· τούτου δὲ τὰ μὲν δεξιὰ καλοῦσι Λιβύην ἀναπλέοντι, ὥσπερ καὶ τὰ περὶ τὴν Ἀλεξάνδρειαν καὶ τὴν Μαρεῶτιν, τὰ δ' ἐν ἀριστερᾷ Ἀραβίαν· ἡ μὲν οὖν Ἡλίου πόλις ἐν τῃ Ἀραβίᾳ ἐστίν, ἐν δὲ τῇ Λιβύῃ Κερκέσουρα πόλις κατὰ τὰς Εὐδόξου κειμένη σκοπάς ...ὁ δὲ νομὸς Λητοπολίτης οὗτος· ἀναπλεύσαντι δ' ἐστὶ Βαβυλών,

ومعنى النص : «يصل الانسان من هليوبوليس الى النيل عند قمة الدلتا . والاجزاء الواقعة علي يمين القمة ونحن مبحرون جنوبا تسمى ليبيا وتتبعها الاجزاء التي حول الاسكندرية وبحيرة مريوط وأما الاجزاء الواقعة علي اليسار فتسمى (صحراء) العرب. وعلي هذا تتبع هليوبوليس (صحراء) العرب. واما مدينة كركاسور الواقعة بالقرب من مرصد اودوكس فتتبع ليبيا ...... ونحن هنا فى مديرية ليتوبوليت واذا واصلنا الابحار جنوبا وصلنا الى بابيلون» .

واذاً فهذا الكاتب يخبرنا فى صدر النص أن المسافر اذا اتجه من هليوبوليس الى النيل فانه يصله عند قمة الدلتا. وفى هذا اشارة — ولو انها غير صريحة — الى أن قمة الدلتا تقع تجاه هليوبوليس . ثم يخبرنا سترابون فى آخر النص بأن مدينة كركاسور تقع غرب النهر فى مديرية ليتوبوليت — وهى القسم الاداري الثاني من اقسام مصر السفلى — وأن هذه المدينة قريبة من مرصد أودوكس أي تجاهه لأن هذا المرصد كان يقع شرق النهر جنوب مدينة هليوبوليس. ولما كانت مسلة هليوبوليس تقع فى الوقت الحالي علي بعد ٣٢٠٠ مترا شمال عرض الطرف الجنوبي لجزيرة الوراق كما أن المسلة لم تكن كل شيء في المدينة بل كانت المدينة عظيمة الامتداد ولا شك أن جزءاً من امتدادها كان جنوب المسلة ثم بعد ذلك كان

(1) Strabo, 17.30.

المرصد جنوب المدينة فان هذا يرجع وضع المرصد — وبالتالي وضع كركاسور — تجاه الطرف الجنوبي لجزيرة الوراق الحالية وبهذا يمكن القول أن قمة الدلتا ونقطة تفرع النيل كانتا قبيل الميلاد عند هذا المكان(١)

ويعطينا سترابون المسافة بين منفيس وقمة الدلتا فيقول(٢)

Ἐγγὺς δὲ καὶ ἡ Μέμφις αὐτὴ τὸ Βασίλειον τῶν Αἰγυπτίων εἶσι γαρ ἀπὸ τοῦ Δέλτα τρίσχοινον εἰς αὐτήν.

ومعنى النص « ممفيس نفسها عاصمه المملكة المصرية قريبة أيضا منها (من بابيلون) لأن المسافة اليها من الدلتا ثلاث شوينات فقط »(٣)

وكذلك يعين لنا بلينيوس المسافة بين ممفيس وقمة الدلتا فيقول(٤)

unde (Memphis) ad Hammonis oraculum XII dierum est, ad scissuram autem Zili, quod appellavimus Delta, XV.

ومعنى النص «من ممفيس الى واحة آمون مسيرة اثنى عشر يوما ومنها (منفيس) الى النقطة التي يتفرع عندها النيل ويكون ما سميناه الدلتا مسافة خمسة عشر»(٥)

وأما بطليموس الجغرافى فيذكر ان المسافة بين ممفيس وقمة الدلتا عشر دقائق عرضية أي حوالى عشرين كيلو مترا (٦)

---

(1) Prince Omar Toussoun, *Mémoire sur l'Histoire du Nil, t. I.* p. 139-140.

(2) Strabo, 17.31.

(٣) الشوين عند سترابون تساوى ٨٦٥٢ مترا

(4) Plinius, *Hist. Nat.*, V, IV.

(٥) لم يذكر بليني في نصه تمييز هذه الخمسة عشر. وقد فهم مترجم طبعة لوب هذه الجملة خطأ فقال فى ترجمته لها أن المسافة من منفيس الى نقطة تفرع النيل مسيرة خمسة عشر يوما وهو تفسير مستحيل وصحته خمسة عشر ميلا رومانيا ويستحسن أن يثبت فى النص اللاتينى علامة الميل الرومانى بعد الرقم ١٥ منعا لهذا اللبس وكان الميل الروماني فى عهد بلينى يساوى ١٤٨٢ مترا

(٦) الدرجة العرضية عند بطليموس تساوي ١٢٣ كم

وهكذا نرى أن سترابون يعطى للمسافة بين ممفيس ورأس الدلتا ثلاثة شوينات (٢٦ كم تقريبا) وأن بليني يعطى للمسافة بين هاتين النقطتين ١٥ ميلا رومانيا (٢٢ كم تقريبا) وأن بطليموس يعطى لنفس المسافة عشر دقائق عرضية (٢٠ كم تقريبا). وتدل أرقام هؤلاء الكتاب فى مجموعها على أن رأس الدلتا تقدم نحو الشمال وأنه كان فى القرون الاخيرة قبل الميلاد وفى القرون الاولى بعده شمال القاهرة الحالية أى عند روض الفرج لان المسافة بين ميت رهينة (قلب ممفيس) وبين روض الفرج حوالى ٢٥ كم

وترجح الظروف الطبيعية وضع رأس الدلتا فى هذه الفترة عند الطرف الجنوبى لجزيرة الوراق الحالية (١) لان هذه الجزيرة عظيمة المساحة وتدل حالتها علي أنها كانت يوما ما متصلة بقلب الدلتا من طرفها الشمالى بحيث تكون شبه جزيرة يتفرع النهر عند طرفها الجنوبي الى فرعيه البلوزى والكانوبي. ويتفق مظهرها في هذه الحالة مع مظهر قمة الدلتا الحالية حيث يتفرع الفرعان دمياط ورشيد عند الطرف الجنوبي لجزيرة الشعير.

فاذا ما انتقلنا الى العصر العربى نجد ابن عبد الحكم المتوفي سنة ٢٥٧هـ (٨٧١م) يتحدث عن النيل فيقول (٢) «وكانت الجنات بحافتى النيل من أوله الى آخره فى الجانبين جميعا مابين اسوان ورشيد وسبع خلج خليج الاسكندرية وخليج سخا وخليج دمياط وخليج منف وخليج الفيوم وخليج المنهى وخليج سردوس» فهذا

(1) Prince Omar Toussoun, *Mémoire sur les anciennes branches du Nil, Epoque Ancienne*, dans Mémoires présentés à l'Institut d'Egypte, t. IV, premier fascicule 1922, p. 9 et pl. 4 and 5.

(٢) ابن عبد الحكم — فتوح مصر وأخبارها ص ٦—٧ طبعة Torrey ليدن سنة ١٩٢٠م

الكاتب يعدد لنا خلجان النيل أى فروعه ويسمى كل فرع اما باسم البلدة التى يخرج عندها من النيل أو باسم البلدة التي ينتهى عندها فى البحر أو فى بحيرة قارون فاما خليجا المنها والفيوم فلا شأن لنا بهما عند بحث قمة الدلتا ويكفى أن نذكر أن ابن عبد الحكم ينسب حفرهما الى يوسف عليه السلام . وكذلك لاتفيدنا خلج الاسكندرية وسخا ودمياط فى تعيين موضع هذه القمة لانه سماها باسماء مصباتها ويبقى بعد ذلك خليجا منف وسردوس فأما خليج منف فانه يشير الى موضع رأس الدلتا القديم عند المدينة السماة بهذا الاسم ومن المرجح أن هذا الفرع لم يكن يجرى في العصر العربي وانما كانت آثار مجراه مازالت ظاهرة في ذلك العصر . ويبقى لدينا بعد ذلك خليج سردوس الذي كان يخرج من النيل الرئيسى عند البلدة السماة بهذا الاسم بجوار باسوس الحالية وتجاه الطرف الشمالى لشبه جزيرة الوراق حيث تخرج من النيل فى الوقت الحالى ترعة ابو المنجا التى تمثل مجرى فرع سردوس القديم

ومع أن ابن عبد الحكم لم يشر فى هذا النص صراحة الى أن قمة الدلتا كانت تقع عند بلدة سردوس الا ان هذه البلدة كانت أقصى البلدان الواقعة جنوب الدلتا مباشرة التي ذكر هذا الكاتب أن فرعا يخرج من النيل عندها دون أن يكون هناك شك فى جريان هذا الفرع فى عهده . ثم كانت تخرج من النيل شمال هذه البلدة سائر فروعه فى العصر العربى كدمياط وسخا ورشيد ومن هنا يمكن القول أن قمة الدلتا فى القرون الاولى من العصر العربى كانت حول هذه البلدة ومعني هذا ان كلا الموضعين جنوب جزيرة الوراق وشمالها يعينان قمة الدلتا القديمة وانما في عصرين مختلفين الاولى فى القرون الاولى من الميلاد والثانيهفي القرونالاولى من الهجرة .

بعد ذلك نجد كاتبا يسمى ابن سيرابيون(١) — كتب بعد ابن الحكم بسنوات قليلة— يعين موضع قمة الدلتاعند سردوس أيضا ولكنه يضيف معلومات جديدة الى ما ذكره ابن عبد الحكم وذلك أنه لفت النظر الى أن قمة الدلتا تتقدم نحو الشمال باستمرار وسجل لنا ثلاثة مواقع لهذه القمة الاول عند الطرف الجنوبى لجزيرة الوراق والثاني عند سردوس أى عند الطرف الشمالى لهذه الجزيرة والثالث عند شطانوف .

ولا يمكن أن يفهم حديث ابن سيرابيون عن القمة الاولى الواقعة عند الطرف الجنوبى لجزيرة الوراق الا على أنه تصوير للحالة التى كانت قائمة قبل عهده في العصر اليوناني الرومانى وذلك لان كتاب العرب السابقين لابن سيرابيون مثل ابن عبد الحكم لا يذكرون الا قمة سردوس . وأما حديث ابن سيرابيون عن قمتي سردوس وشطانوف فيمكن أن يفهم علي أنه تصوير صادق للحالة القائمة فى عهده أى أن كان للدلتا في ذلك العهد قمتان ، قمة رئيسية عند سردوس وقمة ثانويه أو مشروع قمة عند شطانوف (انظر شكل ٤)

---

(١) هو يحيي بن سيرابيون — وقيل يوحنا بن سيرافيون — كان طبيبا وجغرافيا توفى بعد المتوكل وقبل البويهيين أى بعد عامي ٢٨٩ ، ٣٣٤ هـ. كتب بالسريانية كتابيه فى الطب الكناش الكبير والكناش الصغير وقد نقلا الى العربية. وأما مخطوطه في الجغرافيه فمحفوظ بالمتحف البريطاني تحت رقم ٢٣٣٧٩ (مخفوظات المتحف البريطاني جـ ٢ س ٦٠٣).

انظر

(a) Brockelmann, *Geschichte der Arabischen Litteratur* 1.227 and 233.

(b) Brockelmann, *Geschichte der Arabischen Litteratur*, Erster Supplementband p. 406. Leiden 1937.

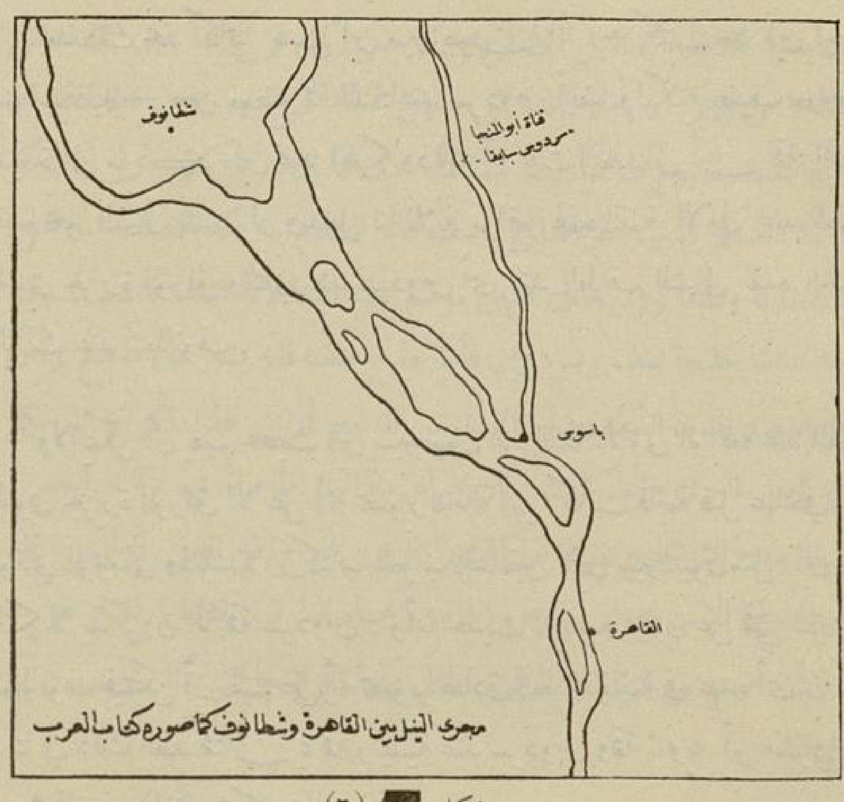
(c) Omar Toussoun, *Mémoire sur l'Histoire du Nil*, t. 1. p. 143.

وانظر ايضا

(ا) الفهرست لابن النديم طبعة أوروبا ص ٢٩٦ وطبعة مصر ص ٤١٢

(ب) طبقات الاطباء لابن أبي أصيبعة حـ ١ ص ١٠٩ طبعة القاهرة سنة ١٨٨٢م

(جـ) كتاب اخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطي ص ٢٤٨ طبعة القاهرة سنة ١٣٢٦ هـ



شكل (٦)

وقد كتب ابن حوقل بعد ابن سيرابيون بقرن واحد فلم يذكر لنا الا قمة واحدة هى شطانوف فهل معنى هذا أنه فى الفترة الفاصلة بين الكاتبين تضاءل شأن قمة سردوس وأصبحت شطانوف الواقعة فى شمالها هى القمة الرئيسية للدلتا ؟

أما أن قمة سردوس تضاءل شأنها فهذا ثابت من أقوال عدة كتاب فبينما يصف ابن سيرابيون فرع سردوس الخارج أمام هذه القمة بالعظم والضخامة نجد القلقشندى يخبرنا أن فرع سردوس تضاءل شأنه — نتيجة لتراجع الدلتا دون شك — وأن قناة أبو المنجا حفرت لكي تحل محله وفي ذلك يقول القلقشندى أن ابن الاثير قال في كتابه عجائب المخلوقات أن خليج السردوس أو السردوسى كان أحد نزهات الدنيا يسار فيه بين بساتين مشتبكة وأشجار ملتفه وفواكه دانيه فقلت —

القلقشندي — « أما الان فقد ذهب ذلك وبطل الخليج وعوض عنه ببحر أبي المنجا » (١)

وبناء على المعلومات المستمدة من كتاب العرب تكون قمه سردوس قد تضاءل شأنها ابتداء من منتصف القرن الرابع الهجري (آخر العاشر الميلادي) وتضاءل تبعا لذلك شأن فرع سردوس الذي كان يروي جزءا هاما من شرق الدلتا مما الجأ السكان الى المطالبة بحفر قناة تحل محل هذا الفرع وتسير في مجراه فتم لهم ما طلبوا سنه ٥٠٦ ﻫ (١١١٣)م (٢)

وأما أن قمه شطانوف أصبحت هى القمه الرئيسيه للدلتا منذ ذلك الوقت فهذا ثابت من قول الادريسى والقلقشندى . فقد حدثنا الادريسي المتوفي سنه ٥٤٨ ﻫ (١١٥٣م) فقال (٣) « وفي أعلا شنطوف (شطنوف) ينقسم النيل على قسمين فينزلان الى اسفل ويتصلان بالبحر » وكذلك حدثنا القلقشندي عن قمه الدلتا وتفرع النيل فقال (٤) « ثم يأخذ النيل فى الشمال حتي ينتهى الى مدينه الفسطاط ويمتد فى جهه الشمال أيضا حتى يصير بالقرب من قرية تسمى شطنوف (٥) من قرى مصر من عمل منوف (٦) فيفترق بفرقتين فرقه شرقيه وفرقته غربيه ......»

(١) القلقشندي : صبح الأعشي فى صناعة الانشا جزء ٣ ص ٣٠٠ طبعة دار الكتب بالقاهرة سنة ١٩٣٨

(٢) القلقشندي : صبح الأعشي فى صناعة الانشا جزء ٣ ص ٣٠١ـ٣٠٢ طبعة دار الكتب بالقاهرة سنة ١٩٣٨

وانظر ايضا المقريزي خطط جزء ١ ص ١١٣ ـ ١١٥ طبعة مطبعة النيل بالقاهرة سنة ١٩٢٤ ﻫ.

(٣) الادريس . نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ص ١٤٨ـ١٤٩ طبعة ليدن سنة ١٨٦٤

(٤) القلقشندي . صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٨٧ـ٢٨٨

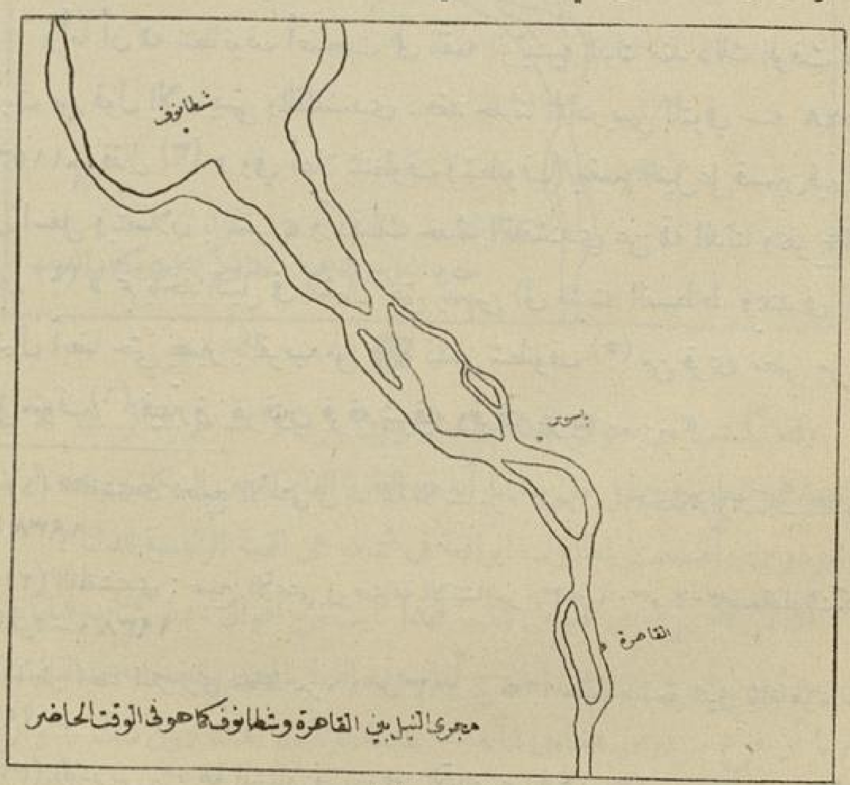
(٥) شطنوف كما ذكر ياقوت وشطنوف كما ذكر صاحب القاموس

(٦) أي في مديرية المنوفية

وهكذا نري كتاب العرب بين القرنين الرابع والتاسع الهجريين (العاشر والخامس عشر الميلاديين) مجمعين على أن قمه الدلتا كانت عند شطنوف الواقعه شمال القمه الحاليه بحوالى عشرة كيلومترات . ومعنى هذا أنها تراجعت نحو الجنوب بهذا المقدار منذ القرن الخامس عشر الميلادي حتى الوقت الحاضر

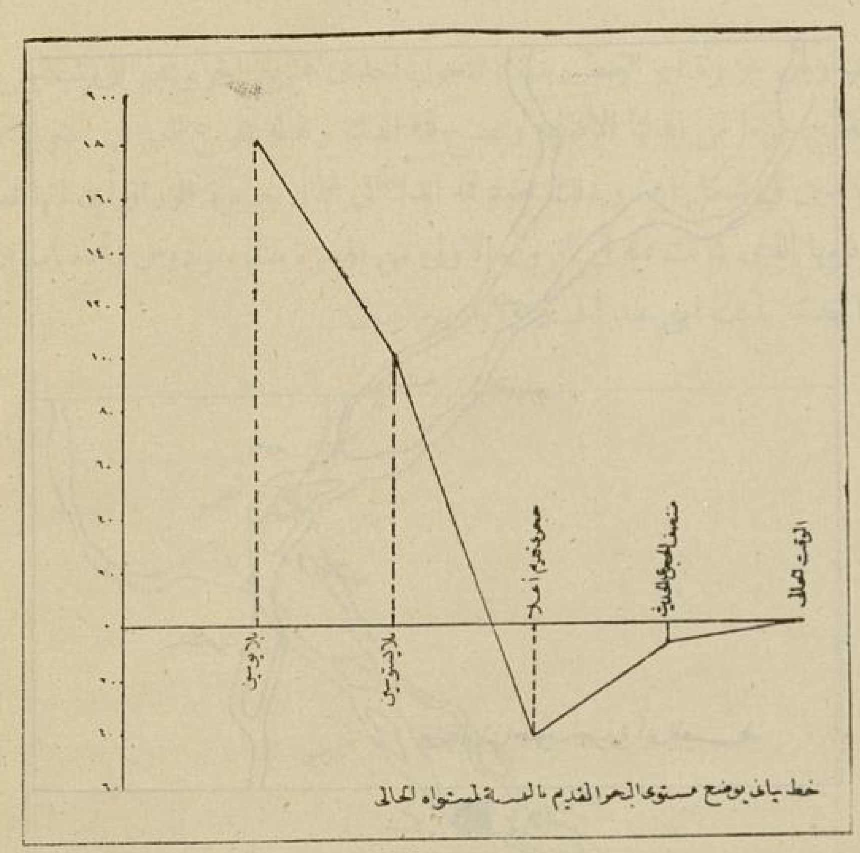
التفسير الطبيعى لتراجع قمة الدلتا:

تبين الخريطه الموضحه في شكل (٥) مجرى نهر النيل بين القاهرة وشطنوف كما هو فى الوقت الحاضر وفيها تظهر جزيرة الوراق وجزيرة القيراطيين ثم شبه جزيرة



شكل (٥)

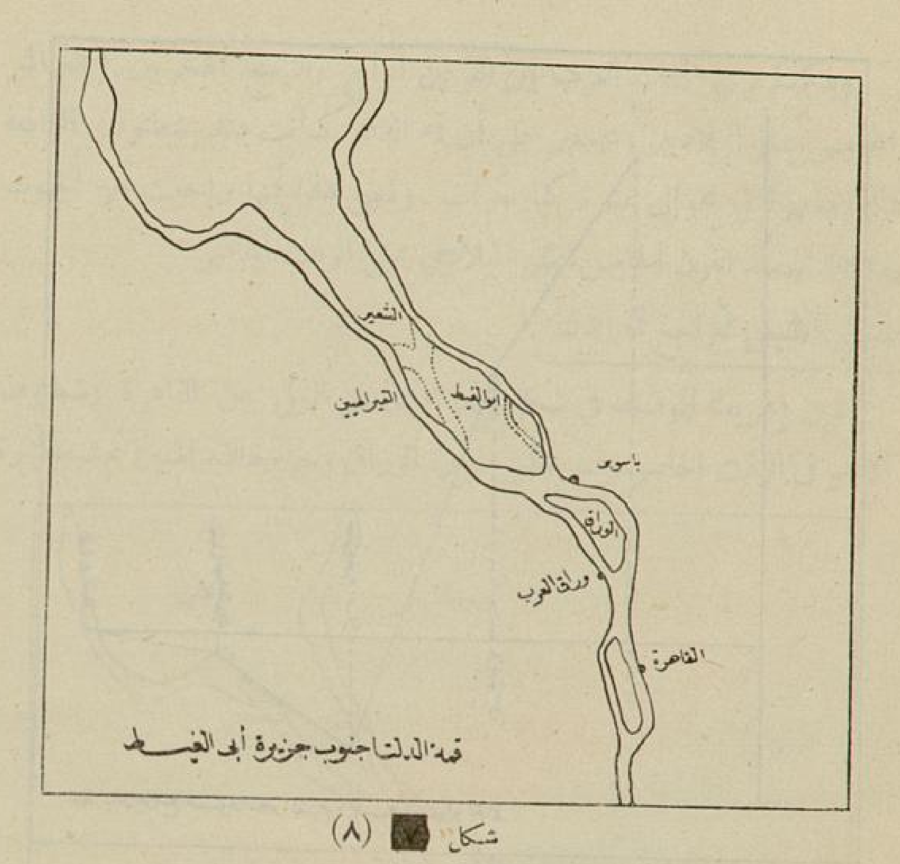
الشعير . كما تبين الخريطه الموضحه فى شكل (٦) هذا الجزء من مجرى النيل كما صوره كتاب العرب وفيه تظهر قمه الدلتا عند شطنوف . وأما الجزء



شكل (٣)

الذى يلي هذه القرية جنوبا فلم يكن فى العصر العربي متصلا بالدلتا كما هو فى الوقت الحاضر وانما كان جزيرة يتفرع النيل عند طرفها الشمالي الي فرعيه الشرقى والغربي علي نحو ما حدثنا الادريس والقلقشندى ثم بسبب ارساب النهر ردم الفاصل المائي بين هذه الجزيرة وبين قمة الدلتا فتحولت الجزيرة الى شبه جزيرة واصبحت جزءاً من الدلتا ونتيجة لهذا تراجعت القمة نحو الجنوب وأصبح تفرع النهر جنوب شبه جزيرة شطنوف وشمال جزيرة الشعير كما هو مبين فى شكل (٧)

ومما يقطع بصحة هذا التفسير تكرر هذه الظاهرة فى السنوات الاخـيرة فالمصورات الحديثة التى تخرجها مصلحة المساحة المصرية أصبحت تطلق منذ سنة ١٩٢٥



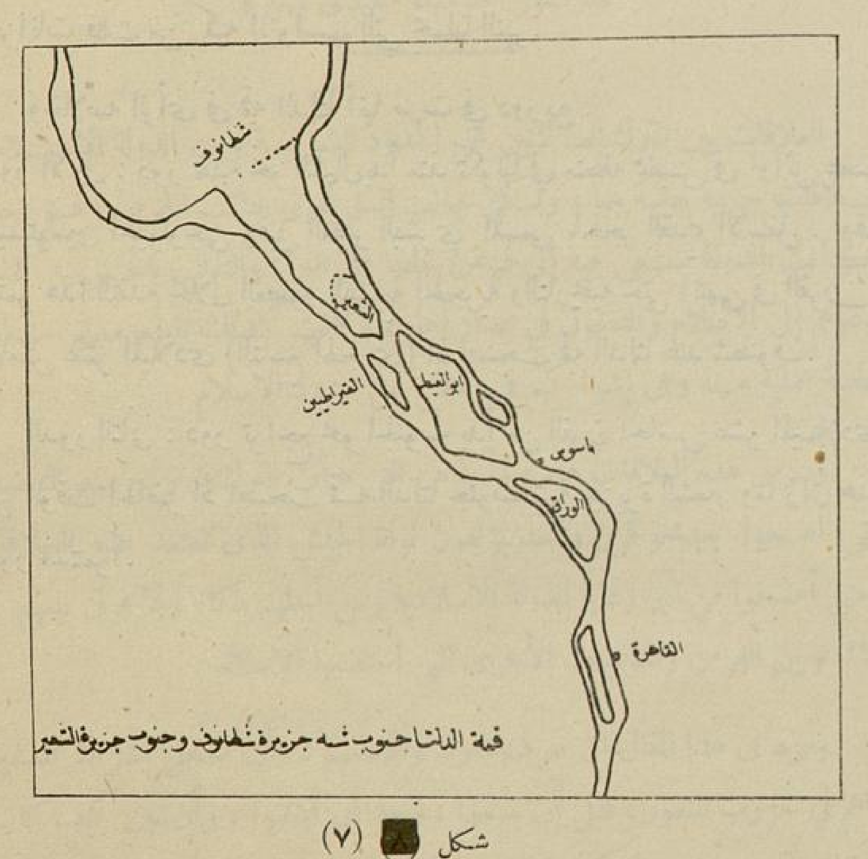
شكل (٨)

علي جزيرة الشعير اسم شبه جزيرة الشعير(١) وذلك لان الفاصل المائى الذى كان بينها وبين شبه جزيرة شطنوف مليء بالرواسب فتراجعت قمة الدلتا ونقطه تفرع النهر الى جنوب هـذه الجزيرة التي تحولت الى شبه جزيرة وأصبحت جزءا متصلا بالدلتا الاصلية .

ونحن ننتظر علي هذا القياس أنه بعد عدد من السنين — لا نستطيع تقديره — سيمتليء الفاصل المائى الذى بين شبه جزيرة الشعير وبين جزيرة القيراطيين والذى

(١) انظر اللوحة ٨٠/٦٠ مقياس ١/١٠٠٠٠٠ وهي اللوحة المسماة «القاهرة» التى أصدرتها مصلحة المساحة المصرية سنة ١٩٤٠ بناء على عملية مسح الارض سنة ١٩٢٥

بينها وبين جزيرة ابو الغيط وبذلك تتحول احدى هذين الجزيرتين الى شبه جزيرة وتصبح جزءا من الدلتا الاصليه وتصبح قمه الدلتا ونقطه تفرع النهر فى جنوبها كما هو مبين في شكل (٨) وبذلك تعود قمه الدلتا الى شمال جزيرة الوراق أى انها تعود لموضعها الذى كانت فيه فى القرون الاولى من الهجرة عند سردوس (تجاه باسوس) كما حدثنا بذلك ابن عبد الحكم وابن سيرابيون.



شكل (٧)

بل نتوقع أيضا أن يمتليء الفاصل المائي بين جزيرة أبو الغيط بعد تحولها الى شبه جزيرة وبين جزيرة الوراق وبذلك تعود قمه الدلتا الى موضعها جنوب جزيرة الوراق وهو الموضع الذى حدثنا عنه هيرودوت في القرن الخامس قبل الميلاد.

ولا تسمح طبيعه النهر فى الوقت الحاضر جنوب جزيرة الوراق بتوقع تراجع قمه الدلتا بعد ذلك لان المسافه طويلة بين الطرف الجنوبي لجزيرة الوراق وبين الطرف الشمالي لجزيرة الزمالك ثم ان مجرى النهر فى هـذه المسافه ضيق ومستقيم . وهذان العاملان — ضيق المجرى واستقامته — يجعلان التيار سريعا لا يسمح بالارساب ولا بتكوين الجزر يضاف الى هذا أن الاعمال الصناعيه الحديثه من جسور وقناطر وخزانات قللت من كميه الرواسب التي يحملها النهر.

وخلاصه الرأي فى قمه الدلتا أنها مرت في دورين :

الدور الاول : دور تقدم نحو الشمال بدأ منذ تكونها في منطقه ممفيس فى أوائل عصر البليستوسين الجيولوجى وقبل العصر البشري المسمى بالحجر القديم الاسفل . وقد استمر هذا التقدم خلال العصور البشرية الحجرية والتاريخيه حتى انتهى فى القرن الخامس عشر الميلادى (التاسع الهجري) اذ اصبحت قمه الدلتا عند شطنوف.

الدور الثانى : دور تراجع نحو الجنوب بدأ من القرن الخامس عشر الميـلادى حتى الوقت الحاضر اذ اصبحت قمـه الدلتا جنوب شبه جزيرة الشعير وما زال هذا الدور مستمراً.

الممالك الحليفـــة
أو
ممالك ما وراء النهر والدولة الاسلامية إلى أيام المعتصم

للدكتور محمد عبد الهادى شعيرة

العلاقات بين الترك الساكنين على الحدود الشرقيـة وبين الدولة الاسـلامية عـلاقات حربية سلمية معا ، ولـكن جانب السلم يفوق جانب الحرب ، فـفي حين كانت الدولة تسـعى فيه إلى فرض حلفها على الترك والتغلب بالحـرب كانت تدعوهم إلى الاسلام والدخول فى عداد أهله ، وكانت كذلك تتبـع معهم سياسة خاصة عملية مرنة وهى إشرا كهم في الدفاع عن حدود الاسلام .

ودرس هذه العلاقات هام ، لأنها هى التى هيأت الترك فى زمن يسير للتجنيد، حتى أصبحوا بعدنحو قرن واحد يؤلفون نواة الجيش الذى تعتمد عليه الخلافة ، وحتى أصبحوا منخير رعايا الدولة الاسلامية ومن أجلهم مكانا ، لا فرق بينهم فى ذلك وبين الفرس والقوميات الأخرى التى احتضنها الاسلام .

ونريد فى هذا المقال أن نعرف الترك وأقسامهم ، وأن نسجل إشراك المسلمين إياهم في حروب الثغور ، قبل أن يسلموا ، وبعد أن أسلموا ، وأن نبين كيف كانت صلة الدولة بهم أدعى ما تكون للتفاهم ، غير مشابهة فى شىء لصلات العرب بالشعوب الأخرى التى دخلت فى حدود المسلمين . ونريد كذلك أن نسجل تقبل الأتـراك للاسلام ، وسعي الدولة لنشر هذا الدين فيهم ، واستخدامهم فى الجيوش المركزية. فان هذه المسائل كلها هى التي تبين سياسة الحلف الاسلامية نحو الترك .

وليس فى عزمنا أن نعرض لفتح ما وراء النهر ، وما اقتضاه هذا الفتح من عمليات حربية — لا تزال فى حاجة إلى ترتيب ، ولا ما اقتضاه تثبيت النفوذ الاسلامى في هذه الثغور من الغزو السنوي. فان ذلك نوع آخر من البحث أساسه تحقيق الوقائع وتوقيتها . وهو بحث لم يخصه أحد من المؤرخين المحدثين بدرس خاص فيما عدا الأستاذ جب ولهذا تجاوزناه إلى درس العلاقات. ولعلنا نعود اليه فى مقال آخر. (١)

حدود الاسلام قبل فتح أرض الترك

كان نهر المرغاب آخر أرض الاسلام حين استسلمت إيران . وذلك أن المرغاب كان الحد الشمالى الشرقى لايران الساسانية. أما ما بين المرغاب وجيحون الذي هو حد ما وراء النهر المصطلح عليه في الجغرافيا ، فكان واقعا تحت نفوذ الترك . وكان الفرس فيه موالى للأتراك كما يقول بارتولد في مقالته بدائرة المعارف الاسلامية، وكما تدل المصادر العربية. وكان يخيل للممعن فى تتبع الأخبار أن العرب قد اتخذوا حدودهم عند نهاية العالم الفارسى شرقا. فانهم لم يتجاوزا هذه الحدود ولا المنطقة المجاورة لها إلى ما وراء النهر (وهو نهر جيحون) قبل عهد الوليد: إلا مرات معدودات عبور المستكشف الموهم جاره أنه يقظ على حماية أرضه وعلى صيانة هيبته ونفوذه .

ولم يكن بد مع ذلك من أن يستأنف العرب بصورة ما النزاع بين إيران وطوران ، استجابة لدوافع هذا النزاع الأصيلة المتغلغلة أسبابها فى الأحوال الجغرافية والجنسية . وقام العرب فى ذلك مقام الفرس بين إعجابهم وتأييدهم ، ولكنهم طبعوا مقامهم هذا بطابعهم الخاص .

ولكن العرب لم يفرغوا لاستئناف هذا النزاع بين إيران وطوران إلا في أيام الوليد . وذلك أن يزدجرد ، آخر الأكاسرة ، لم يقتل إلا عام ٣٢ هـ . ولم

---

(١) ننوى جمع النصوص الخاصة بفتح ما وراء النهر وبالغزوات بعد ذلك

تلبث الفتنة الأولى أن قامت ، واضطربت طاعة خراسان ، وظلت ملتاثة حتى قتل على [(١)]. وكانت خلافة معاوية ثم يزيد ، فاستقرت الأمور بعض الشيء ، والتفت المسلمون إلي حماية الحدود الشرقية ، فأنزلوا جندهم فى مرو بعد عام ٤٥هـ [(٢)]. ثم كان عبور النهر لأول مرة على أرجح الروايات علي يد سعد بن الخليفة عثمان ، فى النصف الأخير من خلافة معاوية [(٣)]. ثم عبره من بعده سلم بن زياد. [(٤)] ثم كانت الفتنة الثانية وعام الجماعة الثاني . ولكن الخلافة لم تكد تبرأ بعد ذلك من الاضطراب في المشرق (لثورات الخوارج وفتنة ابن الأشعث) ، فلم تفرغ لهذه الناحية حتي قام الوليد وولى قتيبة وقد اطمأن العراق ، ولا نكاد نسجل غزوا منتظما بين عام الجماعة الثاني وولاية قتيبة (إلا غزو نيزك في بذغشان وغزو أخرون وشومان وغزو كش ونسف وغزو الختل وغزو خوارزم[(٥)]).

وكانت بعض القبائل العربية المقيمة بخراسان اتصلت بالترك اتصالا لم يكن رسميا ولم يكن كذلك مما يسر ولاة خراسان ولا حكومة العراق والخلافة من ورائهما لأنه نشأ من التجاء بعض القبائل العربية الساخطة إلى الترك وإجارة الترك إياهم . ولاشك أن هذا الاتصال عرف العرب هذه النواحى معرفة صحيحة لم تكن قليلة النفع حين عادت هذه القبائل نفسها وغيرها فيما بعد محاربة فاتحة تحمل لواء الطاعة لا لواء العصيان .

وذلك أن موسى بن عبد الله بن خازم التجأ الى أرض الترك فارا من أرض الاسلام وعرض نفسه على الملوك ، ملوك ما وراء النهر ، فلم يجره إلاصاحب سمرقند.

---

(١) راجع البلاذرى : فتوح البلدان ، القاهرة ، ١٩٣٢ : ص ٣٩٩

(٢) نفسه ص ٤٠٠

(٣) نفسه ص ٤٠١

(٤) نفسه ص ٤٠٣

(٥) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، القاهرة : ١٩٣٣ : حـ ٤ ص ٩٤ عام ٨٤ ، ص ٧٣ عام ٨٠ ، ص ٩٧ عام ٨٥

ثم إن صاحب سمرقند جمع له « نيزك » العبد المتغلب علي جبغوبة ملك طخارستان ، والسبل صاحب الختل ، وأهل صغانيان ، وأهل بخارى [١] وكش ونسف [٢] ليمنعوه من ولاة خراسان. فأقام موسى ومن تبعه في نحو ٤٠٠ فارس وقوم من « بنى سليم بما وراء النهر » [٣] . وأخيرا نجد المسلمين في شرقى المرغاب يتبعون لأول مرة أيام الوليد سياسة الفتح نحو الترك الذين استقروا غربي جيحون ، بينه وبين المرغاب فى القرن السادس الميلادى قبل الفتوح الاسلامية . والواقع أن استقرار النظام الحربى فى الشرق قد تأخر

— ١ —

الشعوب التركية في « ما وراء النهر » :

(١) فأول من نعرف من الترك جماعة من « الهياطلة » فى الطبسين بقوهستان [٤] وهم فيما يقول البلاذرى إما ترك وإما فرس غرباء نزحوا من هراة نحو الجنوب » فصاروا مع الأتراك فكانوا معاونين لأهل قوهستان ، وكان اليونان يعدونهم Indo Scythe . والراجح أن الهياطلة انحسروا إلي هذه النواحى الجنوبية وأن أمرهم لذلك لا يعنينا فى دراسة ما وراء النهر ، ويكفي أن نذكر أنهم ظهروا في القرن الخامس الميلادي ، فى منتصفه تقريبا ، قادمين من الشرق ، من أواسط آسيا فاستولوا علي ما وراء النهر من يد طائفة أخرى سنتحدث عنها بعد قليل ، هى طائفة اليوتشى أو الطخارية . ويسمى الهياطلة بالفرنسية Hephtalites وبالانجليزية Ephtalites . ويسمون أيضا بالهون البيض . وليسوا فرسا كما توهم بعض روايات نقلها ابن الأثير ، وإنما هم شعب مغولى الأصل .

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ٤ ص ٩٩ عام ٨٥
(٢) نفسه ص ١٠٠ عام ٨٥
(٣) نفسه ص ٩٧ عام ٨٥
(٤) البلاذري : فتوح ص ٣٩٤

(٢) وأقدم منهم وأبعد أثرا فى تاريخ ما وراء النهر شعب آخر ، هو الذي يسمى عند الصين يوتشى، (١) ويسمى عند العرب باسم اللهجة المغولية التى كان يتكلمها وهى الطخارية . وهو شعب استقر فى هذه النواحي منذ آخر القرن الثالث الميلادى حتي غلبه الهياطلة فى منتصف القرن الخامس . ثم استرد قوته حين انساح الهياطلة نحو الجنوب وتضاءل أمرهم ، وعظم الطخارية مرة أخري . وكان ملكهم يتلقب بلقب جبغوية . ونستطيع أن نؤكد أن نفوذهم أيام الفتح العربى كان يمتد إلى نهر المرغاب غربا ويصل إلى مرو الروز. (٢) وقد فرضوا حلفهم على دهاقين المدن الفارسية الكبري الواقعة شرقى المرغاب . فان كتب التاريخ تذكر هؤلاء الترك الطخارية إلى جانب دهاقين المدن الكبرى الواقعة بين المرغاب وجيحون : وهى الجوزجان والطالقان والفارياب. وقد اصطدم العرب بهذا الحلف حين أرادوا تجاوز نهر المرغاب أولا ، وحين ثارت طخارستان عقب فتوح قتيبة ثانيا .

كانت هذه المملكة أوسع ممالك الترك فى هذه الناحية . ولكن الانقسامات فرقت بين أجزائها .

لقد كانت تشمل كل الحوض الأعلي والأوسط من نهر جيحون وتمتد علي ضفتيه وتضم أرض الختل وبذغشان (٣) والطالقان (٤) وصغانيان وشومان وأخرون ، ولكننا لا نجد مع ذلك دليلا علي أن أرض الختل كانت من طخارستان

---

(١) انظر Lestrange: *Lands of the eastern califate* ص ٣٨ ؛ هـ ١ ، ص ٤٣٣ ص ٦ وانظر

Albertini: *L'empire romain;* vol. IV de la collection: Peuples et Civilisation ص ٤٠٩.

(٢) البلاذرى : فتوح ص ٣٩٦

(٣) أقرأ بذغشان بدل باذغيش الموجودة فى ابن الأثير والسبب فى هذه القراءة أن الذي يقال عن باذغيش لا ينطبق الا على باذغشان ما وراء النهر ، فقد اشترط صاحبها على قتيبة « ألا يدخل عليه باذغيش» وهو شرط لا يمكن تصوره بالنسبة لباذغيش القريبة من المرغاب .

(٤) والطالقان هنا غير الطالقان الجوزجانية ، وترسم بالياء أحيانا بدل اللام وهو الرسم الأصح ويرويها رافد من جيحون ، وتقع على مرحلتين شرقي ولوالج (انظر لسترانج ٤٢٨)

وإنما أدمجناها فيها لتداخلها بين أجزائها ولتضامنها معها أحيانا ، أما بذغشان فان مصادرنا تقول إن صاحبها نيزك كان عبدا لجبغوية غلب عليه ، وهو الذي اتصل بالعرب محاربا ثم مصالحا ثم مخادعا ومراوغا ، أما صغانيان (وهي بالعجمية جغانيان حسب صبح الاعشى) فانها كانت حليفة طخارستان ، أما شومان وأخرون فان ابن الأثير يقول «هما من طخارستان (١)» ، وإن كان السياق لا يؤكد ذلك ، وكانت بلخ مدينة طخارستان . فكانت هذه المملكة حسب هذا التحديد تحتل مركزا وسطا بين شرقي إيران وأعالي نهر جيحون أو بين السهول والجبال (٢)

ويذكر صاحب صبح الأعشى أن طخارستان « هي بلدان في أعلي نهر جيحون قاعدتها ولوالج (٣) وهي مقر مملكة الهياطلة في القديم ولها مدن منها اسكلكند (٤) . وروان (٥) وهي مدينة طخارستان » ، ثم يذكر نفس المؤلف إقليم بذخشان (بالخاء وقد رأيناه بالغين) ويجعله في أعلى طخارستان متاخما لبلاد الترك . وواضح أن هذا الوضع لم يكن وضع القرن الذي نتكلم عنه ، ومن الواضح كذلك أن التحديد الذي نجده في الأخبار الطوال (٦) أوسع من التحديد الذي استخلصناه وأقرب من تحديد القلقشندي ، فانه يقول (ص ٦١ و ٦٩) إن بلاد الهياطلة هي تخارستان (بالتاء) والصغانيان وكابلستان (٧) وزابلستان (٨) والأرضين التى خلف النهر الاعظم مما

---

(١) Lestrange يجعلهما من منطقة قباذيان وهو تحديد لا يتعارض مع دخول هذه المملكة في الحلف الطخاري ، ولكن انظر ابن الأثير : الكامل حـ ٤ ص ١٠٥ ، ١٠٧

(٢) اقرأ البلاذري : فتوح ص ٣٩٧ـ٣٩٨ تجد الروايات المذكورة توحي بتحديد خاص

(٣) ولوالج ترسم أيضا وروالج (الراء بدل اللام) وورواز (الزاي بدل الجيم) أما رسمها بالنون في آخرها كما ذكر ياقوت فخطأ ، وتقع ولوالج علي مرحلتين من خلم .

(٤) اسكلكند : لم أهتد اليها .

(٥) ولم اهتد اليها كذلك

(٦) أبو حنيفة الدنيورى : الأخبار الطوال ، بغداد — القاهرة ص ٦١ ، ٦٩

(٧) يعني اقليم كابل وغزنة

(٨) زابلستان حسب Lestrange ص : ٣٣ ، ٣٤٩ تقع بين أعالي نهر هلمند أو هندمند ونهر خواش الذى يصب فى بحيرة زاره . وفى شمالي زابلستان يقع اقليم الغور (والغور منابع انهار كثيرة تتجه الي الشمال نحو خراسان والى الجنوب نحو زابلستان .

يلى بلخ، ويذكرون من ملوكهم اخشنوار ووزر، وكانت لهم منعه وكثرة تحيف[١] »
وهو تحديد ساقه الدينورى عند كلامه على هرمز[٢] بن يزدجرد

ولكنا نترك تلك التحديدات القديمة ونعتمد علي التحديد الذى استخلصناه،
ثم إن طخارستان تقلصت أمام سلطان العرب وفقدت كل نفوذها شرقى المرغاب[٣]
وفقدت بلخ وانزوت شرقى بلخ وسمنجان[٤] وضاع نفوذها في صغانيان وشومان،
واتخذ الختل موقفا أبلغ في المقاومة من باقى طخارستان نفسها، وأصبحت مملكة
جبغوية تقتصر علي حوض جيحون الأعلى.

أما جنس الطخارية فلم تحدده النصوص العربية لأنها تذكرهم مرة علي أنهم
أحلاف الهياطلة ولأنهم ينسبون أحيانا أخري إلى الخزلخية أو القرلقية، وهى نسبة لا
يؤيدها مصدر آخر، لأنا لا نسمع عن القرلقية إلا بعد ذلك بنحو قرنين[٥] ولعل
تعريفهم بلهجتهم الطخارية أصح ما يقال عنهم.

ثم إننا نرى ممالك طخارستان بعد هذا التضامن منفردة يقوم كل إقليم منها
بذاته، ويكيف حسب استعداده الخاص موقفه من العرب، ثم إن موقف العرب
لم يكن واحدا بالنسبة لهذه الأقاليم جميعا.

(٣) أما مملكة الختل فانها تأخرت بالطاعة زمنا طويلا، وكانت أول الأمر من
حلفاء طخارستان علي الأرجح ثم كانت بعد منفردة من أشد أعضاء الحلف
الطخارى مقاومة للمسلمين، ولا مفر من أن نلاحظ أن العرب طاولوا الختل حتي

---

(١) الطبري : تاريخ ح٢، ص ٩٩ (ط. القاهرة)

(٢) يدل هذا التحديد أولا على أن مملكة الهياطلة كانت أوسع من طخارستان كما عرفت قبيل فتوح المسلمين (ص٦١)

(٣) انضم الترك أول الامر للمسلمين وصالحوهم ثم انهم خافوا لما يرون من فتوح المسلمين كما يروى ابن الأثير ح٤ (ص ١١٤ سنة ٩٠) كأنهم لم يفطنوا للأمر منذ بدئه فلما فطنوا عمدوا الي العصيان ثم قمعت ثورتهم سنة ٩١

(٤) البلاذري : فتوح ص ٣٩٩

(٥) انظر مقالة بارتولد عن القرلق فى دائرة المعارف الاسلامية

استيقنوا من عجزهم وانكسرت حدتهم بانتشار الاسلام بينهم ، وأن العرب تحرزوا من سبق الحوادث ومن التسرع وتجنبوا جرح كبرياء هذا الشعب .

وتقع أرض الختل بين نهر وخشاب وجيحون في أرض مرتفعة يتوسطها وادى نهر أخش ، ويقول لسترانج إن بلاد وخش منها ، وإنها تقع في أعلي الختل حيث ينبع نهر وخشاب

ويرجح لسترانج أن الختل هم الهياطلة وأن الاسمين متقاربان صوتيا ، وهو ترجيح متسرع بعيد لا يبرره إلا قلة ما تمدنا به المصادر من المعلومات عنهم (١)

ونستطيع أن نتقدم برأى في جنس الختل علي أساس التجاء ملوكها إلى بلاد خاقان : وهو أن الصلة بينهم وبين ترك آسيا الوسطى صلة قرابة بين الشعبين كما سنري بعد

(٤) أما الصغانيان من ناحية ، وشومان وأخرون من ناحية أخرى ، فهما البلدان اللتان اختلفتا فتسابقتا إلى العدو ، قتيبة ، وكان لهما بالمرصاد ، مصمما علي إخضاع هذه النواحى ، يضع الخطط لذلك . فسارع إلي استغلال خلافهما ، فلم تكن إلا حملة يسيرة حتي خضع الجميع لسلطان الدولة الاسلامية ، أما ملك الصغانيان فانه تقدم بالهدايا ومفاتيح من ذهب ، أما ملك شومان فانه صالح علي فدية ، وفي نفس الوقت استسلمت بلخ وهى مدينة طخارستان ومدينة النوبهار الذي كان يسدنه برمك ، جد البرامكة .

وهكذا كان أهل هذه الناحية من أسبق الولايات طاعة ، وكانوا من أكثرها وفاءا وخاصة صغانيان ، ولم يلبث صاحب صغانيان ، وصاحب شومان وأخرون (٢)

---

(١) Lestrange ص ٣٨ ه ١ .

(٢) ابن الأثير : ج ٤ ص ١٨٦ ، ١٩٤ عام ١٠٤ ، ١٠٦

أن اشتركوا فى الحـــرب إلى جانب المســلمين .

وهكذا نجد هذه المنطقة تكاد تؤلف جماعة ذات مصالح مشتركة يتنازعون عليها و ميول متقاربة . وهى منطقة يرويها نهران : أحدهما نهر صغانيان الذى يسمى أيضا نهر زامل ،وثانيهما نهر قباذيان، وكلاهما من روافد جيحون اليمني ، وكلاهما ينبع من جبال البتم ويجري عموديا تقريبا إلى جيحون ، وهي منطقة تستدير بظهرها إلى إقليم الصغد ، وليس بينها وبينه إلا طريق واحد مباشر هو طريق الباب الحديد الموصل بين ترمذ وسمرقند عن طريق الباب الحديد وكش . وفى أعالى هذه المنطقة أرض الختل وهى منفصلة عنها لأنها جميعا متوازية واقعة حول أنهار متوازية كافية أهلها عن الخلطة والاجتماع ، وإذا كان حقا أن هذه الأنهار تصب كلها فى جيحون فان جيحون يؤلف حدود هذه الأقاليم من الجنوب ثم إن العمران مقصور على أقاليم الضفة اليمني وحدها لأن الضفة الأخري تحف بالصحراء .

ومدينة هذه الناحية صغانيان والراجح أنها اليوم ساري آسيا(١) وتقع علي المجري الأعلى لنهر زامل .

أما شومان وآخرون (وقد اختلف رسم المدينة الأخيرة فصحفوا فى كتابة الخاء وقرأوها القراءات الممكنة) فانهما مدينتان خاضعتان لسلطان ملك واحد ، أما شومان فالراجح أنها اليوم حصار وتقع علي الحوض الأعلي لنهر قباذيان ، أما أخرون فقد أهمل الجغرافيون ذكرها فلم نستطع إثباتها فى الخريطة .

(٥) أما كش و نسف التي تسمى نخشب أيضا فانهما لا تكادان تتصلان بالعالم الطخارى الصغانياني الذي رأيناه، ولكنهما أقرب إلى بخارى وسمرقند وأكثر صلة بهما، وكان صاحب كش يستنصر بملك سمرقند كما يستنصر الضعيف بالقوى لا التابع بالمتبوع(٢)، وعندهما

(١) Lestrange ص ٤٤٠ ؛
(٢) ابن الأثير : حـ ٤ ص ٩٨ عام ٨٥

يبدأ الاقليم الذي حرص العرب علي إقرار سلطانهم فيه لأنه طريق من طرق الغزو الذى يستطيع ترك آسيا الوسطى البعيدون أن يتخذوه إلى أرض الاسلام ، لكن كش ونسف منحرفتان بعض الشيء إلى الجنوبى من هذا الطريق الأكبر، لهذا نجد قتيبة لا يتجه إلى هذه الناحية إلا سنة ٨٩ يعنى بعد أن ابتدأ عمليات الفتح بثلاث سنين(١) ثم إنه لا يتجه إليها إلا ليصل منها إلى إقليم سمرقند وبخاري .

(٦) ولننتقل بعد ذلك إلي أكثر الترك أهمية وهم أهل بخاري والسغد ، أهل سمرقند ، الذين حملوا اسم سجديانا القديم . وبلادهم تقع علي طريق آمل وهو أدني من طريق زم (علي جيحون) التي توصل إلى كش ونسف وأدنى كذلك من بلخ وترمذ اللتان تؤديان إلي صغانيان وشومان وآخرون ، وتقع بخارى والصغد فى أخصب بقاع ما وراء النهر ، وعلي أكبر طريق يؤدى من وسط آسيا إلى العالم الاسلامى، ونري لفظي بخارى والسغد متلازمين ، ولكن المراد بهما علي أى حال هو أهل بخاري وما حولها وأهل سمرقند وما حولها ، وكان لكل منهما ملك ، ملك بخارى ويلقب عادة ببخارى خُذاه ، وملك الصغد ولا تجعل له النصوص لقبا آخر ، ولكنا نراهما دائما علي وفاق تام وعلي تساعد ، ومع هذا فانا نجد الصغد أشد مقاومة للعرب وأكثر تمسكا بالقومية التركية وأجلب للحرب مع العرب، ونجد ملك الصغد أبعد صوتا وأعلي قدرا بين ملوك ما وراء النهر عامة .

كش ونسف وبخاري وسمرقند مدن إقليم يكاد يكون واحدا متصلا . وتتألف وحدة هذه الاقليم من نهرين يقعان بين جيحون وسيحون : أحدهما نهر الصغد المعروف الآن باسم زرفشان وتقع عليه سمرقند ثم بخاري ، وتقع سمرقند علي ١٥٠ ميلا شرقى بخارى (٢) ، وعلي النهر الثانى تقع كش ثم نسف ولكن نهر الصغد كان

(١) نفسه ح ؛ ص ١١٠ عام ٨٩
(٢) Lestrange ص ٤٦٣

أهم لوقوع مدن هامة عليه غير ما ذكرنا مثل بنجيكت وورغسر (أو رأس السد) والدبوسية .

(٧) وفي أدنى نهر جيحون يقيم ترك خوارزم ، في أقصى الشمال الشرقي من الحدود الاسلامية جنوبي بحيرة آرال ، وملك هذا الاقليم يلقب بخوارزمشاه وعاصمته هزارسب ومدينة الفيل من أحصن مدنه (١).

(٨) ومن وراء جميع الترك الذين ذكرنا ، وعلي ضفاف سيحون نجد الممالك السيحونية وهي فرغانة بأخاشيدها ، وأشروسنة بأفاشينها ، والشاش .

أما فرغانه فتقع في أعالي سيحون على ضفتيه ، أما الشاش فتقع أدني منها علي الضفة اليمنى من النهر ، ويقابل الشاش علي الضفة اليسرى أشروسنة ، وقد عنيت روايات الطبري بفتح فرغانة وأهملت فتوح الاقليمين الآخرين تقريبا ، ولكن هذا الاهمال يسير العاقبة لأن فتح فرغانة يفترض في نفس الوقت فتح أشروسنة والشاش (٢) ، وتذكر مصادرنا أن العرب غزوا خجنده ثم كاشان عاصمة فرغانة ، ثم فتحوا اخشيكث وهي مدينة فرغانة القديمة (٣) وتذكر نفس المصادر من مدن فرغانة كاشان وأورشت ،وقد غزا العرب في نفس الوقت مدينة الشاش كذلك (٤) ولم يكن العرب أبطال هذه الحروب وحدهم ، فقد شاركهم الغزو أهل خوارزم وكش ونسف وبخاري والسغد وغيرهم من الترك .

ولكن موقف هذه الممالك السيحونية كان كموقف الصغد (بالصاد أو السين علي السواء) من حيث المقاومة الطويلة واحتضان المعارضة .

---

(١) ابن الأثير : حـ ٤ ص ١٢٥ / ١٢٦ عام ٩٣

(٢) الطبري : حـ ٨ ص ٩٢/٩ عام ٩٤ ، ابن الأثير : حـ ٤ ص ١٣١

(٣) ابن الأثير : حـ ٤ ص ١٠٥ عام ٨٦

(٤) لا يذكر شيء عن اشروسنه ولعلها سالمت دون حرب لأننا لابد أن نفترض ذلك لنسلم بايغال المسلمين الي الشاش

(٩) ومن ورائهم جميعا خاقان وهو لقب الملك الذي يحكم ترك آسيا الوسطى وهم فى أقصي الشرق فيما يلي ما وراء النهر بعد نهر سيحون وما علي ضفافه من الممالك التى ذكرنا ، ولا تمدنا مصادرنا بشىء عن جنس هؤلاء الترك .

ولكن مصادرنا تعتبر هذه المنطقة البعيدة منطقة الترك ومنطقة الصين فى آن واحد ، فمدينة كاشغر مثلا تعتبر « أدني مدائن الصين [١] » بمعني أن الصين تبدأ من الحدود الشرقية لما وراء النهر ، ولهذا يعتبر ملك الترك فى هذه النواحى أيضا ملك الصين ، ويتضح ذلك حين نجد إخشيد فرغانة يستمد ملك الصين فيمده بجيش يبلغ طراز فيلقاه هناك جيش إسلامى يهزمه . « فانهزم وهرب الفل إلى الصين [٢] » وإذا قيل أن ملك الختل هرب إلى الصين [٣] فمعنى هذا أنه قصد هذه الناحية .

ونجد خاقان أو ملك الصين يتدخل لنجدة ترك ما وراء النهر وصد العرب عن بلادهم ، ولكنه ينيب عن نفسه في أكثر الأحيان فنجد مرة ابن اخته (ابن اخت ملك الصين) كورنعابون أو كور بغابون ، (ابن الأثير جـ ٤ ص ١٠٩ سنة ٨٨ فى غزوة نومشكت) أو ابنه (سنة ٩٠ ص ١١٤ في فتح بخارى وسنة ٩٣ ص ١٢٦ مشتركا فى الدفاع عن سمرقند مع الصغد وأهل الشاش وسنة ١٠٦ ص ١٩٤ مغيرا علي ما وراء النهر) أو ابن أخيه (سنة ١١١ ص ٢٠٦) أو بعض قواده ، مثل كورصول (وإن كان السرد بعد ذلك يذكر خاقان)، ونجد خاقان كذلك غازيا بنفسه (سنة ١١٢ ص ٢٠٨ / ٩ مهاجما سمرقند وسنة ١١٩)

ونفهم من المصادر أيضا أن ملك خاقان أو ملك الصين هذا كان ملكا موحدا . وكان أقوي من جميع ممالك ماوراء النهر ، وتظل هذه الوحدة إلي أن يغدر كورصو فيقتل خاقان

---

(١) نفسه : جـ ٤ ص ١٣٥ عام ٩٦

(٢) نفسه جـ ٤ ص ٣٤٢ عام ١٣٣

(٣) نفسه جـ ٤ ص ٢٣٣ عام ١١٩ .

ويتشعب أمر الترك (١) فنجد كورصول يوصف بعد ذلك بأنه ملك من ملوكهم صاحب أربعة آلاف قبة ، ولا شك أن كورصول المقصود هنا هو نفس كورصول الغادر بخاقان لأن النصوص تقول ذلك صراحة (٢)، والراجح إذن أنه استقل بناحية وجماعة حين ضعف أمر الخاقانية .

أما ملك خاقان فلا نعرف حدوده

أما شعب خاقان فلا يسمى في مصادرنا باسم خاص (٣) ، غير أن هذه المصادر تقيم صلة بين ملوك الختل وبين الخاقانية ، وذلك أنها تروي أن خاقان أرسل إلى والي خراسان فى بعض حروبها رسولا ، فناداه « قد كان لك فيما وراء النهر مغزى، إنك لشديد الحرص، وقد كان عن الختل مندوحة، وهى أرض آبائى وأجدادى (٤) » وهى صلة تتأيد كذلك من ناحية أخرى ، فان بيت الملك في أرض الختل كان يجعل من الصين مأواه ، فان ابن السبل كان هرب الصين فى حياة أبيه لسبب نجهله ولا يهمنا أن نعرفه الآن ، فلما مات أبوه أوصى أن يسترد ملكا على الختل (٥) ولكن إثبات هذه الصلة وإن كان هاما فى ذاته لا يقدم شيئا في تعريف هذا الجنس التركي الواحد المقيم في أرض الختل وفى وسط آسيا .

ومهما يكن من شيء فان ترك الخاقانية أو الصين كما يسمون أحيانا كانوا عنصرا هاما فى تكييف السياسة فيما وراء النهر لأنهم أعانوا ملوكه أكثر من مرة ولم يقتصروا علي ذلك ، فانهم طمعوا في طرد العرب من وراء النهر كله، وفى طردهم

(١) ابن الاثير : حـ ٤ ص ٢٢٨ عام ١١٩
(٢) نفسه : حـ ٤ ص ٢٤٣ عام ١٢١
(٣) يقول بارتولد ان خاقان هذا هو خاقان الترك الغربيين (بالنسبة للصين حسب الاصطلاح الحديث) وهم ترك التركش المعروفون باسم أون أوق أى السهام العشرة نسبة لعدد قبائلهم ، وان عاصمتهم على نهر جو ، ويفترض انها تسمي نواكث
(٤) نفسه : حـ ٤ ص ٢٢٧ عام ١١٩
(٥) نفسه : حـ٤ ص ٢٣٠ عام ١١٩

من خراسان كذلك ، فان بعض سلالة يزدجرد كان فى حاشية خاقان حين هاجم العرب سنة ١١٠ (١) وكان خاقان يدعو العرب فيما وراء النهر أن يدخلوا فى طاعته علي أن يضاعف لهم العطاء ، وكان سليل يزدجرد يقول « يامعشر العـرب ، لم تقتلون أنفسكم ، أنا الذي جئت بخاقان ليرد إلي مملكتى،وأنا آخذلكم الأمان».

***

— ٢ —

سياسة فرض الحلف والاضطلاع بحماية الحلفاء (إنشاء الحاميات)

أول ما يجب أن يقال عن ممالك ما وراء النهر أن فتح المسلمين إياها لم يخضعها لأحكام الاسلام السياسية ، وأنها لم تصبح بمجرد الفتح بمنزلة خراسان والعـراق والشام ومصر . وإنما كان مثلها مثل أرمينية فى أن كل طرف من هذه الأطراف اعترف بسلطان الاسلام وظل محتفظا بأربعة أشياء : بجيوشـه وإدارته ورؤسـائه وحريته الدينية ، واحتفظ لذلك ببعض شخصيته السياسية المستقلة ، ودفعته هـذه الشخصية إلى نقض الحلف وخلع سلطان المسلمين أكثر من مرة .

وكان أشد ما تحرص عليه الدولة الاسلامية طاعة هذه الأقاليم وإنشاء الحصون والحاميات لحماية الحلفاء ، لما فى ذلك من حماية فعالة لأرض الاسلام .

ونرى من هذين المثلين أن الاسلام حرص علي إحاطة نفسه بدول صـديقة حليفة . وسعى إلى هذه الغاية بالسياسة والسيف معا .

وقد نجحت سياسة الحلف هذه مع الأتراك نجاحا عظيما لم يتهيأ مثله فى أرمينية وأخذت الفروق بين الحليف القوى والحليف الضعيف تزول شيئا فشيئا إلى أن أصبح الترك عنصرا هاما في الدولة وأصبحت بلادهم سدا منيعا في وجه من وراءهم من الأتراك غير المسلمين ، بل أصبحت منطقة وسطى ينزلها الترك فيستحيلون

(١) نفسه : ﺣ ٤ ص ٢٠٤ عام ١١٠

فيها إلى رعايا مسلمين . وقد ارتسمت هذه السياسة أيام الأمويين ، ونمت واتسعت أيام العباسيين الأوائل لغلبة الروح الاسلامية على سياستهم . وجنى الاسلام من وراء ذلك ثمارا نظن أنها إذا أخذت جملة كانت خيرا للدولة الاسلامية .

* * *

لم يكن إقليم ما وراء النهر يخضع إذن لسلطان واحد ، بل كان ممالك عديدة تتضامن في بعض الأحيان وتفترق في كثير من الأحيان ، ولم يكن هذا الحال المفرق مما يحصنهم من العرب .

وقد كان من مرونة السياسة العربية ومن قلة خطئها أن تحاشت في أكثر أمرها العنف الجارح للعزة ، الباعث علي التضامن فى المقاومة .

ولم تكن طاعة هذه الممالك للعرب بدرجة واحدة ولا فى وقت واحد . فالى هذه البلاد التي أقر المسلمون فيها حامياتهم وغزوا ما وراءها : كانت توجد بلاد أخري يكتفي العرب فيها باقرار تفوذهم ولا يغزون ما وراءها ، ولا يحرصون إلا علي طاعتها هى ، وسبب هذا التفريق هو أن العرب كانوا يخشون من وراء الطائفة الأولى ولا يخشون من وراء الأخرى ولا يتوقعون منهم الغزو أو التعرض لبلاد الاسلام .

وقد خدعت هذه الأحوال بعض الممالك فقبلت تفوذ العرب ، ولو كان احتلالا ما قبلته فى سهولة ، فلما حول العرب تفوذهم احتلالا ، كانت هذه الممالك قد تأثرت بالاسلام وتهيأت للاحتلال .

بدأ خضوع طخارستان للمسلمين أيام فتوح قتيبة فقط . وقبل جبغوية عنده عاملا عربيا . ولم يكن هذا العامل يعتمد علي جيش عربي مقيم بالناحية ، وإنما كان اعتماده علي هيبة الاسلام وعلى الحلف الذي يربط هذه المملكة بالاسلام، واشترك الطخاريون ونيزك خاصة فى الغزو مع المسلمين (١) ، فلما رأت طخارستان من فتوح

(١) ابن الاثير جـ ٤ ص ١١٤ عام ٩٠

العرب فى ما وراء النهر ما هالها خشيت علي نفسها، وكأنها لم تكن فطنت إلى عواقب الحلف . فثارت أول مرة عام ٩٠ ، أيام قتيبة ، ولكن المسلمين فرضوا عليها حلفهم ، واحتلوا مدينة بلخ ، وقبل الطخاريون الحلف الذى خافوه وثاروا عليه من قبل . فلما كانت غزوة خاقان الكبري عام ١١٩ ، نزل خاقان في بعض حروبه[١] عند جبغويه ، فلما انتهت الغزاة وبعد الخطر الخاقاني عادت طخارستان إلى الطاعة ، ورأينا فيها جاليات عربية ، فقد كان بها عام ١١٩ بطون عربية من تغلب ناصرت الحارث بن سريج[٢] وكانت قائمة يومئذ فى «قلاع طخارستان العليا» ، وكان بها كذلك فى أيام المنصور جند إسلامى أيام ثورة استاذ سيس[٣] ، وهكذا تحول النفوذ احتلالا . ولكننا لا نجد العرب يحاولون غزو مَنْ وراء هذه المملكة .

أما الختل ، وهم الوحيدون الذين بالغوا فى الاعتزاز بقوميتهم فى هذه الناحية، فان العرب ظلوا يغزونهم ويقبلون منهم الطاعة الاسمية أحيانا ، ويبادونهم الحرب أحيانا . ولم يقصروا فى انتهاز الاضطرابات الداخلية . فان والي خراسان احتج علي ملك تولى أمر هذه البلاد بأنه ليس من بيت الملك ولا صاحب حق فى ولاية الأمر . ولعل هذا التحاج هو الذي أعاد علي الختل أحد أبناء بيت الملك (أسد بن عبد الله بن خالد القسرى حاج بذلك بدر طرخان[٤])

فان كان المسلمون غزوا الختل قبل أزمان الفتوح ، فانهم كادوا يهملونها أيام قتيبة، دليل ذلك أن قائدا يسمى عطاءاً لقب بالختلي فى أيام معاوية (وهو تلقيب يدل على غزو الختل في هذا الوقت المبكر وعلى موقفها المنذر بالخطر) . ولا يضع من قيمة هذه الحجة أن لقب الختلي إنما هو قراءة خاصة ، وأن طبعة البلاذري المصرية

(١) نفسه ج ٤ ص ٢٢٧ عام ١١٩
(٢) نفسه ج٤ ص ٢٢٥ عام ١١٨
(٣) نفسه ج ٥ ص ٢٩ عام ١٥٠
(٤) ابن الاثير : ج ٤ ص ٢٣٣ عام ١١٩

تلقبه بالخشل بالشين المثلثة ، فهو تلقيب غير مفهوم لا معنى له ولا ينطبق على قائد من القواد ذى بلاء لا ينسب إلي ضعف أوتـطامن ليكون خشّلا كما قرأ القارئون ، ثم إن بعض قناطر قريبة من أرض الختل وبلخ منصوبة على جيحون تنسب إلى عطاء هذا(١) . أما قتيبة فانه حين بدأ فتوحه لم يعرض للختل ولا لأرضهم ، حتى تمت فتوح ما وراء النهر دون أن يلتفت المسلمون إلى هذه الناحية أو يتعرض لهم الختل ، فلما تم ذلك واستقر المسلمون فى نواحي بخاري وسمرقند أخذوا يغزون الختل ، وكانت مغازيهم بها حـول سنة ١٠٠ وسنة ١٠٨ وسنة ١١٥ ، فكانوا يرجعون بالغنائم والسبي(٢) وكان ملكها أكثر الملوك محاربة للمسلمين(٣) . ثم كان غزو خاقان فاجتاز نفوذ المسلمين في أرض الترك أزمة خطيرة لم تنته حتى انتهت معها كل مقاومة في جميع ما وراء النهر تقريبا ، فرجع ملوك الختـل إلى خطة أحكم وأجدى من الناحية العملية وهى خطة المدافعة والخضوع معا ، وهى خطة رسمها لهم ملوكهم، قالوا: «لا تحاربوا العرب وادفعوها عنكم بكل حيلة...وإنكم إن حاربتوهم هلكتم»(٤) . وقد عرف العرب من ملوكهم السبل ثم ابن السايجي ثم بدرطرخان ، وكان رجلا من الباميان بلغ الملك(٥) ثم الحنيش بن السبل(٦) . وكان حنيش متصلا بترك آسيا الوسطى الذين يسمون بالصين أيضا ، لجأ اليهم أيام أبيه لسبب لا نعرفه، ثم لجأ إليهم مرة ثانية حين احتل العرب بلاده .

كانت إذن للعرب سياسة خاصة ولملوك هذه الناحية سياسة خاصة ، وكان من

(١) البلاذري ص ٤٠٠
(٢) ابن الاثير : ج ٤ ص ١٥٨ عام ١٠٠ ، ص ١٩٨ عام ١٠٨ ، ص ٢٣٠ عام ١١٩، ص ٣٤٢ عام ١٣٣
(٣) ج ٤ ص ٢٣٠ عام ١١٩
(٤) نفسه
(٥) نفسه : ج ٤ ص ٢٣٣ عام ١١٩
(٦) نفسه : ج ٤ ص ٣٤٢ عام ١٣٣

أدواتها كذلك الجيوش فى وقت واحد ، وقد تأخر لذلك احتلال هـــذه البلاد (أرض الختل) إلى أيام أبي مسلم فانه وجه إليهم أبا داود خالد بن ابراهيم فدخلها (قادما من الوخش اليها[١]) عام ١٣٣) ، ولم يستطع ملكها حنيش بن السبل إلا أن يتحصن «هو وأناس من الدهاقين» و «شا كريته» . فلما يئس خرج بمن معه إلى فرغانة ثم دخلوا منهـا «إلى بلد الترك وانتهوا إلى ملك الصين» ، وإنمـا هرب إلى فرغانة أولا لأن مدداً صينيـا (أو قل تركيا) كان بها يعين إخشيدها علي ملك الشاش[٢] . وقد كان حنيش هرب إلى الترك من قبل أيام أبيه[٣]. ولم تقم لهؤلاء الختل بعد هرب حنيش قائمة ، ولم تسمع المعارضة عن نفسها شيئا ، ومكن لسلطان المسلمين بالبلاد ، وهكذا اكتفى العرب فى هذه الناحية بالنفوذ البعيد والمطاولة، إلى أن أداهم هذا الطريق إلى إخضاع البلاد إخضاعا تاما واحتلالها .

ولم ينج صغان خداه من غزو العرب واحتلال بلاده إلا لأنه وفـد على قتيبة بالطاعة وبمفاتيح من ذهب . فكفى العرب كل حيلة ولم يضطرهم إلى احتلال البلاد ولم يغـدر قط في المناسبتين اللتين غدر فيهما كل ملوك ما وراء النهر : حين ثارت طخارستان وتحرك السغد بين ٩٠-٩٢ هـ ، ولا حين أغار خاقان حول ١١٩ هـ علي ما وراء النهر وخراسان وابتأس الناس بمكانه ولم يدر جند المسلمين ما يفعلون. فكان أهل صغانيان فى هذا الموقف الأخير الحرج يشدون أزر الوالي ويتقهقرون معه كما تقدموا معه من قبل[٤]

أما ملك شومان فانه اغتر بنفسه وأبى إلا العصيان في المناسبة الأولى . فلمـا

---

(١) الطبرى : جـ ٩ ص ١٤٨ عام ١٣٣
(٢) ابن الاثير : جـ ٤ ص ٣٤٢ عام ١٣٣
(٣) نفسه : جـ ٤ ص ٢٣٠ عام ١١٩
(٤) نفسه : جـ ٤ ص ٢٢٦ عام ١١٩

حورب قاتل حتي قتل . واستقادت بلاده للمسلمين من بعده استقادة لم تحوجهم قط إلى العودة(١).

أما عن إقليم كش ونسف وبخارى والسغد ، فاننا ، إذا صرفنا النظر عن العلاقات اليسيرة بين ملوك هذه الناحية والعرب قبل عهد قتيبة ، وجدنا العرب فى عهد هذا القائد يحاولون فتح هذه الناحية ويقصدون بخارى وهى أقرب المدينتين إليهم ، فتستعصى عليهم استعصاءا شديدا ويُحصرون شهرين . وإنما نشير إلى حملة ٨٧ . ولكن العرب يعودون إلي منطقة بخارى مرة ثانية وثالثة ولا يبلغون بغيتهم، وهى أخذ بخارى، إلا فى الحملة الرابعة سنة ٩٠ ، ولا يظفرون في هذه المرة أيضا إلا بعد حرب قاسية ، صبروا لها هذا العام خاصة كما صبروا فى الأعوام الأخري(٢) . وعاونهم فيها نيزك صاحب باذغشان عبد جبغويه ، بينما كان الصغد يعاونون بخارى خداه (واسمه وردان) . (ويذكر النص أيضا خاقان : وهو لقب مخصوص بملك الترك البعيدين ، وليس فى سياق النص ما يبرر تدخله بصفة قاطعة لأن النص يعتبر مضطربا مقتضبا).

فنية الفتح ظاهرة لا شك فيها محدودة بزمان معين ومنصبة على هـذا الاقليم خاصة من أقاليم ما وراء النهر . وقد رأينا العرب يحجمون عن فتح بعض النواحي الأخرى أو يكتفون في بعضها بالولاء ويقتصرون على إقرار هيبتهم . وقد رأيناهم قبل عهد الفتح يقومون بالحملات المتباعدة غير المتلاحقة التى لا يراد منها إلا إثبات اليقظة والحذر وإظهار القوة . وها هم الآن يحرصون على التسلط على الطريق الحربى لمنع من يسلكه من الغزاة من تهديد أمن العرب .

وكان من نتيجة انهزام بخارى أن وقعت هيبة للمسلمين فى قلوب الصغد فطلب

(١) نفسه : ج ٤ ص ١١٨ عام ٩١
(٢) نفسه : ج ٤ ص ١٠٧/٨ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١٣ : حملات ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠

ملكهم ، وكان يسمى طرخون ، أن يصالح على فدية . فأجيب إلى ذلك [١].
واعتبر هذا الصلح تجديدا لما كان قبل من سلام بينه وبين المسلمين [٢]، ولكن دوره كان فى حقيقة الأمر قريبا ، لأن زمن السلام كان من أصول السياسة القديمة السابقة على قتيبة .

ولعل طرخون كان محقا حين سالم . والراجح أنه كان أنفذ من رعيته وأشرافه بصيرة لأنه قدر من قوة الاسلام ومضاء عزمه ما لم يقدروا . ولكن أهل سمرقند أخذتهم العزة واستضعفوه واتهموه بالخنوع والتهيب ، فعزلوه وولوا ابنه غوزك سنة ٩١ [٣] . وكذلك اجترأ فى نفس الوقت أهل شومان وكش ونسف واستشفت البلاد عن حركة معارضة كالحركة الطخارية التى بدأت سنة ٩٠ واستمرت سنة ٩١ . وكان لهذه الحركة أن تستفحل وأن يستطير شررها ، لولا يقظة المسلمين وتطواف جيوشهم مرة واحدة بشومان وكش ونسف ، ولولا غزوهم سمرقند نفسها سنة ٩٣ . فانه لم يغب عنهم أن عزل طرخون كان تحديا .

فعاد المسلمون إلي مدينة الصغد ليردوها إلى الحلف وليجزوها على الغدر ، والواقع أن قتيبة قال لجنده حين عزم على قصد سمرقند فجأة . «إن الصغد شاغرة برجلها وقد نقضوا العهد الذى بيننا وصنعوا ما بلغكم » وقد عاون المسلمين أهل بخارى وأهل خوارزم ، وحاصر جميعهم سمرقند أشهرا ، ونصبوا عليها المجانيق،حتى أحدثوا فى سورها ثلمة، فصالحهم غوزك ، وكان غوزك يظن أن الجند لا تقيم فى مدينته . ولهذا كان فقهاء الناس يقولون غدر قتيبة بسمرقند .

ولم يغن عن سمرقند استغاثتها بمن وراءها من الترك ، فان الصغد كتبوا إلى ملك الشاش وخاقان وأخشاد فرغانة ، ولا ندرى لم لم يستغيثوا أيضا بأفاشين

---

(١) نفسه : حـ ٤ ص ١١٤ عام ٩٠
(٢) الطبري : جـ ٧ ص ٦٩ عام ٩٠
(٣) ابن الاثير : جـ ٤ ص ١١٨ عام ٩١

أشروسنة لتتم لهم الاستغاثة بكل من وراءهم. وقالوا « إن العرب إن ظفروا بنا أتوكم بمثل ما أتونا به ، فانظروا لأنفسكم ، ومهما كان عندكم من قوة فابذلوها » (١) وتحركت النجدة ولكنها لم تصل إلى سمرقند ، وهزمت دونها شر هزيمة . وهكذا كان السغد على يقين من نوايا العرب يعلمون أنهم يريدون فتح البلاد .

وإنما خضع السغد للقوة ولم تستسلم قلوبهم ، ولهذا ظلوا يبدون من المقاومة ما أقلق العرب ، ولكن السغد سالموا أول الأمر وسالمهم المسلمون ، فدعاهم عمر بن عبد العزيز إلى الاسلام فيمن دعا من ملوك ما وراء النهر (٢) . فأسلم بعضهم ولم تحدد المصادر هذا البعض . ولكن هذه الدعوة فى ذاتها كانت مسالمة باعثة على الاطمئنان والتراخى فى المقاومة . ولعل أهل سمرقند ظنوا كذلك أنهم يجدون من الخليفة عمر سميعا عادلا ، فشكوا إليه احتلال سمرقند غدرا (٣) . ولعلهم لم يجدوا من عدله متسعا يرضونه . ولم تلبث الأمور أن ساءت لأن الاحتلال الجديد جرح اعتزاز السغد بأنفسهم . فأخذ السغد ينتهزون الفرص لتحرير أرضهم . ولم تكن الفرص قليلة . فان الفتوح لم تكد تتم حتي كانت فتنة قتيبة . ثم تلا ذلك فتنة ابن المهلب ثم ولي خراسان وال استضعفه الناس ، « فطمعت الترك ، فجمعهم خاقان ووجههم إلى الصغد ، وعلي الترك كورصول »، فأقبلوا حتي نزلوا حصون المسلمين فيما وراء النهر (٤) ، فاضطر المسلمون أن يتراجعوا عنها إلى سمرقند (٥). وهكذا نقض السغد العهد ، وتعاونوا مع الخاقانية علي المسلمين ، ولجوا في النقض، ولم يترددوا حين توقعوا الهزيمة أن ينزحوا عن ديارهم إلى من وراءهم من الملوك . وظلت الحرب قائمة بينهم هم ومن ساندهم ، وخاصة خاقان ، وبين المسلمين إلى عام ١١٩ لم تكد

---

(١) نفسه : ج ٤ ص ١٢٦ عام ٩٣
(٢) البلاذرى : ص ٤١٥
(٣) نفسه : ص ٤١١
(٤) ابن الاثير : ج ٤ ص ١٧٨ عام ١٠٢
(٥) نفسه : ج ٤ ص ١٧٩ عام ١٠٢

تنقطع إلا بالدعوة للاسلام مرة أخري عام ١١٠ (١) وإلا بسياسة المطاولة وتجنب حرب الابادة من جانب العرب (٢) . ومع ذلك فان المقاومة لم تنقطع انقطاعا تاما رسميا إلا سنة ١٢٣(٣). بعد ابتدائها بعشرين عاما ، وبعد أن لقى المسلمون من شدة لا يصورها إلا ابتهاج الخليفة هشام عندما أتاه البريد بقتل خاقان ،وكان سند السغد الأكبر، أتاه رسول الوالي من خراسان بالنبأ فلم يصدقه ، ثم قدم مبشر آخر « فوقف علي باب هشام و كبر ، فاجابه هشام بالتكبير ، فلما انتهى إليه أخبره بالفتح فسجد شكرا لله تعالى » .

وهكذا نجد الدولة الاسلامية تتبع مع هذه الناحية سياسة واضحة لاشك فيها ، ولا تنكص أمام ما تتطلبه هذه السياسة من جهود وأعمال حربية ، ولا تتورط فى طريق العداوة إلى إبادة أعدائها العصاة وتخريب أرضهم : ولم يكن العرب يكبحون هذا العصيان بالسيف وحده ، ولكنهم كانوا يعرفون الطرائق السلمية السليمة التي تقوم مقام السيف . فانهم إن عدوا عزل السغد صاحبهم غدرا يستوجب عليه السغد العقاب : فانهم حرصوا من ناحية أخري على أن يعزلوا بخارى خداه ليقيموا بخارى خداه آخر حدثا، «وقتلوا من يخاف أن يضاده » ،(٤) ليكون هذا الملك من صنائعهم.

ولم يقتصر العرب على هذه المناورات السلمية أو الشبيهة بالسلمية بتعبير أدق ، فان حامياتهم لم تلبث أن استقرت فى نواحى الصغد و كش ونسف ، علي حين اكتفى العرب باثبات هيبتهم وبالطاعة البعيدة فى النواحى الأخرى ، فانهم حرصوا هنا علي تأييد سلطانهم بالحاميات لأنهم وجدوا من وراء هذه البلاد من يعاونها

(١) نفسه : ج ٤ ص ٢٠٢/٢٠٥ عام ١١٠
(٢) نفسه : ج ٤ ص ١٧٩/١٨٠ عام ١٠٢
(٣) نفسه : ج ٤ ص ٢٥٠ عام ١٢٣
(٤) نفسه : ج ٤ ص ١١٨ عام ٩١

وينازع العرب عليها، فاتخذ العرب هنا قصر الباهلي (١) وقصر الريح (٢) وكمرجة (٣) . ومن وراء هذا الخط الدفاعى الواقع وراء نهر الصغد أقيم خط آخر من الحاميات المتحصنة مؤلف من سمرقند والدبوسية وبخارى، ثم حصن آخر من وراء هذه الحصون كلها هو الباب الحديد (٤) المتحكم فى طريق ترمذ - سمرقند ماراً بكش . وكانت حامية الدبوسية (٥) تبلغ عشرة آلاف مقاتل فى سنة ١١٠ . ولم تكن حامية سمرقند

(١) قصر الباهلى : هوجم سنة ١٠٢ وكان به حامية عربية ، منهم جماعة من باهلة فى مائة أهل بيت بذراريهم وكانوا ساعة الهجوم ينتظرون المدد من سمرقند ، فلما ارتدوا كان ارتدادهم الى سمرقند ، ولهذا يجب أن يوضع قصر الباهلي فى شرقي سمرقند علي مسافة بعيدة بعض الشيء لا تقل عن اربع فراسخ كما يدل السرد (ابن الاثير ح ٤ ص ٩/١٧٨ عام ١٠٢) ولم يورد لستراتيج في كتابه لهذا الحصن ذكرا.

(٢) قصر الريح علي فرسخين من الدبوسية وقد نزلته بعض الغزوات فى طريقها الي خجنده (ابن الاثير : ج ٤ ص ١٨٤ عام ١٠٤ البلاذرى ص ٤١٧) ولم يورد لسترانج في كتابه لهذا الحصن ذكرا.

(٣) كمرجه : من أعظم بلاد خراسان كما يقول ابن الاثير وليس المقصود من هذا التعريف أن الحصن يقع فى اقليم خراسان نفسه . وانما هي فيما وراء النهر لأن حاميتها تراجعت الي الدبوسيه وسمرقند ، ولست أدرى أين يجب وضع الحصن بالضبط ، ولكن يكفي في الدلالة علي أهميته أن حاميته ثبتت للحصار ٥٨ يوما . وأنها لم تسق ابلها ٣٥ يوما (ابن الاثير : ح ٤ ص ٢٠٤ /٥ عام ١١٠) ولا يورد لسترانج لهذا الحصن ذكرا ، وقد نستطيع أن نعترض قياسا علي ما قال لسترانج عن مدينة بكرمان ، أن كمرجه كان حصنا تجاريا على الحدود وأن اسمه جاء من اليونانيه κουμέρκι ولكنه فرض لا يؤيده شيء اطلاقا ، الا التوافق الصوتى بين اللفظتين وهو توافق لا يعتبر حجة حاسمة ما لم نعرف أصله التاريخي .

(٤) الباب الحديد وترسم الكلمة بالحاء المهملة فى الطبري وبالجيم المعجمة فى ابن الاثير وليس في السرد ما يحدد المكان (ابن الاثير : ح ٤ ص ٢٤٣ عام ١٢١)، الا أن الوصول اليه من ناحية بلخ ، وهنا يسعفنا بالمدد لسترانج ومصادره الجغرافية، فيقول ان المدينة تسمى بالفارسية دربند آهنين وانها تقع فى وادى عميق منحوته فى أرض مرتفعة فهي ممر ذو أهمية استراتيجية (Lestrange ص ٢/٤٤١) وكان هذا الممر طريق التجارة أيام تيمور ، وقد أظهر نصر حرصه علي أمان هذا الطريق فغزا منه سنة ١٢١ . ومعنى هذا أن هذه الناحية كانت قاعدة للغزو .

(٥) ابن الاثير : ج ٤ ص ٢٠٥ عام ١١٠ .

أقل منها عددا . فان ندبة خرجت من حاميتها فى بعض الحروب بلغت ٤ آلاف (١) وكانت بخاري قاعدة حربية تقيم فيها حامية كبيرة من جند المسلمين . وكان الباب الحديد طريقا حربيا قريبا إلى سمرقند .

ومعنى هذا أن إقليم بخارى والصغد بما فيه كش ونسف إلى الباب الحديد، كان أهم منطقة دفاعية. وتلك حقيقة لا سبيل إلى الشك فيها ولا إلى إهمالها . أما الممالك التى تجاور هذا الاقليم عن يمين وشمال فهى خوارزم من شمال وصغانيان وشومان والختل وطخارستان من يمين ، وهى أقاليم لزم بعضها الوفاء مثل خوارزم وصغانيان وشومان ، أو أقاليم لم تنل من العرب الاهتمام الأول فلم يسارعوا إلى وضع حاميات فيها ولم ينشطوا للغزو من نواحيها لأن الخطر منها إقليمى يسير ،

وهكذا ترى المسلمين يعاملون ملوك هذه النواحي معاملة مختلفة، ويجعلون لكل ناحية موقفا شرعيا خاصا يتفاوت بتفاوت المصالح التى يريدون تحقيقها فهؤلاء أهل عهد وهؤلاء أهل موادعة ، وأولئك أهل ذمة . ولم يزيدون على ذلك ، إذا كان غرضهم قاصرا الحلف وحماية الطريق الاستراتيجى ؟

— ٣ —

سياسة إشراك الترك في حماية الحدود

ولم تتبع الدولة الاسلامية مع هؤلاء الملوك سياسة الحرب التى اتبعتها مع الروم في غير هوادة ، فان مثل هذه السياسة الغالية تفترض أن لا سبيل للتفاهم مع العدو إما لتمسكه بدينه تمسكا لا مطمع فيه ، وإما لثبات دعائم حكومته ثباتا لا يطمع العرب فى تقويضها . وإنما اتبع المسلمون هنا إلى جانب السياسة الحربية سياسة التعاون :

(١) ابن الاثير : ج ٤ ص ١٧٨ عام ١٠٢

لأنهم أحسوا إحساسا داخليا غامضا أن دين الترك ضعيف أمام الاسـلام ، ولأنهم رأوا أن الاستيلاء على دول الترك أمر ممكن . ويظهر هذا التعاون في إشراك الترك في الجهاد إشراكا مستمرا يدل باستمراره علي أنه كان سياسة مرسومة . وقد كان الروم كذلك يشركون جيرانهم المطبوعين على الحرب فى حروبهم : لـكيلا يحرموهم من ميل طبيعي جبلوا عليه ، دون نظر إلي دينهم ولا إلي جنسهم ، فان من الشعوب من لا يتنازل عن الحرب فى سهولة ومن يسدد إليك سهامه إن لم توجهها وجهة أخرى : لتكون حربا علي غيرك لا عليك ، والراجح أن هذه الحقيقـة لم تغب عن فطنة العرب ، فأشركوا الترك فى غزواتهم ضد الترك ، واسـتغلوا بهـذا سيوفا كانت جديرة بأن ترفع علي رؤوسهم . وتخففوا من بعض الأعباء .

والواقع مع ذلك أن هذا الاشراك كان ضروريا لأن العبء الملقى على الجيش الاسلامى كان فوق ما يحتمل . فان المسلمين لم يكونوا يجرأون علي عبور النهر إلا فى عدد كبير ، فجرت عادة ولاة خراسان أن لا يضعوا أقدامهم على الضـفة اليمنى لنهر جيحون إلا في خمسين ألفا من المقاتلة ، وجرت عادتهم كذلك أن لا يمر عام بدون غزاة[1] إلا أن يمنعهم من ذلك مانع جسيم . لا يرون بدا من هذا الغزو المستمر فى العدد الـكثير . وهم مع ذلك إنما يردون أرضا صالح أهلهـا ووقعت هيبة الدولة في نفوسهم وقامت حاميات المسلمين في حصونهم . وذلك أن المسلمين كانوا بازاء عدو حرب لدود لا تنفد حيله ولا تبارى مهارته ، فقد كان قدامى الجند يقولون «إن الترك ليسوا كغيرهم ، لا يلقونك صفا ولا زحفا .. وإنما يظهرون فجأة كأنما نبتوا من الأرض وجاءوا من كل وجه» . ولهذا كان من حسن الرأي أن « صاحب

---

(١) في سنة ١٠٩ (ابن الأثير ج٤ ص ٢٠٠) الحكم بن عوانة الكلبي أقام صيفية لم يغز ، فعني المؤرخون بتسجيل ذلك . وعير الناس سعيد خذينة بأنه ترك الغزو سنة ١٠٢ (ابن الأثير ج٤ ص ١٧٩) . وكذلك لاموا عاملا لم يغز عام ١١٧ (ابن الأثير : ج ٤ ص ٢٢١).

خراسان لا يعبر النهر — جيحون — في أقل من خمسين ألفا[١]» .

وقد كان من أنفع الأشياء إذن أن يشرك المسلمون الترك . فهم أعرف بالأرض وبحيل الترك ولغاتهم وطبائعهم .

ولكن السبب القوي للاشراك فيما أعتقد : هو أن المسلمين كانوا يؤثرون أن يسالموا هؤلاء الناس وأن يستميلوهم إلى جانبهم وأن يقيموا بين جندهم جميعا أخوة حربية ، ويتوقعون من وراء هذه الوسائل خيراً للاسلام نفسه ، وما دامت الخطة تؤدي إلى عز الاسلام فهي الخطة التي كان يحرص عليها أصحاب السياسة في ذلك الزمن . فقد كان « إعزاز الاسلام » صيغة من الصيغ التي تعبر عن أهداف السياسة في ذلك الوقت . فترددت في كتب المؤرخين وقصائد الشعراء .

فلم يكن العرب يلجأون إلى السيف إلا حين تضيق بهم الحيل ، فاذا استعملوا السيف حرصوا على أن لا يبيدوا العدو .

فقد آثر قتيبة طريقة الحلف : مثل حلفه مع نيزك على ألا يدخل أرضه (ابن الأثير : جـ ٤ ، ص ١٠٧ عام ٨٧) وآثر قتيبة اصطناع الملوك (فملك حدثا على بخاري : نفسه : جـ ٤ ، ص ١١٨ سنة ٩١) واستغل كذلك الخصومات الداخلية ، فانتفع من الخصومة بين ملك صغانيان وملك شومان ، واستغل الخصومة بين خوارزمشاه ومنافسيه[٢] ، وآثر المفاوضة مع العصاة ليستجلبهم باللين قبل أن يجبههم بالحرب : كما فعل مع ملك شومان حين عصى : فأرسل إليه رسولين فقتل أحدهم ونجا الثاني[٣] فلم يغضب ولم يجمح ، وإنما أرسل أخاه ليستميل الملك ، وهكذا

---

(١) ابن الاثير : جـ ٤ ص ٢٠٩ عام ١١٢
(٢) نفسه : جـ ٤ ص ١٢٥/١٢٦ عام ٩٣
(٣) نفسه : جـ ٤ ص ١١٨ عام ٩١

فعل ولاة الثغر بعد قتيبة ، وقد كان من الجند من يحب هز السيوف وإحكام القتال والنيل من العدو ، ويستضعف هذه السياسة العليا الحكيمة التي يتبعها ولاة خراسان، ومن ذلك أن أحد ولاة خراسان أمر الجند بالابقاء على الصغد وذكرهم بما يكون بين قبائلهم أحيانا وبين الخلافة من حروب لم تصل إلى الابادة . قال : لا تتبعوهم فان السغد بستان أمير المؤمنين ، وقد هزمتموهم ، أتريدون بوارهم ؟ وقد قاتلتم ياأهل العراق الخلفاء غير مرة فهل أبادوكم» . أما الجند فكانوا لا يرون إلا أن الثوار «عقيرة الله»(١).

وإنما نشير إلى سعيد خدينة والى خراسان وسياسته اللينة وجلبه على نفسه لذلك سوء الذكر بين الناس . فان الذكر الحسن والصيت البعيد كان من نصيب الوالي المظفر الذى تدر غزواته الثروة على الجند . أما هذا : فانه كان يرد الغنيمة ويعاقب السرية إن بالغت في الحرب . وكذلك آثر بعض الولاة حباً فى السلم أن يقبلوا من شروط الصلح مع الترك ما لم يكن يقبله المسلمون عادة من عدم عقاب المرتد مثلا . وكذلك لم يتمسك الولاة بالسلطان التام فى كل مكان إلا بالقدر الذي يضمن أمان الثغر . وقبلوا كما رأينا أن يتفاوت سلطانهم على ما وراء النهر فهم قد أدركوا أن ظل السلطان يثقل علي الشعوب . ولهذا كله نعتقد أن المسلمين إنما أشركوا الترك في حربهم إيثارا للمسالمة وطمعا فى إعزاز الاسلام عن هذا الطريق . فلم يتشددوا فى معاملة الترك ولم يكلفوهم مالا يطيقون من تطليق طبيعتهم المجبولة علي الحرب ، ولم يأخذوهم بشرائط الجزية الدقيقة ما داموا يستطيعون أن يستعيضوا عنها بماتبذله لهم سيوفهم وببعض إتاواتهم ، ولم يأخذوهم بالاسلام الذى لا يعرف الردة ما دام الترك لا يفرقون بين الاسلام والطاعة : إن ذهب أحدهما تبعه الآخر ، ولعلهم وثقوا بالزمن وانتظروا من المسالمة فوق ما كان لهم أن ينتظروا من السيف .

---

(١) ابن الأثير : ج ٤ ص ١٧٩ عام ١٠٢

وقد بدأت سياسة إشراك الترك فى الجهاد منـذ ابتداء فتوح ما وراء النهر تقريبا . كأنها كانت أمراً مقررا من قبل ، والراجح أنها كانت كذلك : لأننا أشرنا إلى أن العرب عرفوا الترك معرفة دقيقة قبل أن يفتحوا أرضهم .

فان صاحب باذغشان وكان يسمى نيزك اشترك سنة ٨٨ في حصار نومشكت (وهى بخاري القديمة) وأبلى . وهو أول إشراك تسجله المصادر(١). ثم اشترك نيزك فى حرب بخاري سنة ٩٠(٢) ثم خلع مقفله من هذه الغزوة : لأنه رأي من المسلمين ما أفزعه(٣). فلما كان ببلخ نزل علي النوبهار فصلي ، ولا نظن أنه كان مسلما ، والدليـل على ذلك أن قتيبة استنزله بأمان بعـد عصيانه ثم لم يرع الأمان فكان الناس يرون أنه غدر به(٤) ، ولو كان ارتد لم يكن له أمان .

ثم اشترك مع قتيبة «أهل خوارزم وبخارى» فى حرب الصغد سنة ٩٣ ، وقد روى أن قتيبة اشترط على الصغد أن يمدوه بثلاثين ألف فارس وقيل بمائة(٥) ، ولا نتمسك بالعدد وإنما نتمسك بنوع الشرط ، فلما كانت السنة التالية وجـدنا قتيبة يفرض على أهل بخارى وكش ونسف وخوارزم عشرين ألف مقاتل ، ويسير بهم نحو الشاش وفرغانة(٦). وكان ذلك سياسة ثابتة اتبعها قتيبة : فانه كان يستخدم العجم ، ويتضح ذلك من قول ابن الأثير أنه «كان يجعل الطلائع فرسان الناس واشرافهم ومعهم من العجم من يستنصحه» . وقد كان من أشراف العجم من يرعى حق الفروسية ويقدس الحلف ، فان قوما من أبناء ملوك السغد كانوا مع قتيبة

---

(١) من الجائز ان يكون هذا الاشتراك واشتراك سنة ٩٠ شيئا واحدا ، لان ابن الاثير يضع فتح بخارى في هذه السنة او في سنة ٩٠ (ابن الاثير : ج ٤ ص ١٠٩ عام ٨٨)

(٢) نفسه : ج ٤ ص ١١٤ عام ٩٠

(٣) نفسه

(٤) نفسه : ج ٤ ص ١١٥ عام ٩٠

(٥) ابن الاثير : ج٤ ص ١٢٧ عام ٩٣

(٦) نفسه : ج ٤ ص ١٣١ عام ٩٤

حين خلع سليمان واضطرب عليه الأمر فأنفوا من خذلانه ، ولم يقولوا كما قال غيرهم: إن هذا يوم خذلان قتيبة لسوء بلائه عند العجم(١). ولكن استخدام الأتراك كان فى الحقيقة مقصورا على الغزو ، وليس تأييدهم قتيبة هنا إلا نتيجة لموقف شاذ غلبت فيه روح الفروسية .

ونجد الترك يشتركون فى الغزو بعد ذلك التاريخ ببضع سنين ، فان ترك خاقان ملك فى ، ولعله من ملوك السغد ، عرض معونته حين هاجم الترك والسغد قصر الباهلى سنة ١٠٢ وانضم إلى المسلمين مع ٣٠٠ من مقاتليه(٢). ونلاحظ أن طليعة الاستكشاف كانت مؤلفة من رجلين من العرب ورجل من العجم . ونجد أثر هذا الاشتراك والأخوة الحربية حين نجد عظماء السغد الأسرى ينزلون على الذين يعرفونهم من جند المسلمين(٣). ونجد سنة ١٠٤ خوارزمشاه وصاحب أخرون وشومان يحاربون السغد مع والى خراسان (الحرشى)(٤)، ونجد الصغانيان يخرجون للغزو مع المسلمين(٥).

ومع ذلك فان الترك لم ينالوا ثقة العرب كاملة . ولهذا كان يندر أن يطلب الولاة إليهم الاشتراك في الحرب فى سنوات الاضطراب ، لا نستثنى إلا أهل الصغانيان وصغان خداه ، فقد أعانوا والي خراسان بينما كان خاقان غالبا على سمرقند ونواحيها يهاجم العرب ويطردهم(٦) ، وصبروا هم وجماعة من الأعاجم لا نعرف جنسيتهم(٧)، ولعل هؤلاء الأعاجم من سكان المدن الواقعة بين المرغاب

---

(١) البلاذرى : ص ٤١٣
(٢) ابن الاثير : جـ ٤ ص ١٧٨ عام ١٠٢
(٣) نفسه : جـ ٤ ص ١٨٥ عام ١٠٤
(٤) نفسه : جـ ٤ ص ١٨٦ عام ١٠٤
(٥) نفسه : جـ ٤ ص ١٩٤ عام ١٠٦
(٦) نفسه : جـ ٤ ص ٢٢٦ عام ١١٩
(٧) نفسه : جـ ٤ ص ٢٢٧ عام ١١٩

وجيحون مثل الجوزجان ، فانهم كانوا يؤلفون قسما من ميمنة والى خراسان حين صافّ خاقان[١] دون أن ينسبوا إلى قبيلة بولاء .

فلما مضت الأزمة وولي نصر غزا الشاش ومعه بخارى خداه فى أهل بخارى ، ومعه أهل سمرقند وكش ونسف ، وهم عشرون ألفا . أما هذا الرقم فيذكرنا بالعشرين ألفا الذين فرضهم قتيبة على أهل هذه المدن ما عدا سمرقند . ولا نظن ذلك كان عددا تقليديا ، ولكنه عدد لا نظن المسلمين تجاوزوه حين استعانوا بالترك لتكون الكثرة عربية ، وعلى أساس أن الجيش العربي يقارب عادة خمسين ألفا . أما الذين صحبوا نصرا فهم من الترك لا من أجناد المسلمين، والتعبير القديم يفرق بين الصنفين فيقول : أهل سمرقند مثلا إذا قصد الترك ، ويقول : جند سمرقند إذا قصد الحامية العربية بها[٢]. ومن المعقول إذن أن يكون هذا العدد من الترك مسلما غازيا مع العرب طلبا للجهاد وحبا فى إشباع الفروسية ، على حين أن الراجح أن الذين غزوا أيام قتيبة لم يكونوا مسلمين ، ولكن النصوص تلتزم الصمت في الحالتين : وهو صمت نؤوّله نحن حسب الظروف المحيطة، وقد تغيرت الظروف تغييرا شديدا. ويتضح ذلك حين نعلم مثلا أنه كان لبخاري خُداه قصر فى مرو[٣] نظنه كان يقيم فيه أكثر مما كان يقيم فى بخاري ليكون أقرب للولاة وأبعد عن الريبة.

ولكن تُرك ما وراء النهر إن فقدوا استقلالهم فانهم لم يفقدوا شخصيتهم ولا فروسيتهم . وذلك أنهم اتحدوا مع عرب ما وراء النهر من مضر وربيعة واليمن ، وتحالفوا على قتال المسودة[٤]. ولا مفر أن نلاحظ أن في هذا الموقف وفاءاً للعرب المستقرين فيما وراء النهر خاصة ، واحتفاظا بالعداوة القديمة بين إيران وطوران .

(١) نفسه : ج ٤ ص ٢٢٨ عام ١١٩

(٢) ابن الاثير : ج ٤ ص ٢٤٣ عام ١٢١

(٣) نفسه : ج ٤ ص ٣١٠ عام ١٣٠

(٤) نفسه : ج ٤ ص ٣١٢ عام ١٣٠

ولهذا لم يكن الاتصال بين رجال المسودة فى خراسان وبين ملوك ما وراء النهر اتصالا وديا ، على حين كان التفاهم تاما بينهم وبين رجال الأمويين، فانا نجد أبا داود يغزو الختل ويلجيء ملكهم إلى الهرب ، ويغزو كش ليعتقل ملكها وهو سامع مطيع ، ويقتل أناسا من أهل الصغد وبخارى(١).

ولا يلبث الأمر أن يستتب : فنجد ترك طخارستان مع جند المنصور يحاربون أستاذسيس(٢). فاذا كانت أيام الرشيد وجدنا حامية صغدية تحارب عام ١٨٠ لا في ما وراء النهر غازية مجاهدة ، ولكن مقيمة لاقرار النظام وقمع الفتن فى مدينة زرنج أى فى أرض بعيدة عن الأرض الأصلية وفى أحوال تخالف تمام المخالفة الأحوال الأولى التى أقرها قتيبة ، ولا شك أن هذه الحقيقة تعتبر نقطة تحول كبير فى السياسة العامة . وهى على أي حال أكبر أهمية فى تاريخ ما وراء النهر ، لأنها تدل على أنه أصبح عضوا في جسم الدولة غير خارج عنه(٣).

ولا نستطيع أن نعرف إن كانت هذه الواقعة أول واقعة من نوعها ، لأن سوقها فى كتب التاريخ جاء عفواً دون تمهيد خاص ودون تعليق من المؤرخين ، كأنها شىء لم يجبهم فى ذلك العصر الذى استخدم فيه العجم وأتيحت لهم المكانة الأولى في امبراطورية ذات صفة إسلامية لا عربية ، والراجح أن الواقعة جاءت وقد تهيأ لها الجو فلم ير فيها أحد شذوذا : لأن جند الترك كانوا عجما مسلمين شأنهم شأن الفرس، وكنا نحب أن نؤيد هذه الواقعة بأشباهها غير أن الأشباه نادرة. ولكن الواقعة على أى حال بدت طبيعية يوم وقعت ، ولم يكن شيء يمنع من تكرارها .

---

(١) نفسه : ج ٤ ص ٣٤٢ عام ١٣٤

(٢) نفسه : ج ٥ ص ٢٩/٢٨ عام ١٥٠

(٣) نفسه : ج ٥ ص ١٠٢ عام ١٨٠

ثم كان تحول جديد أيام المأمون في إشراك الترك فى حروب المسلمين ، وهو أن المأمون اتخذ سياسة جديدة : هى الدعوة إلى الاسلام والترغيب فىخدمة الجيش في نفس الوقت ، وقد كانت هذه السياسة معروفة قديما . فان قتيبة حين استخدم الترك كان بطبيعة الحال يتمنى إسلامهم ، غير أن مثل هذا الاسلام يتخذ في أعيننا، ان سلمنا به ، لون الحلف والدخول فى تيار السياسة العربية ، أما الجديد في هذه السياسة المأمونية : فهو أن الترك كانوا يدخلون الجيش ويحاربون فى إقليمهم وغير إقليمهم ، وكان هذا الاسلام الحديث يقربهم إلى المرتزقة أكثر مما يقربهم الى الجند المسلمين الذين قدم بهم العهد فى ظل الاسلام والدولة الاسلامية . وكان يقوم بهذه الدعوة إلي الاسلام والجندية : رسل دعاة فارضون ، يستميلون الناس بالفريضة لهم في الديوان . وقد كانت الدعوة للاسلام قديمة ، ولكنها كانت مستقلة كل الاستقلال عن الجندية . والمرجع فى وصف هذه السياسة أربعة أسطر رواها البلاذري،قال: « وكان المأمون رحمه الله يكتب الى عماله فىخراسان في غزو من لم يكن على الطاعة والاسلام من أهل ما وراء النهر ويوجه رسله فيفرضون لمن رغب فى الديوان وأراد الفريضة من أهل تلك النواحى وأبناءملوكهم ويستميلهم بالرغبة ، فاذا وردوا بابه شرفهم وأسنى صلاتهم وأرزاقهم .» (ص ٤٢٠ بلاذرى) ويثبت هذا النص ثبوتا جازما أن المأمون هو أب هذه السياسة التركية .

والأسير الشائع أن الأفشين التركى إنما علا نجمة أيام المعتصم (كلف بحرب بابك سنة٢٢١) (١) . ولكننا يجب أن نعلم أن الأفشين « أظهر الاسلام وشخص إلى مدينة السلام » أيام المأمون (٢) ، وانه كان سنة ٢١٧ قائدا بمصر (٣) بعد أن كان قائدا ببرقة سنة ٢١٦(٤) .

(١) ابن الاثير : ج ٥ ص ٢٣٤ عام ٢٢١
(٢) البلاذري : ص ٤١٩
(٣) ابن الاثير : ج ٥ ص ٢٢١ عام ٢١٧
(٤) نفسه : ج ٥ ص ٢٢٠ عام ٢١٦

ولا بد أن نذكر كذلك أن أشناسا التركي كان من قواد المأمون قبل أن يكون من قواد المعتصم ، وأنه كان قائدا من قواده يغزو معه الثغور الرومية (١) .

وإذا أردنا أن نحدد الوقت الذى أوغل فيه المأمون في طريق هذه السياسة : فالراجح أنه إنما اتخذ سبيلها بعد ظفره بنصر بن شبث العقيلي سنة ٢٠٩ وإنزاله قيسا « من ظهور خيولها »(٢) وسوء ظنه بالعرب . وقد كان فى هذا الوقت أيضا محتاجا إلى أن يحتاط للخلافة من الفرس ونزعتهم القومية الجامحة بعد أن رأى في هذه السنة نفسها طاهر بن الحسين يملك من أمر خراسان وتصريف أمورها وتمثيل قوميتها ما يحدثه بأن يستقل بأمرها ، فلم ير المأمون بدا من أن ينهض بالترك ليتنافس الفرس والترك فى إرضائه ، وليشغل الفرس عن الخلافة بأمر ماوراء النهر . وقد كان من طرق الخلافة فى الضغط السياسى علي خراسان قديما أن تضطرهم إلى الحذر من الحدود الشرقية .

أما المعتصم الذى جرى القول بأنه أول من استخدم الاتراك حتي قرن اسمه بهم : فانه لم يكن فى حقيقة الأمر إلا المتبع لسياسة افتتحها غيره فأتت نتائجها على يديه ، وقبل هو هذه النتيجة كما قبل تلك السياسة ، ولهذا يقول البلاذري « ثم استخلف المعتصم بالله فكان علي مثل ذلك (يعني من سياسة المأمون) حتى صار جل شهود عسكره من جند أهل ما وراء النهر : من السغد والفراغنة والأشروسنة وأهل الشاش وغيرهم ، وحضر ملوكهم ببابه وغلب الاسلام على من هناك »(٣) وهذا نص يدل علي شيئين : الأول أن شهود عسكره كان جله من الترك ، وشهود العسكر : هم الجند الذين يستخدمون فى العراق بالذات والذين يرسلون بأمر الخليفة إلي حيث يشاء الخليفة . ولكنهم يعتبرون أين كانوا جيش العراق، وهذا النص

(١) نفسه : حـ ٥ ص ٢١٩ عام ٢٢٥
(٢) نفسه : جـ ٥ ص ٢٢٧ عام ٢١٨
(٣) البلاذرى : ص ٤٣٠

هام لأنه يدل علي تنبه المؤرخين إلي وقوع شيء جديد وهو استخدام الترك فى قلب العالم الاسلامى . وقد رأينا أن الترك كانوا يستخدمون أولا فى ثغر الترك ثم أصبحوا يستخدمون فى بعض نواحى خراسان ، إلى أن استخدمتهم الخلافة فى العراق ووجهتهم إلى حيث شاءت من الثغور الرومية مثلا ثم إلى جزيرة العرب نفسها ، موئل العروبة الأول ومهد الاسلام . وهو تدرج فى استخدام الترك أسرعت خطاه أيام العباسيين بوجه خاص ، وأيام أن غلب الاسلام علي أهل البلاد المغلوبة. والشيء الهام الثاني الذي يستخلص من النص أن غلبة الدين علي أهل هذه البلاد جاء نتيجة لهذا الاستخدام وثمرة من ثماره ، لأن النص حين ذكر استخدام الترك عطف عليه العبارة التى لا بأس من تكرارها « وحضر ملوكهم ببابه وغلب الاسلام علي من هناك ».

ونحن مع ذلك نستطيع أن نجد القرائن الكثيرة على أن إسلام الجند الترك لم يكن في الحقيقة أول الأمر إلا قشرة سطحية انطبعت فوق التراث التركي القديم . من هذه القرائن اتهام الأفشين بالزندقة ، ومنها احتفاظ الجند بأسمائهم التركية غير المألوفة ، فقد رووا أن الأفشين فى بعض حروبه أراد أن يمتحن الصيادلة الذين يتبعون الجيش ، فأتي بورق وكتب عليه أسماء الجند الأشروسنية ، وبعث به إلى الصيادلة فلم يعترف أكثرهم بجهلهم الأدوية ، وبعثوا ما أرادوا منها (١) . ولا نقف عند القصة وإنما نقف عند هذه الأسماء الأشروسينية التي تمسك بها أصحابها ولم يتركوها بالاسلام كما فعل سائر الناس من قبلهم ومن بعدهم .

والواقع أن القيادة الحربية فى عهد المعتصم كانت إلى الأتراك ، فبرزت أسماء تركية ملأت العالم الاسلامى وعظمت هيبتها مثل الأفشين (٢) وأشناس (٣) ومنجكور

---

(١) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، بيروت ١٨٩٠ ص ٢٤٤
(٢) ابن الاثير : جـ ٥ ص ٢٣٤ ، ٢٣٩ عام ٢٢٠
(٣) نفسه : جـ ٥ ص ٢٤٧ عام ٢٢٣

قرابة الأفشين[١] وبغا الكبير وأواجن الأشروسني[٢] وبشير التركى[٣] وبخاري خداه وكلهم ترك فيهم من الصغد وأهل فرغانة وأشروسنة وغيرهم .

من كل هذا نرى أن السياسة التى افتتحها المأمون وسار عليها المعتصم كانت تجنيد الأتراك وإدخالهم فى الاسلام عن طريق هذا التجنيد ، وليس يعنينا أن نتبين قصد المأمون : أكان حاجته إلى الجند بالذات ، أم كان قصده إلى ما ينشأ عن هذا التجنيد من الدخول في الاسلام ، لأن الأمرين تحققا له ، وكان أولهما طريقا للآخر ، وكان كلاهما عنصرا من عناصر السياسة الاسلامية التقليدية منذ قتيبة ، وسنري فيما بعد كيف نشر الخلفاء الاسلام فيما وراء النهر .

ولكن الترك دخلوا في بلاط الخلفاء قبل أن يدخلوا فى جيوشهم ، ولعل أول من أدخلهم في البلاط الخليفة المنصور ، فانا نجد زهيرا التركى واليا له علي همذان مخلصا للخليفة يقتل بأمره رجلا من دعاة أبي مسلم . ونجد فى حرس هذا الخليفة نفسه شعيب بن واج[٤]. ثم أدخلهم الخليفة الرشيد في بلاطه كذلك ، ونحن نعرف خادمه خاقان الذي خدمه ثم ابتني لنفسه دارا بطرسوس دفن فيها المأمون بعد[٥]. ونسمع عن أخشيد الخادم ، خادم الرشيد[٦]، ونعرف كذلك فرجاً الرّخّجىّ وكان مملوكا لبنت الرشيد ، فولاه الرشيد الأهواز ، ولكن مثل فرج أسر وهو فتى صغير[٧]، وتربي تربية إسلامية حتى رفعه الرشيد «فوق قدره»[٨]

---

(١) نفسه : جـ ٥ ص ٢٥٧ عام ٢٢٤
(٢) نفسه : جـ ٥ ص ٢٣٧ عام ٢٢١ عن بغا ثم ص ٢٦٠ عام ٢٢٥ عن اواجن
(٣) نفسه : جـ ٥ ص ٢٤٢ عام ٢٢٢
(٤) نفسه : جـ ٤ ص ٣٥٤ عام ١٣٧
(٥) نفسه : جـ ٥ ص ٢٢٧ عام ٢١٨
(٦) الجهشياري : كتاب الوزراء والكتاب ، القاهرة ١٩٣٨ ص ٢٦٤/٥
(٧) نفسه : ص ٢٧٠ ، ٢٧١
(٨) نفسه : ص ٢٧١

ليكون صنيعته وآمن عنده . ووجود أمثال فرج كثير معروف قبل عصر الرشيد مثل حماد التركى(١) أيام المنصور ، ولكنهم لم يبلغوا درجة الخدمة عند الخلفاء إلا فى عهد الرشيد . وهى درجة تستمد قوتها من القرب من الخلفاء أكثر مما تستمد قوتها من اختصاص أصحابها . ولنعد الى إشراك الترك فى حروب المسلمين وأنه كان مبدءاً سارت عليه الدولة منذ فتح ما وراء النهر ثم توسعوا فيه شيئاً فشيئا حتي أصبح الترك جند الدولة ، وهو دور هام فى حياة الدولة الاسلامية فتحه لهم الخلفاء مدة طويلة وحمله الترك أيام المأمون والمعتصم وواصلوا القيام به قرونا طويلة مجيدة بدون انقطاع إذا استثنينا العهد البويهي .

وقد تجاوزت الخلافة فى أثناء هذا الاشراك السنة الفقهية ، فاستخدمتهم أيام قتيبة قبل أن يدخلوا الاسلام على الأرجح أو بعد أن دخلوه دخولا شكليا ، واستخدمتهم أيام المأمون والمعتصم ولما يتأصل إسلامهم أو يقدم . ولا بد لنا حين نسجل هذه الملاحظات أن نفطن إلى أن رجال السياسة كانوا أكثر مرونة من السنة الفقهية ابتغاء المنافع السياسية التى تتحقق بهذه المرونة ، ولم تكن تلك المرونة قاصرة على المشارقة . فان المغاربة لم يكونوا أقل مرونة . فان عامل الأندلس عاهد أهل قرقسونة حين فتحها على شروط : منها أن « يلتزموا باحكام الذمة من محاربة من حاربه المسلمون ومسالمه من سالموه» وكان أهل قرقسونة مسيحيين(٢).

وقد كانت الشعوب البربرية المجاورة للامبراطوريات الكبيرة منذ القدم تستحب الاشتراك فى الحروب حيث يتيسر لها هذا الاشتراك ، وتعتبره رمزا لسيادتها وكانت الامبراطورية الرومانية تتقبلهم وتشركهم فى الغزو، وهكذا فعل الأكاسرة وأباطرة الروم وغيرهم . وهكذا فعل العرب مع الترك وغيرهم مثل الجراجمة

---

(١) نفسه : ص ١٣٤

(٢) ابن الاثير : ج ٤ ص ١٩٧ عام ١٠٧

فى آسيا الصغرى .

وقد تجاوزت الخلافة العباسية في سبيل هـذا الاشراك أو تخلت راضيـة وكارهة ، أو راضية أولا وكارهة أخيرا ، عن مبدأ العروبة . وجعلت الدولة إسلامية لا عربية ، يقوم بالدفاع عنها من يتهيأ لهم ذلك الدفاع من رعايا المسلمين دون نظر إلى أجناسهم .

* * *

— ٤ —

السياسة الدينية

لايزال التجانس الفكرى يقرب بين الشعوب ، وقد كانت الشعوب المتحضرة تكسر حدة جيرانها البرابرة عن طريقين : طريق السيف ، وطريق إدخال الشعب البربري في الحضارة . وكان الدين الواحد يقرب بين الأجناس المختلفة وكان نشر الدين بين أهل الحدود المهددة بمثابة درع حصين . وجرى الرومان والروم والعرب ودول العصور الوسطى على هذه السياسة .

كانت هذه السياسة ممكنة بالقياس إلى الترك أكثر من إمكانها بالقيـاس إلى الروم ، لأن دين الترك يختلف عن دين الروم في قدرته على الاحتفاظ بكيانه أمام الاسلام ، كان دين الترك الوثني ضعيفا كباقى الديانات الوثنية التى ابتلعها الاسلام أيام نشأته في جزيرة العرب ، على حين غص حلقه بقبائل قليلة من اليهود والنصاري ، فدين الترك قليل الحصانة لم يحس الاسـلام منه مقاومة لا تنثني وعداوة لا مندوحة فيهـا من السيف . وكان من صالح العرب أن يختلطوا بالترك ليلتقي الدينان وجهـا لوجه حيث تكون الغلبة لأقدر الدينين على الدفاع عن نفسه ، وحيث ترهف نفوس المقهورين لصوت دين انتشر فى نصف الأرض تقريبا ، شأن أديان الغالبين . والواقع

أن الديانة التركية ظلت تتراجع أمام الاسلام من ناحية وأمام البوذية من ناحية أخرى ، حتى قال بعض المؤرخين : إن الدين عند الترك لم يكن إلا رمزاً سياسيا ولم يكن تفكيراً عميقا يثير الجدل الشديد .

أما الدين الغالب على الترك فيما وراء النهر : فاننا نرجح أنه كان دين الفرس. فانا نعرف أن المانوية ، حين اضطهدها الأكاسرة منذ ظهورها فى أواخر القرن الثالث ، هاجرت إلى أواسط آسيا وانتشرت هناك(١). ونحن نعلم من المصادر العربية أن بلخ كانت مقر بيت نار كبير يعرف بالنوبهار وأن الفرس كانوا سدنته(٢).

فاذا تتبعنا الدعوات إلى الاسلام ، وجدنا أن مصادرنا العربية لا تذكر دعوة إلى الاسلام استجيبت أيام قتيبة أو قبله إلا ما قيل من أن قتيبة أحرق بيوت الأصنام فى سمرقند فأسلم «منهم خلق»(٣). ولكن الواقع أن الذين أعانوا قتيبة أيام الوليد ثم الذين استظهر بهم حين عصا أول خلافه سليمان(٤) لم يكونوا مسلمين (لأنهم عصوا وأطاعوا مرات ولأنه لم يذكر فى صلحهم إسلام) . فاذا انتقلنا إلى أيام عمر بن عبد العزيز وجدنا تطبيق القاعدة الفقهية القائلة بوضع الجزية عمن أسلم يحدث فى خراسان مسارعة إلى الاسلام إسراعا اتهم أصحابه أنهم إنما رغبوا فى الهرب من الجزية . وإذا كانت ما وراء النهر من خراسان فقد أصاب أهلها من المسارعة إلى الاسلام ما أصاب أهل خراسان (٥)، وأحس الترك من ناحية أخرى بأن إبطال الغزو الذى أمر به عمر فاتحة عهد تفاهم (فان عمر كتب إلى والى خراسان :

---

(١) Albertini ، الكتاب المذكور ص ٢٧٥
(٢) البلاذرى : ص ٤٠٠
(٣) نفسه : ص ٤١١
(٤) نفسه : ص ٤١٢
(٥) الطبرى : ج ٨ ص ١٣٤ عام ١٠٠ ، ابن الاثير : ج ٤ ص ١٥٨ عام ١٠٠

«لا تغز بالمسلمين . فحسبهم الذي قد فتح الله عليهم» (الطبرى: حـ ٨ ص ١٣٩ سيرة عمر) ، وكان من بوادر اقتناعهم بعدل المسلمين أنهم شكوا إلى الخليفة غدر قتيبة فى الاستيلاء علي سمرقند(١). وكان مما يزيد اقتناعهم : أن عمر كتب إلى والى خراسان «لا تهدموا كنيسة ولا بيعة ولا بيت نار صولحتم عليه» ، وإن كان قال له «لا تحدثن كنيسة ولا بيت نار»(٢). وكان من شأن هذا التفاهم تهيئة الجو للدعوة إلي الاسلام ، والواقع أن عمر لم يتقدم إليهم بالسيف: فقد أبطل الغزو وإنما تقدم إليهم بالدعوة إلي الاسلام ، فكتب «إلى ملوك ما وراء النهر فأسلم بعضهم»(٣)،وقد لا نستطيع أن نحدد هذا البعض وأن نتحرج من هذا الغموض فنشك فى إسلام هذا البعض. ولكن الحرج لا معنى له لكثرة القرائن على الثقة بسياسة العدل. وهى سياسة طبقت من غير شك علي خراسان وما وراء النهر بالذات . فان عمر كتب إلى صاحب الخراج «وليس من ثغور المسلمين ثغر أهم إلى ولا أعظم عندي من ثغر خراسان» (٤) وهى أهمية تفهم من ناحية نشر الاسلام أكثر مما تفهم من الناحية الحربية .

وإذا كان يزيد بن عبد الملك قد سار علي سياسة مالية رجعية عامة بالنسبة لسياسة عمر فانه ، فيما يخص خراسان ، طبق هذه الرجعية تطبيقا لينا بعض الشيء وذلك أن والى يزيد علي خراسان (سعيد خدينة) طالب السغد بالمتأخر من الضرائب . والراجح عندنا أن المتأخر كان من «تخافيف» عمر أو من رفقه على الأقل ، فاختلف هو والسغد واستؤنفت الحرب . وأسف الناس على عهد عمر ، ولكن سعيدا كان لينا : لأنه كان إذا بعث سرية فأصابوا واغتنموا ردالسبى

(١) ابن الاثير حـ ٤ ص ١٦٣ عام ١٠١
(٢) الطبرى : حـ ٨ ص ١٤١ عام ١٠١ فى سيرة عمر بن عبد العزيز
(٣) البلاذرى : ص ٤١٥
(٤) الطبري : حـ ٨ ص ١٣٩ : في سيرة عمر بن عبد العزيز عام ١٠١

وعاقب السرية (١)، ولأنه كان لا يريد أن يتفاقم العداء بين المسلمين وأهل ما وراء النهر ، ولأنه كان يعتبر السغد « بستان أمير المؤمنين » فلاينبغي تخريبه ولا إبادة أهله . فيقول للجند «قد هزمتموهم أفتريدون بوارهم» (٢)

ثم تجددت الدعوة للاسلام مرة أخري أيام هشام بن عبد الملك وولاية أشرس علي خراسان : وكان «فاضلا خيرا» وكانوا «يسمونه الكامل لفضله» . فأرسل أشرس إلى أهل سمرقند وما وراء النهر يدعوهم إلى الاسلام علي سنة ابن عبد العزيز: أي علي أن توضع عنهم الجزية ، ولم يخرج الدعاة إلا بعد أن اشترطوا الوفاء بالوعد. فدعا الرسل « أهل سمرقند ومن حولها إلى الاسلام علي أن توضع عنهم الجزية فسارع الناس » وبنوا المساجد . فلما ضج عمال الخراج من نقصان الدخل ، ورفعوا الأمر إلى والى خراسان ، وضع الوالى شرطا لا غبار عليه في الظاهر : وهو أن يفتش عن إسلام من أسلم : فمن « اختتن وأقام الفرائض وحسن إسلامه وقرأ سورة من القرآن » وفوا له بالشرط ورفعوا خراجه ، ولا بد أن تطبيق هذا الشرط كان علي شيء من التعسف شأن التفتيش دائما ، ولم يلبث والى خراسان أن ألغى شرط الدعاة وأعاد الجزية على من أسلم ، فقامت قائمة هؤلاء المسلمين المحدثين وانضم إليهم الدعاة وخرج كثير منهم عن سمرقند واجتمعوا معتزلين . فكانوا سبعة آلاف وانضم إلى الدعاة جماعة من فرسان المسلمين مثل ثابت قطنة ، ولم يكن بد من الحرب ولكن الحكومة احتالت عليهم وأظهرت الاستجابة إلى مطالبهم : حتي إذا تفرقوا أخذت الرؤساء وتتبعتهم ، فكان من نتيجة هذا الموقف أن كفرت «الصغد وبخارى واستجاشو الترك » وكانت الفتنة عظيمة لتدخل الترك البعيدين . وكانت حرب قاسية لأن الناس ظلوا يذكرون يوما من أيامها يعرف بيوم العطش (٣) . واستولى

---

(١) ابن الاثير : حـ ٤ ص ١٧٩/١٨٠ عام ١٠٢

(٢) الطبري : جـ ٨ ص ١٦٥/١٦٦ عام ١٠٢

(٣) ابن الاثير : حـ ٤ ص ٢٠٢/٣ عام ١١٠

الصغد وغيرهم على كل ما وراء النهر ، وارتد أهل كردر (١).

وهكذا خرجت الدولة علي سياسة الدعوة للاسلام بشرائطها اللينة المريحة فكان ترك اللين سببا فى فتنة كلفت الدولة دماءا وحروبا كثيرة .

ولم تعد الأمور إلى ما كانت عيه إلا بعد أن مل الطرفان الحرب وتغيرت السياسة العربية . وولى نصر بن سيار فعمد نصر إلى سبب هذه الثورة والحرب : وهى الجزية ، فأقر فيها حكم الاسلام ، فلم تمض إلا جمعة حتي أتاه ٣٠ ألف مسلم كانوا يؤدون الجزية عن رؤوسهم و٨٠ ألفا من المشركين كانت ألقيت عنهم . فحول ما كان على المسلمين إليهم ووضعه عن المسلمين (٢) . وقد كان حلا موفقا لأنه ضمن للداخلين فى الاسلام أن خزانة الدولة لن تنظر إليهم فيما بعد نظرتها إلى مغتصبين . وهكذا عادت خراسان وما وراء النهر ، سنة ١٢٠ إلى السياسة التقليدية اللينـة .

وأمن الصغد جانب المسلمين ، فلم تمض سنتان حتي صالحوا ، ونالوا شرط الدعاة وشرطا آخر هو ألا يعاقب من كان مسلما فارتد ، وفضل نصر أن يتسع لهم الدين على أن تتسع لحربهم سيوف المسلمين ، وأجاب من أنكر هذا اللين فقال « لو عاينتم شوكتهم في المسلمين مثل ما عاينت ما أنكرتم ذلك »، وأرسل ليستشير هشاما الخليفة فأقر رأيه (٣). وكان لهؤلاء الترك أن يعتنقوا الاسلام على الوجه الذى يحبون فى ظل التسامح الدينى ، والذي لا شك فيه أن المسلمين الأتراك عادوا إلي مساجدهم الأولى وبنوا غيرها ، وإن لم تشر إلى ذلك المصادر . وهكذا بدا أن السياسة التى استقر عليها الأميون آخر الأمر هى سياسة عمر بن عبد العزيز .

ولم يكن أهل الصلاح والمثل الطيب الذين يحببون الاسلام الى الترك ، قليلين،

---

(١) نفسه : جـ ٤ ص ٢٠٥ عام ١١٠

(٢) ابن الاثير : جـ ٤ ص ٢٤٣ عام ١٢١

(٣) نفسه : جـ ٢٤ ص ٢٥٠ عام ١٢٣

فان أحد من سكنوا سمرقند أيام قتيبة : الضحاك بن مزاحم هو صاحب التفسير (١). وكذلك كان يعيش ببلخ فى آخر القرن الثاني زاهد مجاهد هو شقيق البلخى الزاهد قتل فى غزاة ، وكان شيخ زاهد آخر معروف هو حاتم الأصم، وحج شقيق مرة وفي صحبته ٣٠٠ مريد ، وكان شيخ خراسان (٢) . ومن أتقياء هذه الناحية أيضا العلماء : الفضيل بن عياض الزاهد ، وكان مولده بسمرقند وانتقل الى مكة فمات بها (٣).

فلما قامت الدولة العباسية سارت على الأرجح على هذه السياسة المرسومة إلى زمن المأمون ولم تحذف من أصولها شيئا : لأن المصادر لا تذكر ذلك ولا نلاحظ إلا شيئا من الشدة على الناكثين وإلا المثابرة علي الغزو . فاذا ولى المأمون ارتسمت في عهده السياسة النهائية : سياسة الشدة فى الحرب والدعوة للاسلام والترغيب فى الجندية ، وأخذ المأمون بكل طرف من أطراف هذه السياسة معا ، كأنما وفق بين طرائق الدبلوماسية الاسلامية القديمة جميعا ، فانه ألح عليهم «بالحروب والغارات» ثم «كان مع تسريته الخيول إليهم يكاتبهم بالدعاء إلى الاسلام والطاعة والترغيب فيها» (٤) «وكان يكتب إلى عماله علي خراسان في غزو من لم يكن علي الطاعة والاسلام من أهل ما وراء النهر» وهذا هو العود الى سياسة الفتح مع الأخذ بالترغيب فى الاسلام . «وغلب الاسلام على من هناك» بسياسة الدعوة .

***

خاتمة

ولا نستطيع أن نختم المقال بخير مما روي البلاذرى ، فانه فطن إلى ما أدت

(١) البلاذري : ص ٢١١
(٢) ابن الاثير : ج ٥ ص ١٤٢ عام ١٩٤
(٣) ابن الاثير : ج ٥ ص ١٢٠ عام ١٨٧

إليه هذه السياسة العربية من توفيق ، وسجل أن أهل هذا الثغر دخلوا الاسلام ، وأصبحوا حماته « يغزون من وراءهم من الترك » فيصلون إلى نواحي بعيدة ، وهو أكبر توفيق تطمع فيه دولة تريد أن تحمى حدودها وأن تنشر حضارتها .

وقد ذكر البلاذرى كذلك حقيقة أخري - أدى إليها الاشراك الذي ذكرناه - وهى أن « جل شهود عسكر » الخلافة صار من الترك ، وهى واقعة لم تكن لتتهيأ لولا أن هذه السياسة العربية المرنة قد مهدت لها تمهيدا طويلا . فلم يكن استخدامهم كاستخدام المرتزقة ، ولا كان ابتداء سياسة مبتكرة دفعة واحدة فى كل نواحيها.

ولم تكن هذه النتائج ممكنة لو أن العرب غلبوا جانب السيف ولم يدعوا سبيلا إلى التفاهم .

ولكننا لم نرد من وراء هذا البحث عرض هذه النتائج وبيان مقدماتها فحسب، وإنما أردنا فوق ذلك أن نبين ناحية من سياسة العرب في حماية حدودهم : وهى نظام الحلف الذى يفرضونه علي جيرانهم ويؤيدونه بالغزو السنوى استبقاءاً لطاعة الأحلاف واستظهارا بالقوة أمام من وراء الأحلاف من أعداء . ونحن نعلم أن هذا النظام طبق علي أرمينية فلم يأت بمثل هذه النتائج . وأنا أزعم كذلك أنه طبق أيضا في أفريقية أيام عقبة بن نافع فأتى بأكبر مما تهيأ لهذا النظام من نتائج . ولكل حالة من هاتين الحالتين تفسيرها : لولا أن هذا المقال مقتصر علي ترك ما وراء النهر .

م . ع . شعيرة
مدرس بكلية الآداب بجامعة فاروق الأول
بالاسكندرية

موقف المانيا ازاء الاحتلال الانجليزي لمصر *

بقلم الدكتور محمد مصطفى صفوت
الاستاذ المساعد للتاريخ المعاصر بالكلية

لم تكن للدولة الالمانية التي نشأت حديثا مصالح حيوية هامة في مصر تدعوها جادة إلى أن تبث العراقيل في وجه انجلترا أو تناهض السياسة التي ارتسمتها الحكومات البريطانية لنفسها في وادي النيل. لقد كانت مسألة مصر أول الأمر مرتبطة في ذهن المستشار الامبراطوري الألماني بمسألة بقاء الدولة العثمانية ومصيرها. ولم تكن السياسة التي اختطها بزمرك Bismarck في السنوات العشر التي تلت سنة ١٨٧١ — وهي السنة التي تمت فيها الوحدة الألمانية بالدم والحديد — سياسة المحافظة على كيان الدولة العثمانية أو تحقيق سلامتها ، فلقد صرح في أحاديث متعددة له ، وذلك حين ثارت المشكلة الشرقية ثورتها العنيفة في سنة ١٨٧٦ بأن ليس للحكومة الألمانية مصالح مهمة تدعوها للتدخل في شئون الدولة العثمانية الداخلية منها أو الخارجية ، وأنه لا يرثى لمسيحيي هذه الدولة أو لمسلميها على السواء ، فمصير هذه الدولة ، كما قال مرة متهكما ولكن جادا لا يدعوه لأن يبذل في سبيله دم جندي بروسي واحد ، وأن كل ما يهمه في هذه الأزمة المستحكمة المعقدة المصاعب هو أن يضع نفوذه العظيم في خدمة أصدقائه من الدول الأوربية الكبرى وليست الدولة العثمانية واحدا منهم (١)

---

* انظر المراجع في آخر البحث

(١) الوثائق الالمانية Grosse Politik. بيلوف Buelow وزير الخارجية الالمانية الي منستر Muenster السفير الالماني في لندن ٤ يناير سنة ١٨٧٦

وبزمرك هو الذى دعا الانجليز مرارا، سرا وعلانية لأخذ مصر ، وهو الذى عمل علي تثبيت أقدامهم فيها ، وعضد سياسة الاحتلال فى سنة ١٨٨٢ ، فأيد سياسة انجلترا تأييدا لاتشوبه شائبة ، ونصرها نصرا مبينا ، وجعل من مسألة مصر وسيلة قوية لربط انجلترا بدول التحالف الثلاثي ، ذلك التحالف الذى كونه من المانيا والنمسا والمجر وإيطاليا لرعاية الوحدة التى أنشأها فى ميادين القتال : سدوا وسيدان ، وللمحافظة علي مركز المانيا المتفوق في أوروبا .

* * *

لقد اهتمت الحكومة الامبراطورية الألمانية لأول مرة بالمسألة المصرية حين ثارت المشكلة الشرقية فى أوائل الربع الأخير للقرن التاسع عشر . فالمستشار الألمانى يري أن مصر جزء من هذه المسألة لا ينفصل عنها ، وهو لا يهتم بالمسألة المصرية لقيمتها فى ذاتها أو لمصالح ألمانيا فيها ، وإنما هو يهتم بأمر مصر كوسيلة يسترضى بها الحكومة البريطانية التى ما برحت تنظر إلي ما لألمانيا من مركز متفوق فى أوربا بعين تنم عن جانب كبير من الحسد والحقد وتهاب شوكتها ، ولذا فهو من أول فرصة ينعي علي الحكومة الانجليزية عدم إسراعها إلي استغلال هذه الأزمة الشرقية ، هذه الفرصة الثمينة فى نظره ، ويرى أنه ينبغى لها أن تفكر جديا من الآن في أخذ نصيبها من الأسلاب التى تراكمت نتيجة لضعف الدولة العثمانية المتزايد وتدهورها ، ويرى أن خير مكان وأنسب بقعة تستطيع أن تذهب إليها انجلترا ويمكنها أن تروى غليلها منها هى وادي النيل .

فهو قد اقتنع تماما بضرورة تقسيم ممتلكات الدولة العثمانية بين أصدقائه من الدول الكبري ، ورأى فى هذا التقسيم خير طريق للمحافظة علي السلام فى أوربا وعلي السيطرة الألمانية فيها ، فتأخذ صديقته النمسا والمجر البوسنة والهرسك أى تسيطر علي غربي البلقان تقريبا ، وتهيمن روسيا علي شرقيه وينفذ نفوذها إلى المضايق البوسفور والدردنيل ، وتضم انجلترا مصر بالاتفاق مع فرنسا ، فمصر بموقعها

الجغرافى الممتاز ومواردها التي لا ينضب معينها كافية في نظره لأن تعوض انجلترا عما تقتطعه روسيا من ممتلكات الدولة العثمانية فى البلقان .

وليس صحيحا من الناحية التاريخية ما يزعمه الاستاذ سيتون واطسون Seton Watson. ، استاذ الدراسات الصقلية فى جامعة لندن ، من أن بزمرك أراد من وراء هذه السياسة إصابة عصفورين بحجر واحد : إرضاء انجلترا من ناحية، وإفساد العلاقات الانجليزية الفرنسية من ناحية أخري(١)، فسيظهر من خلال هذا البحث أن بزمرك كان مخلصا فى ذلك الوقت (من سنة ١٨٧٧ إلى ١٨٨١) في العرض الذى قدمه للحكومة الانجليزية ، وأنه فى نفس الوقت كان يعمل على خلق جو من التعاون السياسى بين الدولتين الغربيتين خارج حدود القارة الأوربية .

حرص بزمرك إذن حرصا كبيرا علي أن يوجه انتباه الحكومة البريطانية الى انتهاز هذه الفرصة ، فرصة قيام المسألة الشرقية ، ففي مذكرات له سطرها بعناية كعادته لوزارة الخارجية الألمانية فى خريف سنة ١٨٧٦ يرى أنه إذا استشير فيما يجب أن تكون عليه سياسة انجلترا الخارجية . فانه يقترح أن تنتهج انجلترا نفس السنن الذى تنتهجه روسيا ، فاذا كانت روسيا تبغى أن تستحوذ علي النقط الحربية والاستراتيجية الضرورية لها وذلك بالسيطرة على المضايق البوسفور والدردنيل والاشراف على الآستانة ، فعلي الحكومة الانجليزية أن تقابل ذلك بالسيطرة علي مصر وقناة السويس ، فهو إذن يري أن يكون موقف انجلترا في وادى النيل مشابها لموقف النمسا علي الأقل بأزاء الولايتين العثمانيتين المتاخمتين لها . البوسنه والهرسك وري فى ذلك الحل حلا سلميا للمشكلة الشرقية معقولا ومقبولا وينطوى علي شيء كبير من الحكمة وبعد النظر ، وهو حل خير فى نظره من معارضة انجلترا لتوسع روسيا فى البلقان وقيام حرب شعواء بينهما قد تتحول إلى حرب أوربية عامة طاحنة

(١) فى كتابه Disraeli and Gladstone and The Estern Question ص ٣٠٩

تعصف بما لألمانيا من مركز متفوق في أوربا ، فكما يقول « إنه من الخير لبريطانيا العظمى أن تأخذ قناة السويس والاسكندرية ، بدلا من أن تعلن الحرب على روسيا، وبهذا وحده تتوثق عري السلم فى أوروبا» (١).

وهو يري أنه إذا خشيت الحكومة الانجليزية من اتباع مثل هـذه السياسة مناوءة فرنسا وعـداءها ، فما عليها إلا أن تبحث مع الفرنسيين أمر تقسيم الشرق الأدنى إلى مناطق نفوذ ، فتوافق فرنسا علي تفوق النفوذ الانجليزى في مصر نظير موافقة الانجليز علي تفوق النفوذ الفرنسى في سوريا ، وبذا ترضى فرنسا . وكان بزمرك يرى أن الغلبة والتفوق فى النهاية سـيكون للدولة الممتازة من الناحية البحرية والأكثر مرونة فى الاستعمار (٢).

ولم يقتصر بزمرك على عرض هذه الفكرة على حكومة دزريلى المحافظة بل أرسل إلى سفيره فى روسيا شفينتس Schweinitz يطلب منه أن يعرض على الحكومة القيصرية الروسية فكرة أخذ الانجليز لمصر ليعرف ماذا يكون موقف روسيا ، فهو يعتقد أن من الضرورى أن توافق روسيا علي هـذه الفـكرة إذا أرادت ألا تقاوم انجلترا رغبة الروس فى السيطرة على القسطنطينية والمضايق البوسفور والدردنيل (٣).

وليس من العجيب أن يجد أمرا صوابا وحكيما زيارة نوبار باشا للندن في ربيع سنة ١٨٧٧ لتمهيد الطريق لبسط حماية انجلـيزية على مصر (٤)، ويكرر بزمرك بأنه

(١) الوثائق الالمانية .
(٢) نفس المرجع ٢٠ أكتوبر سنة ١٨٧٦
(٣) نفس المرجع بيلوف الي شفينتس .
(٤) كما يعلق على رسالة أرسلها له سفيره فى لندن بتاريخ ٤ ابريل سنة ١٨٧٧ وكان نوبار قد قام بهذه المهمة دون أن يكون الخديو علي علم بها وماكان مطلقا ليوافق عليها أو يرضاها ، ولقد لجأ نوبار الى عرض هـذه الفكرة على الحـكومة الانجليزية حـين توترت العلاقات بينه وبين الخديو — أنظر الوثائق الألمانية .

نصح وما اتفك ينصح لبريطانيا العظمى بأخذ مصر ، وأن هـذه الخطوة هى خطوة مباركة في نظره ، هى أجل خدمة تستطيع انجلترا تقديمها للسلام في أوربا ، فالمستشار الألماني يخشي قيام حرب أوربية بين روسيا وانجلترا تجد الدولة الألمانية نفسها مرغمة على الدخول في غمارها .

ولكن الحكومة الانجليزية ، حكومة المحافظين ، ما كانت تقبل بسهولة مثل هذا المقترح ، فرئيسها لورد بيكونزفيلد Beaconsfield ، بالرغم من أنه هو الذى عقد صفقة قناة السويس فاشتري أسهم الخديو فيها ، وبالرغم من تعلقه الكبير بالشرق ، وبالرغم من أنه زار مصر فبهره جمالها وأبهتها وسحرته حضارتها القديمة وفخامة آثارها التى تدل علي مجدها القديم وفتنه جمال نيلها ونخيلها وأذهله كثرة خيراتها (١) — إلا أنه كان فى ذلك الوقت لا يرى فى احتلال الانجليز لمصر وسيلة ناجعة لدرء الخطر الروسى عن الشرق الأدنى فهو يقول . إذا أخذ الروس الآستانة فانه يمكنهم فى أى وقت أن يجوسوا بجيوشهم خلال سوريا ويصلوا الى مصب النيل، وعندذلك ماذا تكون فائدة أخذ الانجليز لمصر ؟ وحتى قواتنا البحرية لا تستطيع أن تعزز مركزنا فى مثل ذلك الموقف ، وان الناس الذين يتكلمون بهذه الطريقة يجهلون الجغرافيا تماماء والآستانه لامصر ولا قناة السويس هى مفتاح الطريق الي الهند(٢). ولقد أبدى بيكونزفيلد عجبه والشك الذي خالج نفسه من كثرة عروض بزمرك، وذكر أنه يفضل أن يستولي علي آسيا الصغرى ذاتها (٣).

علي أن الحكومة الانجليزية اذا كانت راغبة عن احتلال مصر في ذلك الوقت

---

(١) انظر Monypenny and Buckle: Life of Disraeli الجزء الاول. الفصل الخاص برحلة ديزريلي الى الشرق ومصر . ولقد تنقل ديزريلى فى أيام شبابه في مصر من رشيد الي الشلال.

(٢) انظر المرجع السابق جزء ٢ ص ٨٤ عن كتاب Seton-Watson: Disraeli and Gladstone ص ٩٨

(٣) Seton-Watson: Disraeli and Gladstone ص ١٠٩ .

الا أنها كانت حريصة علي ألا تمتد اليها يد الحرب التي ثارت ثائرتها فى البلقان ، فلقد انتشرت الاشاعات فى ذلك الوقت التي تقول بأن روسيا تنوى ادخال مصر فى غمرة الحرب ، فهي تنوى محاصرة الشواطىء المصرية باسطول البحر الابيض المتوسط ، أو هى تنوي أخذ أرمينية وأرمينية مفتاح سوريا وسوريا مفتاح مصر !!، ولذا قدم داربي Derby وزير الخارجية الانجليزية الي شوفالوف Shuvalov سفير روسيا فى لندن بأن مصالح انجلترا سوف تضطرها الى اتخاذ خطة الدفاع اذا مس خطر حرية الملاحة في قناة السويس أو اذا قامت روسيا بهجوم علي مصر(١). واستفسرت الحكومة الانجليزية فوق ذلك من روسيا عما اذا كانت عازمة على محاصرة سواحل مصر أم لا ، وبينت فى نفس الوقت أن أي عمل حربي يهدد سلامة مصر أو قناة السويس ستعتبره انجلترا عملا عدوانيا اعتدائيا موجها نحوها(٢)، ولم يهدأ بال انجلترا ولم تطمئن الا حين علمت أن هذه الأشاعات هى محض اختلاق(٣). وفي أثناء الحرب الروسية التركية أعلنت روسيا عن رغبتها فى إرضاء انجلترا بأنها لن تتعرض لمصر ولا لقناة السويس ، فليست لها المصلحة ولا الرغبة ولا الوسائل للقيام بمثل هذا العمل(٤).

وفى الواقع أن انجلترا كانت فى ذلك الوقت أي فى سنة ١٨٧٧ تخاف عواقب اتباع السياسة التى يقترحها بزمرك ، وتخشى بصفة عامة عداوة فرنسا ، لاسيما وأن الرأي العام الانجليزي كان يعتقد تماما فى هذه السنة أن المستشار الألماني غير

---

(١) Documents Diplomatiques Français جزء ٢ رقم ١٧١ دكاز Decazes وزير الخارجية الفرنسية الي لفلو Le Flô سفير فرنسا فى بطرسبرج ٢١ مايو سنة ١٨٧٧

(٢) Sumnet: Russia and The Balkans ص ٣١١ .

(٣) (Seton-Watson Disraeli and Gladstone ص ١٧٢ ، و Sumner: Russia and The Balkans صفحات ٣١٠ الي ٣١٢ ، ٦١٨

(٤) نفس المصدر السابق ص ١٩٣

مخلص في ذلك العرض فدوافعه غير بريئة ، فهو يريد أن يدفع بانجلترا إلى مصر لكي تؤيده في الاستيلاء علي هولنده ، وحتى الملكة فكتوريا نفسها، ملكة انجلترا، كانت مصدقة للأشاعات التي تملأ الجو السياسى فى أوربا عن رغبة ألمانيا فى الاستحواذ علي هولندا ، مما اضطر السفير الألمانى في لندن إلى أن يؤكد للحكومة الانجليزية بأن ما يشاع عن رغبة الألمان فى ضم هولندا محض افتراء لا صدق فيه ولا غناء(١).

علي أن المستشار الألماني لم ييأس ولم يكترث لمثل هذه الأراجيف ، فهو يدون فى مذكرة أنشأها فى كسنجن Kissingen في صيف سنة ١٨٧٧ لوزارة الخارجية الألمانية : « لقد رغبت فى حث الانجليز علي أخذ مصر إذا كانوا لا يزالون يطمعون فيها ، لأنى أعتقد أن من مصلحتنا ولخير مستقبلنا العمل علي تقابل الانجليز والروس فى منتصف الطريق ، فاذا استطاعت انجلترا وروسيا الوصول الى إتفاقية بها تسيطر روسيا على البحر الأسود وانجلترا على مصر كان ذلك خدمة جليلة للسلام فى أوربا» ، ولكن ما العمل اذا كان الانجليز لا يرون فى أخذ مصر حلا كافيا لمشكلة المضايق ، فملكة انجلترا ووزراؤها ليست عندهم ذرة ثقة فى روسيا(٢).

ثم ان لورد داربي وزير الخارجيـة في وزارة المحافظين فى ذلك الوقت لم يكن بطبيعته ميالا الى اتباع سياسـة خارجيـة نشيطة ، فهو لم يتحمس حتي لصفقة قنـاة السويس ، وكانت تنقصه فعلا الادارة القوية والعزم مما جعل السفير الألمانى في لندن يعتقد « أن الساسة البريطانيين يعيشون من يوم الى يوم ولا يفكرون فى المستقبل » ويرى أن على انجلترا اذا أرادت المحافظة على مركزها فى أوربا : أما المحافظة علي

(١) الوثائق الألمانية مذكره لبزمرك كتبها لوزارة الخارجية الألمانية بتاريخ ١٥ يونيو سنة ١٨٧٧ ، منستر الي بيلوف ٦ يونيو ١٨٧٧

(٢) الوثائق الألمانية روس Reuss السفير الألماني فى فينا الي بزمرك ١٠ يوليو ١٨٧٧

الممتلكات العثمانية بقوة السلاح كما فعلت فى حرب القرم أو تقسيم ممتلكاتها ، ونعى عليها موقفها فى ذلك الوقت ، فهو في نظره موقف الضعف والتردد ، اذ لاهي جندت جنودها للدفاع عن تركيا ، ولاهي أنشبت اظفارها فى مصر كجزء من الغنيمة(١).

فروسيا ما برحت مصرة على السيطرة على البحر الاسود فيجب اذن على الانجليز — كما ترى السياسة الخارجية الالمانية — المحافظة على مصالحهم فى البحر الابيض المتوسط ولن يصلوا الى هذه الغاية الا باحتلال مصر .

وربما كان هناك رأى فى لندن ، ويصح أن يكون بيكونزفيلد نفسه وهو : أن تشترى انجلترا مصر من الباب العالى ، وأن تعوض السلطان عن الجزية التي تقوم مصر بدفعها سنويا . ولقد أبلغ ديزريلى الملكة فكتوريا يوما بأن ليس لدى الباب العالى مانع من بيع سيادته على مصر و كريت وقبرص(٢). ويظهر ان جلادستون كان علي علم بهذه الحركة وانتقدها انتقادا لاذعا ، كما انتقد شراء ديزريلى لاسهم الخديو في قناة السويس من قبل . ولقد انتشرت اشاعات عن هذه الحركة الى درجة أن اضطر رئيس الحكومة الانجليزية الى أن يطمئن فرنسا من هذه الناحية (٣) ، واهملت فكرة الشراء اهمالا تاما .

ويعلم الساسة الالمان جد العلم انه اذا احتلت انجلترا وادي النيل فسيكون لذلك بلا ريب أعمق الاثر وآلمه فى فرنسا ، ولذا فالحكومة الفرنسية لن تتنازل عن مطالبها وعمالها من نفوذ فى البحر الابيض المتوسط الا اذا ضمن لها الانجليز زيادة

---

(١) انظر المصدر السابق ، الي بزمرك ٢٨ يونيو ١٨٧٨ .

(٢) Seton-Watson: Disraeli and Gladstone صفحات ٢٢٥ ، ٣٠٩ .

(٣) كان أول من كشف عن هذه الحركة الاستاذ سيتون واطسون كشفها فى الوثائق الروسية ويذكر ذلك الاستاذ أن اتهامات جلادستون لدزريلي غير صحيحة لان زميله فى حزب الاحرار لورد جرانفل يعلم جيدا أن ديزريلى لم يحاول اجراء صفقة شراء مصر . انظر الكتاب السابق صفحات ٢٢٥ ، ٣٠٩ ، ٣١٠

نفوذها فى بحر الشمال ، وذلك بأن توافق الحكومة البريطانية على ضم بلجيقا لفرنسا وتعويض المانيا بهولندا لحفظ التوازن الدولى فى اوربا،وهذا ما لم تكن حكومة لندن تستطيع أن تقبله بأى حال من الأحوال.

ولقد وجد من رجال الدبلوماسية الانجليزية من يعضد وجهة النظر الألمانية . فالسفير الانجليزي فى برلين لورد أودو رسل Lord Odo Russell كان يحبذ أخذ انجلترا لمصر ، ويري فى ذلك حلا طبيعيا وسلميا مريحا للمسألة الشرقية ، ولا ريب في أن الرأي العام الانجليزي في سنة ١٨٧٨ كان قد تحول الى تعضيد هذا الرأى وأخذ يحن الى اليوم الذي يري فيه العلم الانجليزى يرفرف على قلعة القاهرة، ويود القيام بأية تضحية للوصول الى هذه الغاية ، وكان فريق من أفراد العائلة المالكة الانجليزية يري من بداية الأمر انتهاز هذه الفرصة ، فرصة اشتغال المسألة الشرقية لامتلاك مصر . فقد كتبت الأميرة أل Crown Princess الى الملكة فكتوريا فى ١١ يوليو سنة ١٨٧٧ رسالة تقول فيها « ان كل من يحب انجلترا يرى اغتنام هذه الفرصة ، فرصة وضع أقدامنا فى مصر(١)» . علي ان أودو رسل كان يشكو دائما من انه لا يوجد عضو واحد فى الوزارة الانجليزية يأخذ بفكرته او يري قريبا منها ، وذلك خشية عداوة فرنسا .

فلقد كان موقف وادنجتون Waddington وزير الخارجية الفرنسية في ربيع سنة ١٨٧٨ صلبا لا يتغير فى هذه المسألة ، فالحجر الأول في أساس سياسته هو منع الانجليز من احتلال مصر بأى ثمن . ولذا فقد أعلن إعلانا لا يشوبه غموض وذلك عند دخوله الوزارة بأنه لن يقبل أبداً احتلال انجلترا لوادي النيل . وكما يقول السفير الألمانى فى باريس برنس هوهنلره Hohenlohe ان جانبا كبيرا من الرأى العام الفرنسى كان يعضد وادنجتون فى هذه المسألة بالذات ، ولو ان حملة الأسهم

---

(١) نفس المصدر السابق

الفرنسيين ربما كانوا يفضلون احتلال الانجليز لمصر لأنهم يجدون في ذلك الاحتلال خير ضمان لحقوقهم (١). ولقد اتبع الوزير الفرنسي بدقة السياسة التى أعلنها ولم ينحرف عنها ، فلم يقبل اشتراك الحكومة الفرنسية فى مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨ إلا إذا اقتصر عمل المؤتمر ومناقشاته علي معالجة الموقف السياسى الذى نشأ عن معاهدة سان ستفانوا بين الباب العالى وروسيا ، وأصر علي ضرورة موافقة الدول العظمى علي ألا تعرض مسألة مصر وتونس وسوريا على بساط البحث في المؤتمر بأي حال، وفعلا وجدت الفكرة موافقة تامة من كل الدول (٢).

ولكن منستر السفير الألمانى فى لندن ظل يردد الفكرة الالمانية على اسماع لورد بيكونزفيلد ووزرائه ، وخاصة علي وزير الخارجية الجديد لورد سولسبري Lord Salisbury ، لأن منستر كان يعلم جد العلم أن الوزير الجديد من أكبر دعاة الامبراطورية فلقد كان وزيرا لشئون الهند له همة ونشاط ليس لسابقة لورد داربى (الذى استقال من الوزارة عقب نزاع شديد ثار بينه وبين رئيس الوزارة) ، له رأيه الخاص في مسألة بقاء الدولة العثمانية ، فهو عديم الثقة بها ميال الى تقسيمها والعمل على انحلالها ، ويرى أن بقائها مهزلة من مهازل السياسة لا ينبغي استمرارها ، ويعتقد أن السياسة البريطانية القديمة فى المحافظة على بقاء الدولة العثمانية وكيانها سياسة عديمة المنفعة لا غناء فيها ولا تتفق والوقت، وهو يحرص علي الاتفاق مع روسيا أكثر مما يميل الى الحرب معها . ولقد كان سولسبرى منذ كان وزيرا للشئون الهندية دائم التفكير فى المحافظة على مصالح انجلترا لا بحماية تركيا من الخطر الروسى ، وانما بالاستيلاء على بعض ممتلكات الدولة العثمانية

(١) الوثائق الألمانية هوهنلوه الي بزمرك ١٥ مارس سنة ١٧٧٨

(٢) الوثائق الالمانية بيلوف الي منستر ١٧ مارس سنة ١٨٧٨ ، وبيلوف الى هو هنلوه ١٧ مارس سنة ١٨٧٨ ، 1ère Série: Documents Diplomatiques Français. الجزء الثاني

التى تضمن لانجلترا سلامة امبراطوريتها وسلامة مواصلاتها الي الهند ، فهو كما يقول للورد ليتون Lord Lytton «ان سياستنا الخارجية تنقصها الجرأة والخطة الموسومة» وأن المحافظة على الطريق الى الهند لا تكون الا بأخذ مصر و كريت والاشتراك فى القضاء المبرم على تركيا (١).

ولذا فموضوع مصر من المسائل التي يشوق سولسبرى التفكير فيها والمناقشة مع السفير الالماني ، ولكنه حين كان يخلو الى بقية أعضاء الوزارة كان دائما يجدهم غير ميالين إلى أخذ مصر ، فكما يقول لمنستر إن هناك مسألتين يمنع زملاءه من التفكير جديا في مسألة أخذ مصر أولاهما التعقيدات والتضحيات المالية وثانيهما عداوة فرنسا ، ولكن السفير الالماني كان قد تكهن بما يدور في خلد الوزارة الانجليزية ، ولذا فهو يجيب بأن هذه المصاعب مبالغ في تقديرها دون ريب، فموارد مصر المالية متى أديرت إدارة حسنة تحت رعاية انجلترا وتحت اشراف موظفين انجليز فانها تستطيع القيام بكل التعهدات المالية التي ارتبطت مصر بها، وأن الدائنين الفرنسيين يهمهم قبل كل شيء أن تسدد ديونهم وتدفع فوائدها ، ولا يأبهون كثيرا لذكريات فرنسا التاريخية أو لما تدعيه من أعمال مجيدة فى مصر ، ثم ما الذى يجعل الانجليز يظنون أن هدف فرنسا هو مصر ؟ فهدف فرنسا الحقيق هو تونس لكي تستطيع حماية مصالحها في الجزائر . ثم بعد ذلك ما الذى تستطيعه عداوة فرنسا؟ فهل تستطيع فرنسا في الوقت الحاضر اعلان الحرب على انجلترا من أجل مصر ؟

ولما وجد سولسبري عدم اتفاق زملائه فى الوزارة على مسألة احتلال مصر اضطر غير راض الى ترك هذا المشروع ، ثم من ناحية ثانية سولسبرى نفسه كان دائما كبير الاهتمام بصداقة فرنسا ، وخاصة فى الوقت الذى تخلت فيه ايطاليا عن

(١) Seton Watson: Disraeli and Gladstone ص ٢١٩

مساعدة انجلترا فى المسألة الشرقية ضد روسيا(١) فسولسبرى يؤمن بضرورة تعاون الدولتين الغربيتين فى كل ما يختص بمسائل البحر الابيض المتوسط . بل لقد أصبح ذلك التعاون أمرا حيويا بالنسبة لانجلترا طالما كانت تبغى ألاتنضم فرنسا الى المعسكر الروسى . ومن الاسباب الاساسية التى جعلت الحكومة الانجليزية لاتأخذ بالعرض الالماني هو تشككها في سياسة بزمرك ، فكانت تخشى دائما أن يكون المستشار الالماني قد عرض مصر على فرنسا لتعويضها عن الالزاس واللورين في نفس الوقت الذى عرضها فيه على انجلترا .

وظل موقف المانيا بالنسبة لانجلترا فى هذه المسألة كما هو ، ظل موقف الصداقة والتأييد ، ولذا حين تعقدت الظروف بعض الشيء بين فرنسا وانجلترا أعلن بزمرك للسفير الانجليزى لورد أودورسل بأنه مستعد لتأييد بريطانيا العظمى «لان من مصلحة المانيا أن يتفوق نفوذ انجلترا علي نفوذ فرنسا في مصر» ، وهو مع ذلك ماض فى تأييده للتعاون بين الدولتين (٢) . وحين أرادت الحكومة النمسوية المجرية استغلال صداقة المانيا فطالبت بأن تشترك مع الحكومتين الفرنسيه والانجليزية فى الاشراف علي شئون مصر أشار اليها بزمرك بأدب بأن مصالح انجلترا وفرنسا اضعاف مصالح المانيا والنمسا ، وأن هذه المصالح تبرر فى نظره مركزهما المفضل فى مصر ونفوذهما الممتاز ، وأنه يفضل أن يوكل إلى انجلترا وفرنسا أمر حماية مصالح رعاياه في مصر علي شرط أن تقوم هاتان الدولتان بحماية مصالح الدول الأخرى علي قدم المساواة مع مصالحهما وبنفس الاهتمام(٣).

---

(١) لما استفحل الخطر الروسى فى أوائل سنة ١٨٧٨ فكرت انجلترا فى انشاء عصبة من دول البحر الأبيض المتوسط تكون غايتها منع امتداد النفوذ الروسى الي ذلك البحر، وعرضت الفكرة علي ايطاليا فرحبت الحكومة الايطالية فى أول الأمر بالمشروع ثم نكصت علي عقبيها

(٢) Winfred Taffs: Ambassador to Bismarck: Lord Odo Russell ص٣٠٦

(٣) الوثائق الالمانية دكتور بوش Busch فى وزارة الخارجية الالمانية الي ولي عهد المانيا ٧ سبتمبر سنة ١٨٨٢

ولقد أيد المستشار الألماني انجلترا وفرنسا تأييدا لا يعتريه ضعف فى موقفهما ضد الخديو اسماعيل فى أوائل سنة ١٨٧٩ حين تحدي أوربا وأراد التخلص من العنصر الاجنبي ، فأرسل إنذارا الى مصر زلزل مركز الخديو، ووافق على فكرة الدولتين الظالمة فى طلب عزل الخديو ، بالرغم من أن كلا من روسيا وإيطاليا كان يعترض على حق الدولتين فرنسا وانجلترا فى طلب تخلي الخديو عن عرشه ، فهذا تدخل صريح فى شئون مصر لا يتفق والعرف الدولى ، ولكن تأييد بزمرك وعدم اكتراثه بما لاسماعيل من حقوق جعل معارضة روسيا وإيطاليا لا قيمة لها ، فغادر اسماعيل مصر حزينا وتولى شئونها توفيق .

وتعقدت المسألة المصرية من الناحية الدولية فى أوائل عهد الخديو توفيق ، وأنذرت الثورة العرابية بخطر كبير ، فثبتت ألمانيا على موقفها فى أن ليس لها مصالح مهمة في وادى النيل تدعوها للتدخل مباشرة ، وظلت متمسكة برأيها فى الاعتراف بمركز انجلترا وفرنسا الممتاز في مصر (١) ، فكما يقول لورد أودورسل عن بزمرك « إنه (أي بزمرك) راغب فى منح تأييده لأى سياسة تتفق عليها انجلترا وفرنسا في مصر ، لأنه يري في الاتفاق الفرنسى الانجليزى أساسا للسلام والنظام فى أوربا ، ويري فوق ذلك أن تنضم المانيا إلى جانب ذلك الاتفاق بتأييده وتعضيده » (٢).

وحين لجأت وزارة الأحرار وعلى رأسها جلادستون إلى المانيا لتعرف موقفها إزاء الثورة العرابية كان رد بزمرك بأن انجلترا أعلم بما يجب أن يكون عليه موقفها إزاء ذلك التعقيد الجديد فى المسألة المصرية ، ولكنه بين فى نفس الوقت أن سياسته كسياسة انجلترا ، فمن مصلحة الدول جميعا كما يعرف هو المحافظة على الموقف السياسى الراهن فى مصر وتعضيد سلطة الخديو .

---

(١) نفس المصدر بزمرك الي رادوفيتس Radowitz ٢٣ نوفمبر سنة ١٨٧٩

(٢) رسل الي جرانفل ٢٩ ابريل ١٨٨٢

Taffs: An Ambassador to Bismarck عن Foreign Office. 64. 939. No. 120.

فبين جرانفل وزير الخارجية الانجليزية أن الحالة في مصر خطرة ، فوفقا لتقارير قنصل انجلترا الجنرال في القاهرة الخديو جد متشائم من سير الأمور الداخلية وأنه يائس جدا من استقامة الأحوال ، ولذا فالحكومة الانجليزية مصممة على تقوية مركزه وشد أزره بأن تعلن الدول الكبرى في صراحة وجلاء تام عن رغبتها فى المحافظة على الحالة السياسية الموجودة ، ولذا فقد أصدرت الحكومتان الفرنسية والانجليزية إلى قنصليهما الجنرالين في مصر بأن يبينا للخديو عن هذه الرغبة بمذكرة يناير المشهورة . وذكر جرانفل أن فرنسا قد تعاونت مخلصة مع انجلترا فى هذه المسألة، ولما وضح هربرت بزمرك أن المانيا لن تعترض علي ما حدث ، ولكنها ترغب في أن يوكل الى الأتراك أصحاب السيادة فى مصر أمر المحافظة علي النظام(١) أجاب جرانفل إجابة قلقة مضطربة تدل علي أحد شيئين : إما أنه يريد اخفاء خطة استنها انجلترا ، واما ان الوزارة الانجليزية لا تزال غير متفقة فيما بينها على السياسة التي يجب اتخاذها حيال مسألة مصر . ولذا فهو يردد بأنه ما فتيء يعتقد أن إعادة النظام الى مصر على يد الأتراك هوخير الحلول الممكنة وأنه شر لا بد منه ، على أن جرانفل لم ينس أن يذكر لابن بزمرك ومبعوثه في لندن بأن ما صرح به هو رأيه الشخصي ، وأنه لا يزال لا يدرى إذا كان اخوانه فى الوزارة يشاطرونه هذا الرأى ، ثم أضاف بأن قيام انجلترا بعمل وحدها في وادي النيل هو ضرب من المحال ، وان من المغامرة تعاون فرنسا وانجلترا في القيام بعمل وحدهما ، وأن ترك

---

(١) وكان الاتراك عقب مؤتمر برلين سنة١٨٧٨ قد لجأوا الي المانيا ابتغاءالنصح والحماية وقابلت برلين ذلك الود بمثله وأجابت بعض طلبات الأتراك الخاصة بأرسال بعض الموظفين الألمان الى الاستانة تمادياً الي تخوف السفير الانجليزى فكتب الى جرانفل يقول : It is evident that the exchange of compliments, of presents, of diamonds and of assurances, of mutual respect and admiration has practically led to a state of real intimacy between Germany and Turkey which has never before existed and which gives the Sultan a welcome excuse for leaving his ways umended.» March 22, 1882. F.O. 64. 1005. No. 102 عن Taff: An Ambassador to Bismarck

الأتراك يتدخلون وحدهم لحفظ النظام والأمن في مصر قد يؤدى الى صعوبة التخلص منهم فيما بعد ، ولكن ميزة تدخل الاتراك وحدهم هو عدم وقوع التشاحن بين الدول الأوربية الكبري من جراء مسألة مصر(١).

ولقد لاحظ المبعوث الألماني هربرت بزمرك تضارب أقوال جرانفل مما لا يبشر فى نظره باستقرار الحكومه الانجليزية على رأي فى مسألة مصر ، فهي حانقة غاضبة علي الباب العالي لعدم قيامه بتنفيذ شروط معاهدة برلين كما يجب ، وهى فى حيرة من أمرها فيما يختص بمصر . علي أن ما كان يخشاه جرانفل قبل كل شيء هو أن تصبح مسألة مصر مسألة دولية ، هو تدخل الدول الكبرى فى مسألة مصر ، ولذا فهو يبين لألمانيا أن مثل ذلك التدخل ليس من صالح السلام فى أوروبا .

ولما كانت الحكومة الانجليزية ترى من المهم أن تتعاون فرنسا معها فى مسألة مصر ، هذا قوى من فكرة المستشار الألماني بأن سياسة انجلترا الخارجية لا يزال ينقصها الحكمة وبعد النظر « بدرجة لا يوجد لها مثيل فى تاريخ انجلترا » فانجلترا كما يرى أصبحت مقيدة بسياسة فرنسا الخارجية فهى لا تفكر إلا في التعاون مع فرنسا وإلا فى صداقة فرنسا ، وهاله أن يرى «وزارة جلادستون تندفع من مغامرة لأخرى »، فاذا كانت الحكومة البريطانية قد اتفقت مع الحكومة الفرنسية علي أن تكونا فى عزلة عن بقية دول أوربا بتدخلهما وحدهما في مسألة مصر ، فان علاقات بريطانيا العظمى مع الدول الأوربية الأخرى التى لها مصالح فى الشرق لابد وأن تتأثر تأثرا سيئا » وخاصة إذا حدث «وساءت علاقة انجلترا بفرنسا لتباين مصالحهما» ، ولذا ففي آخر الأمر « فان انجلترا ستجد نفسها وحيدة منفردة فى أوروبا نتيجة لسياستها الحائرة المترددة»(٢)

(١) الوثائق الالمانية هربرت بزمرك الي بزمرك ٧ يناير سنة ١٨٨٢

(٢) نفس المصدر هاتسفلت Hatzfeldt فى برلين الي رويس Reuss السفير الالماني فى فينا ١٥ يناير سنة ١٨٨٢

وما كان بزمرك يثق فى حسن فهم جلادستون لشئون السياسة الخارجية ، وما كان يستطيع أن يقيم وزنا كبيرا لتصريحات جرانفل أو لآرائه الشخصية نظرا لضعفه وتردده وقلة حيلته، كما كان الشك يساوره دائما فى سياسة جمبتا الفرنسية ولذا فهو في سياسته العامة الأوربية معتمد على الدول الامبراطورية النمسوية المجرية والروسية . أما فى مسألة مصر فهو لم يحد عن سياسته التقليدية التى تنطوي على عدم إثارة العراقيل في وجه السياسة الانجليزية وإن كان لا يروقه أن يرى الحكومة الانجليزية تتبع ظل الحكومة الفرنسية .

ولكنه كان حريصا وخاصة بعد سقوط وزارة جمبتا الفرنسية فى أول شهر فبراير سنة ١٨٨٢ على أن يؤيد الخطوات التى تقوم بها الدولتان الغربيتان على شرط أن تحوز هذه الخطوات موافقته ، وإن كان يفضل المحافظة على الحالة السياسية الراهنة فى مصر ، وكان يعضده فى وجهة النظر هذه الدول الشمالية الروسيا والنمسا ، فهو لذلك ينصح بتدخل السلطان وحده ، ولكنه بين مع ذلك أنه لن يعارض اذا تدخلت الدول الأوربية الكبرى جميعها متعاونة ، وأسر الي الانجليز فى نفس الوقت بأنه سيحاول ارضاءهم بقدر المستطاع على الرغم من ارتباطه بالدول الشمالية ، ولذا يبعث لورد أودو رسل السفير الانجليزى فى برلين بوثيقة سرية الى حكومته مؤرخة ٢٠ مايو سنة ١٨٨٢ يقول فيها:

Dr. Busch has told me (privately and confidentially) that although Prince Bismarck had not felt at liberty to separate himself officially and depart from the attitude assumed by Count Kalnoky and m. de Giers in regard to sending instructions to their representatives at Constantinople, His Highness has nevertheless instructed him to speak privately to the Turkish Ambassador Sadoullah Pasha in the sense desired by your Lordship and that he had abready done so, and recommended him to advise his Government not to exaggerate the effect of the naval demonstration but

to abstain from interference and confide implicitly in the policy and good intentions of England and France». (1).

ولقد أطلع بزمرك حلفاءه علي وجهة النظر هذه ، وأيد إبحار أسطول الدولتين للمحافظة علي الأمن والنظام وتعضيد سلطة الخديو علي حسب الفرامانات التي اعترفت بها دول أوروبا (٢).

ولم يكن بزمرك مرتاحا الي رغبة الحكومة الانجليزية فى أن تطلب من الباب العالي إرسال جنوده الى مصر لاعادة الهدوء اليها ، فلم يكن يعضد فكرة اصدار الدول أوامرها للحكومة العثمانية ، فهو يرى فى ذلك انتقاصا كبيرا من حقوقها ، وتحديدا لسلطتها لامبرر له ، ولقد أبدي السفير الانجليزي فى برلين أسفه لذلك الموقف من جانب الحكومة الألمانية ، ذلك الموقف الذي ربما سبب كثيرا من المتاعب لما لألمانيا من كلمة مسموعة لدي كثير من الدول الأخرى . ولقد أجاب هاتسفلت على ذلك ، وكان قائما بأمور وزارة الخارجية الألمانية بأن فرنسا لا تؤيد انجلترا فى مطلبها الخاص بأرسال الباب العالى لجنوده الي مصر ، وأسر الى السفير الانجليزي بأن بزمرك لن يقبل الاشتراك مع انجلترا فى الانتقاص من حقوق السلطان أو من سيادته ، ويرى أن الحل الوحيد للصعوبة الحالية هو ترك السلطان يفصل فيها بطريقته الخاصة ، فالأتراك لهم وسائل ناجعة فى تسوية مثل هذه المشاكل:

«The Turks had a way of their own of pacifying their co-religionists; they gave their agents a sword in one hand, and a bag full of decorations in the other, money in every pocket and told

(١) F.O. 64. 1006. No. 169. عن Taffs: Ambassador to Bismark صفحات ٣١٠ ، ٣١ . دكتور بوش من كبار موظفي وزارة الخارجية الالمانية . كونت كالنكى وزير خارجية الامبراطورية النمسوية المجرية ، مسيو دي جرز وزير الخارجية الروسية — المظاهرة البحرية هي المظاهرة التى قامت بها انجلترا وفرنسا في ميناء الاسكندرية

(٢) نفس الكتاب . رسل الي جرانفل ٢٧ مايو سنة ١٨٨٢ . ص F.O. 64 1006. No. 188.

them to make the best of their chances».(1)

ولما سأل رسل السفير الانجليزي عن الوسائل التى يمكن التخلص من الأتراك بعد ذلك أجاب هاتسفلت بأن هذه المسألة متروكة للمستقبل ، وأن قناصل روسيا والمانيا والنمسا وايطاليا قد سجلوا فى تقاريرهم أن هذه الطريقة هى خير الطرق التي يجب الأخذ بها لحل المشكلة المصرية ، لأن التدخل الحربى حتي ولو كان عثمانيا سيؤدى فى آخر الأمر الى كوارث ، وأضاف الى ذلك قائلا: ان كل ما يهم المانيا هو السلام وعدم وقوع حرب من أجل مصر «وان البرنس بزمرك يكون سعيدا لو استطاع نفض يديه من كل المسائل الشرقية ، ولكنه كعضو فى التآلف الأوربي مضطر لتأييد الدول التى يهمها ذلك الموضوع في الوقت الذي تجد نفسها متفقة فيه ، فسياسته هي عدم توسيع شقة الخلاف بين الدولتين انجلترا وفرنسا، وإنما هي العمل دائما علي تعاونهما والتوفيق بينهما لأنه يري السلام والمصلحة في ذلك» .

«Prince Bismarck had always agreed that a difference of opinion with regard to Egypt was inevitable and his earnest desire was not to foster such differences when they sprang up, but on the contrary to contribute as far as was is his power towards the continuance of the Anglo-French alliance which he has always welcomed as a guarantee of peace in Europe». (2)

وعلي أي حال قبل بزمرك الاشتراك فى مؤتمر الآستانة الذي انعقد من الدول الكبرى لمناقشة المسألة المصرية ومعالجتها ، ولو أنه كان لا يؤمن كثيرا باستطاعة المؤتمرات حل المشاكل الدولية ما لم تتفق الدول صاحبة الشأن علي حل هذه المشاكل من قبل . ولذا لم يكن كبير الأمل فى نجاح ذلك المؤتمر . وجدت الحكومة الالمانية أن فرنسا لم تكن بكبيرة الرغبة في نجاح ذلك المؤتمر لأن فكرته الأساسية لم تلق

(١) نفس الكتاب صفحات ٣١٢ ، ٣١٣ . رسل الي جرانفل ١٧ يونيو ١٨٨٢
F.O. 64. 1006. No. 212.

(٢) نفس الكتاب السابق صفحات ٣١٢ ، ٣١٣ . رسل الى جرانفل ١٧ يونيو ١٨٨٢
F.O. 64. 1006. No. 212.

ترحيبا فى باريس ، فالحكومة الفرنسية كانت عاقدة العزم على مناهضة كل مبدأ يقول بتدخل الأتراك الحربى فى مصر خشية ازدياد قوة الاسلام فى شمالى افريقية الأمر الذي يعمل دون شك على اضعاف مركزها فى الجزائر وفى البحر الأبيض المتوسط . وأيقنت ألمانيا أن المؤتمر سيفشل فى خطواته نهائيا لأنها (أي ألمانيا) لم تكن مستعدة لانتداب الدولتين الغربيتين انجلترا وفرنسا لحل مسألة مصر وانتقاص ما للسلطان من حقوق في هذه البلاد ، وان لم تكن تعارض في قيام الدولتين إذا أرادتا — بأرجاع النظام الي مصر على مسئوليتهما الخاصة ، فألمانيا لم ترد أخذ دور إيجابى في المسألة المصرية ، وكانت ترى أن إرسال الدولتين لأسطوليهما الى مياه الاسكندرية كان سببا فى حدوث المذبحة المشهورة وفى اثارة العسكريين المصريين إلى اقامة التحصينات والى الاستعداد للحرب ، ولكن ألمانيا بالرغم من ذلك لم تقم باثارة عراقيل في وجه الانجليز ، ولم تقتصر على ذلك بل لقد عملت على الوقوف أمام محاولة روسيا تكوين حلف من بعض دول أوربا للاحتجاج على سلوك انجلترا في مصر ، وذلك بعد ضرب الانجليز لمدينة الاسكندرية وهنأت المانيا الحكومة الانجليزية على نجاح العمليات الحربية ، ولما احتلت انجلترا قناة السويس فأثارت جانبا من الرأي العالمى ضدها كان موقف المانيا الصريح في تأييد انجلترا عاملا على تهدئة الخواطر فى أوربا نحو بريطانيا وخفوت صوت المحتجين . ولما كانت مصالح المانيا فى قناة السويس تجارية قبل كل شيء وليست سياسية لم تعارض السياسة الانجليزية وان كانت لم توافق على طلب الحكومة الانجليزية بالاشتراك معها في ضمان حرية الملاحة فى القناة . ولم تناصر المانيا الجهود التى قامت بها بعض الدول الكبرى لتطلب من انجلترا تفسير أعمالها وتوضيح موقفها ، بل اقتصرت على إرسال هربرت بزمرك الي لندن ليقف على سياسة انجلترا الجديدة إزاء المسألة المصرية ، ودعا القيصر الألماني والقيصرة الألمانية السفير الانجليزي لورد أودو رسل الى وليمة فاخرة لتهنئته

على النجاح العظيم الذى صادفته حكومته . ولم يخف السفير الانجليزى من ناحيته سروره ، فبعث بدوره يهنيء حكومته بسياستها «القوية» الوطنية القومية التى نالت تقدير الانيا .

ولما جاء أمر تنظيم انجلترا لشئون مصر أعلن بزمرك للورد جرنفيل ان الحكومة الألمانية لن تثير صعوبات او متاعب أمام انجلترا فى هذه الناحية. ولما ثارت المناقشة بعد ذلك في أمر مصير مصر ساء بزمرك أن يجد الوزراء الانجليز غير متفقين فيما بينهم علي السياسة التي يجب أن تتبع ، مضطربي الأعصاب قلقين كلما ذكرت دولة أجنبية اسم مصر. ولكن المستشار الألمانى ظل علي ولائه لسياسته القديمة التقليدية، ولم يخف أمام الحكومة الانجليزية المترددة أنه علي استعداد لئن يذهب فى تأييدها الى حد ضم مصر الي الممتلكات البريطانية إذا أرادت ذلك ، وإن كان ينصح بأن من الخير لهم أي الانجليزلو وطدوا أقدامهم فى مصر تحت سيادة تركيا ، وبذا لا يضعف مركز السلطان فى العالم الاسلامي ولا ينال تركيا الهزال والانحلال ، وبذا لا تجعل انجلترا من السلطان عدوا مبينا لها فتفتح الباب واسعا أمام دسائس الدول الأوربية المعادية لها ، أما اذا اتبعت انجلترا سياستها التقليدية القديمة ، سياسة التحالف مع الباب العالى فانها تعزز مركزها في مصر وتركيا ، وتحكم مصر من القاهرة والآستانة معا ، ويكون انتفاعها أكبر ، بل سيكون هذا عاملا علي تيسير الأمور لبريطانيا فى البحر الأبيض المتوسط . ولعل بزمرك كان يرمي من وراء ذلك عدم اعطاء روسيا فرصة للاتفاق مع فرنسا على محاربة نفوذ انجلترا فى مصر والشرق الأدنى ، كما انه لم يكن يرمي الي تمهيد الطريق أمام الباب العالي للانضمام الى جانب فرنسا .

اقترح المستشار الألمانى إذن ابقاء مصر تحت السيادة العثمانية ، ولكنه اقترح بجانب ذلك أن يجعل الانجليز من وظيفة قنصلهم الجنرال فى مصر وظيفة مشابهة

لوظيفة المقيم العام الفرنسى فى تونس ولعل بزمرك كان يبغي أن يعرف من وراء ذلك الاقتراح مدى رغبة الانجليز فى التسلط على الأمور فى مصر ومـدي محاكاتهم للوسائل الفرنسية فى الحكم الامبراطوري ، ووافق وزير الخارجية الانجليزى جرانفل على الفكرة الاولى بابقاء مصر تحت السيادة العثمانية فالفكرة وجدت هوى فى نفسه لانها صادرة من المانيا ولن تستطيع انجلترا القضاء على السيادة العثمانية دون الاستهداف لخطر غضب المانيا وسخط الدول الأخرى ، وكانت تركيا فى ذلك الوقت قد نجحت فى التقرب من المانيا الى حد أن المستشار الالماني قد وافق على ارسال بعثة المانية حربية الى الآستانة لتنظيم الجيش العثماني ، فالقضاء على السيادة العثمانية سيثير لانجلترا فى مصر مشاكل لاعداد لها »

ولكن جرانفل اعترض علي الفكرة الألمانية الثانية بجعل وظيفة ممثل انجلترا في مصر مماثلة لوظيفة المقيم الفرنسى في تونس وقال« بأن انجلترا لن تذهب الى هذا الحد ولن تستطيع تطبيق وسائل فرنسا فى تونس علي مصر وقناة السويس » (١) ولم يبين جرانفل أى نظام ستتبع انجلترا في مصر ! ولكنه ذكر أن انجلترا ستجعل المرور فى قناة السويس حرا لجميع الدول في وقت السلم والحرب وأنها « لن تفرض نظام الحماية على مصر » . ولعل الوزير الانجليزى أراد أن يثبت للالمان حسن نية الحكومة الانجليزية فهي غير مستعدة للامعان فى استعمار مصر فهى لن تعمل على استغلال هذه البلاد لصالحها ولن تعمل علي الاستئثار بالسلطة فيها . ولكن جرانفل أحب أن يتحسس رأى بزمرك فى أمر مصير مصر فقال المستشار الالماني «إنه ترك أيدى الانجليز حرة في وادى النيل » يفعلون فيه ما شاءوا .

ولما أشار جرانفل الى موقف فرنسا العدائى ومناهضتها لسياسة انجلترا مما قد يكون له خطر علي مركز الانجليز ، كان بزمرك يهون من خطر ذلك الموقف،

(١) الوثائق الالمانية مذكرة سياسية لهربرت بزمرك (فى لندن) اكتوبر سنة ١٨٨٢

ويذكر الحكومة الانجليزية بأنه طالما كانت المانيا قوية ومهيبة الجانب ، وطالما كانت صديقة لانجلترا فلن تستطيع الجمهورية الفرنسية التحرش جديا بانجلترا ، ولن تستطيع الذهاب الي حد إعلان الحرب عليها ، فدستورها وحالتها الحربية لا يسمحان لهما بذلك وخاصة وأن المانيا واقفة بالمرصاد ورقيب جبار عتيد على حركاتها .

ولقد أرادت الحكومة الانجليزية أن تتقرب من المانيا في مسألة تقرير حرية المرور فى القناة ، لأن هذا هو كل ما يهم المانيا في نظر انجلترا ، وطلبت كذلك اشتراك المانيا فى ضمان حرية الملاحة فى هذه القناة ، ولكن المستشار الألماني ما كان يريد التورط فى مسألة مصر أو القناة ، فبين لانجلترا أن المانيا كدولة تجارية ترحب بلاشك بحرية المرور فى القناة ، ولكنها غير مستعدة للذهاب الى حد قبول الاشتراك فى ذلك الضمان لأنه ربما اعترضت على هذا المبدأ إحدي الدول البحرية الكبرى ، والمانيا غير مستعدة للدخول فى حرب من أجل مصر أو القناة. (١)

وقدرت انجلترا حق التقدير موقف التأييد العظيم الذي وقفته المانيا في المسألة المصرية أبان أشد أزماتها ، فشكر وزير الخارجية البريطانية الحكومة الالمانية ، وكرر زملاؤه ذلك الشكر أكثر من مرة فلقد أعلن هاركورت Harcourt أحد الوزراء الانجليز « بأنه الى المانيا وحدها يرجع الفصل فى جعل يد انجلترا حرة في مصر ، فلقد كان فى وسع بزمرك أن يقلب العربة بانجلترا ».(٢)

ولقد ظل موقف المانيا فى سنة ١٨٨٣ واحدا لا يتغير ، ولكن الظروف السياسية تغيرت تغيرا تاما واضحا فى سنة ١٨٨٤ . ففى هذه السنة نمت الجمعية الاستعمارية الالمانية وتأسست الصحيفة الاستعمارية .Kolonial Zeitung, .

---

(١) نفس المصدر السابق شتوم Stum قائم بالاعمال فى لندن الى هربرت بزمرك ٣١ أكتوبر سنة ١٨٨٢ ، هربرت بزمرك الي شتوم ٢ نوفمبر سنة ١٨٨٢ .

(٢) نفس المصدر السابق هربرت بزمرك الي بزمرك ١٤ يناير سنة ١٨٨٣.

لم تكن للدولة الألمانية سياسه استعمارية فى السنوات التى سبقت هذه السنة، فلقد كان بزمرك راغبا عن الاستعمار ، ويرى أن الوقت غير مناسب، وأن جهود المانيا السياسية يجب أن توجه الى توطيد دعائم وحدتها السياسية والى بناء مركز متفوق لها فى أوروبا . كان يري أن نشاط المانيا يجب أن يتركز فى اوربا ، وعلي حدودها الغربية بصفة خاصة طالما لم تنس الحكومات الفرنسية الرغبة في الانتقام واسترداد الولايتين المفقودتين الألزاس واللورين ، واطمأن الى مركز المانيا في اوربا بعد توطيد علاقاته مع امبراطورية النمسا والمجر نهائيا فى سنة ١٨٧٩ ، ومع روسيا فى ربيع سنة ١٨٨١، ومع إيطاليا فى ربيع السنة التالية ،فلاخوف إذن علي تفوق الدولة الألمانية فى أوربا.

فظهر حينئذ عامل جديد فى السياسة الألمانية الخارجية ، وخاصة بعد أن نمت الصناعية الألمانية وأخذ الانتاج الكبير يلعب دوره ، وتبع تقدم الصناعة نموالتجارة بسرعة هائلة ، وظهر تجارمن برلين وهمبرج على شواطىء افريقية والمحيط الهادى، وانتشرت البعثات الدينية الألمانية في أرجاء العالم ، وزاد الحماس واشتد التمسك بالقومية الالمانية بعد انتصاراتها الباهرة في سادوا وسيدان . وبعد تفوقها السياسى في مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨ ، فالاعتزاز بالقومية الألمانية كان من العوامل التي دفعت الالمان الى الاستعمار ، وتفوق المانيا من الناحية السياسية في سنة ١٨٨٢ هو الذي جعل بزمرك يعيد النظر فى موقفه ازاء الامبريالزم ، ووجد التجار الالمان من الشجاعة والمصلحة أن يستقروا فى المحطات التي أنشأوها فى جنوب افريقية والمحيط الهادي، وأصبح المستشار يجد ألا غني لألمانيا عن الاستعمار ، وازداد اهتمامه به حتى اعتبره مسألة حيوية بالنسبة لألمانيا ، ولذا كان علي قدم الاستعداد لأن يجعل من مسألة الاستعمار محكا لعلاقاته بالدول الأوربية الكبري لاسيما الاستعمارية منها ، ولذا فهو مستعد لتضحية علاقاته الودية بانجلترا اذا قاومت مشاريعه الاستعمارية، وهذا يفسر لنا موقفه إزاء انجلترا في مصر فى سنة ١٨٨٤ .

لقد خشى الانجليز أن تفكر المانيا تفكيرا جديا فى الاستعمار ، وهالها تقدم التجار الالمان والبعثات الدينية الألمانية ، وأصبحت ترى فى الألمان منافسا خطيرا قويا ، فأخذت وزارة جلادستون التى لا زالت تتولى الحكم في انجلترا في أوائل هذه السنة فى وضع العراقيل أمام المستعمرين الألمان في غربى إفريقية وفى جزائر فيجى وساموا ، وهاجمت الصحافة الانجليزية بعنف السياسة الالمانية الاستعمارية، فثارت لذلك ثائرة الامبرياليين من الألمان ، بل هاج الرأي العام الالماني،وأخذت الصحافة الالمانية تهاجم فى مقالات قوية السياسة الانجليزية والصحافة الانجليزية ، وغضب بزمرك غضبا شديدا ، واتخذ من مسألة مصر ذريعة يتهدد بها انجلترا .

وبعث الى منستر سفيره فى لندن فى ٤ ابريل سنة ١٨٨٤ يطلب منه أن يذكر الانجليز بموقف المانيا نحوهم فى مسألة مصر فى سنة ١٨٨٢ ، وأن يبين لهم كيف لم تحتج المانيا على ضرب الاسطول الانجليزى لمدينة الاسكندرية ، وكيف لم تقف الحكومة الالمانية حجر عثرة فى سبيل احتلالهم لمصر ، وكيف لم تناقش مركز انجلترا الممتاز فى وادي النيل والشرق الأدني الاسلامي ، وكيف لم تثر صعوبات أمام ما اتخذته الحكومة الانجليزية فى مصر من خطط ، وكيف أن الحكومة الانجليزية شكرت الحكومة الألمانية شكرا جما علي موقف التأييدهذا المنقطع النظير .

ولذا فألمانيا لها الحق الآن فى أن تنتظر رد الجميل ، وفى أن تنتظر من الانجليز ألا يقفوا حائلا أمام حقوق الرعايا الألمان فى فيجى ، ولوح بزمرك بالوعيد والتهديد اذا عرقلت انجلترا تحقيق المطامع الألمانية ، فان الحكومة الألمانية ستدرس موقفها من جديد ازاء وزارة جلادستون وخاصة ازاء السياسة الانجليزية فى مصر . (١)

ولقد ذكر بزمرك الانجليز بمركزهم المتزعزع في اوربا ، وبين لهم ألا خوف علي انجلترا في هذه القارة الا من فرنسا ، وفى آسيا الا من روسيا . ولن يكون

(١) الوثائق الالمانية بزمرك الي منستر ٤ ابريل سنة ١٨٨٤ .

عداء فرنسا ذا قيمة أو خطرا على انجلترا الا اذا ضمنت فرنسا حياد المانيا ، وإن الحكومة الالمانية مستعدة من ناحيتها للثبات على سياستها الودية حيال انجلترا في مصر ، كما أنه ليس من الصعب علي المانيا أن تحسن علاقاتها باعداء انجلترا[1] ، وأن انجلترا يجب أن توقن بانها لن تستطيع الاعتماد على صداقة الحكومة الألمانية أو حيادها أو تأييدها فى حالة اعتداء فرنسا أو روسيا الا اذا أرضت المطامع الألمانية كاملة .

ومضى بزمرك يعلن للانجليز بأنهم اذا ناقشوا حق المانيا فى الاستعمار فان من حق للمانيا أن تناقش انجلترا فى حقها فى مصر ، ونعت سياسة انجلترا بأنها سياسة أنانية «naïve egoism» ، وقال اذا استمرت الحكومة الانجليزية سادرة في غلوائها كان ذلك « امتهانا لشعورنا القومى » ، وانتقد تصرفات وزارة جلادستون وعملها علي اثارة المستعمرات الانجليزية في افريقية علي السياسة الألمانية ، وبين أن انجلترا تتمحل الأعذار لكي ترى أن المعارضة لم تأت من جانبها ، ولكن من جانب برلمانات المستعمرات ، وقال ان استقلال المستعمرات فى تدبير شئونها الخارجية مهزلة لا تصدق .

وكانت المسألة فى نظره جد خطيرة ، فلقد كانت الانتخابات القادمة فى المانيا تحتم عليه أن يبين رأى الحكومة صراحة فى الاستعمار اذا كانت تريد تأييد نواب الشعب الألماني لها .

ولما ثارت مسألة مصر من جديد ، وخاصة حين لم تصل المفاوضات الانجليزية الفرنسية بشأن الاصلاح المالى الى نجاح أيدت المانيا بحماس وجهة النظر الفرنسية ، وأكد هربرت بزمرك مبعوث المستشار الألماني في لندن لوزير الخارجية الفرنسية بأن لألمانيا مصالح ماليه مهمة في مصر تصل الى مائة مليون مارك ، وحين أبدى جرانفل دهشته من

(١) الوثائق الالمانية بزمرك الي منستر ٥ مايو سنة ١٨٨٤

هذه الملاحظة وقال ان الحكومة الالمانية قد قررت منذ زمن قريب بأن ليس لها مصالح مهمة فى مصر أجاب المبعوث الألمانى بأن الأوقات قد تغيرت ، وأخذت الصحافة الالمانية تنتقد بشدة سياسة انجلترا فى مصر ، وتدحض ماتدعيه انجلترا من حقوق فى هذه البلاد وفى احتلالها ، وكان بزمرك نفسه يمد الصحافة الألمانيه بالمقالات العنيفة ضد انجلترا .(١)

وكان موقف بزمرك فى مسألة مصر داعيا لأن تعيد الحكومة الانجليزية التفكير فى موقفها ازاء الاستعمار الالماني ، وكما يظهر لم يكن كل اعضاء الوزارة الانجليزية يشاركون جرانفل رأيه في عرقلة المشاريع الألمانية . ومن بين هؤلاء شخصية فذة سيكون لها أثر عظيم فى توجيه الاستعمار الانجليزي وجهته المعاصرة . وهي شخصية جوزف تشمبرلن Joseph Chamberlain. نبغ تشمبرلن فى وزارة الأحرار وأصبح له فيها نفوذ كبير بالرغم من أن الوزارة التي كان يتولى شئونها ، وهى وزارة التجارة، لم تكن وزارة كبيرة، لم يكن تشمبرلن فى ذلك الوقت بكبير الحب لفرنسا ، وكان من القائلين بشراء الصداقة الالمانية ، وكان يعضده فى ذلك الرأي لورد هارتنجتن Hartington وسير تشارلز ديلك والبرنس أوف ويلز ولى عهد انجلترا .

على أنه فى هذه الاثناء مات لورد أمتهل Ampthill (لورد أودو رسل) وكان سفيرا لانجلترا فى برلين مدة سنوات عديدة عمل فيها علي توثيق الصلات بين المانيا وانجلترا ، فكان لموته أثر سيء على العلاقات الانجليزية الالمانية فلقد، عرضت الحكومة الانجليزية تعيين سير روبرت موريز Sir Robert Morier خلفا له فرفض بزمرك لأنه لم ترقه شخصية هذا الرجل ولا آراؤه السياسية ، فأسرعت الى تعيين سير ادوارد مالت Sir Edward Malet قنصلها الجنرال السابق فى مصر

(١) نفس المصدر هربرت بزمرك الى بزمرك ١٦ يونيو ١٨٨٤

سفيرا لها فى برلين وهو رجل برز في الناحية الدبلوماسية . وفي هذه الاثناء أيضا كان بزمرك قد هدد انجلترا بانه اذا استمرت الحكومة الانجليزية فى موقفها العدائى بأزاء المشاريع الالمانية الاستعمارية فسيقطع نهائيا الصلات الطيبة معها ، وسيعمل علي التقريب ما بين وجهات النظر الالمانية والفرنسية ، وعمل فعلا علي اثارة صعوبات لا يستهان بها أمام انجلترا في مصر وخاصة في صندوق الدين (١) بل وذكر حكومة جلادستون بلهجة حاسمة بضرورة احترام المعاهدات التي عقدتها مصر قبل الاحتلال مع الدول الأوربية وكانت انجلترا قد فكرت فعلا في تغيير بعضها . (٢)

فلاعجب إذن إذا رأت وزارة جلادستون أن تطأطيء الرأس أمام المانيا ، وكان جرانفل وزير الخارجية الانجليزية في نظر الالمان قد كبر سنه وفقد ذاكرته واضمحلت أعصابه ، وكان هو ووزير المستعمرات لورد داربي مصدر قلق كبير لألمانيا « فلورد داربي شخصية لايمكن الاعتماد عليها كثير الشك يرى مصيدة فى كل شيء » (٣)

تراجعت الحكومة البريطانية حين وجدت أن الأمور تحرجت عليها فى مصر نتيجة لموقف المانيا ، وظهر ذلك التراجع فى التصريحات التى أدلى بها سير تشارلز ديلك لهربرت بزمرك المبعوث الألماني في لندن ، فلقد حمل ديلك بعنف على سياسة جرانفل نحو المانيا ، ونعى عليه اضطرابه في سياسته واعوجاجه وقصر نظره فى المسائل الاستعمارية ، وأن من حق الحكومة الالمانية أن تحتج على سلوكه الغبي . وأن الخطأ بلا ريب هو خطأ انجلترا . فقرر هربرت بزمرك أن الصحف الانجليزية أيا كان نوعها الحزبي قد هاجمت المانيا، وحاولت إفساد العلاقات الألمانية الفرنسية،

(١) الوثائق الالمانية الي هربرت بزمرك ٩ يوليو سنة ١٨٨٤
(٢) نفس المصدر مذكرة وليم بزمرك السياسية بتاريخ ٢٣ أغسطس سنة ١٨٨٤
(٣) نفس المصدر هربرت بزمرك الى بزمرك ١ أكتوبر سنة ١٨٨٤

وأن انجلترا يجب أن تعرف أن المنازعات بين المانيا وفرنسا ليست قيدا في أرجل المانيا تستغله الدول الأخري ، وأن لورد جرانقل «قد قدر صداقة المانيا لانجلترا كصداقة الدنمارك أو اليونان» ، وأنه لعله الآن يعرف من التجارب مدي قوة المانيا وقوة صداقتها حين تعقدت أمور مصر .

حينئذ كرر ديلك اعتذاره وقال إن سياسته كانت ولا تزال دائما التعاون التام مع المانيا «فأنكم لن تذهبوا إلى حد إعلان الحرب علينا من أجل مصر، ولكن فرنسا قد تفعل ذلك... وما يجب علينا أن ننظر اليه دائما هو موقف فرنسا نحو الأعمال التي نجد أنفسنا مضطرين إلى انجازها فى مصر...»(١)

كان بزمرك لايرى فى مسألة مصر أمراً حيوياً بالنسبة لألمانيا وأن المسألة الاستعمارية مسألة حيوية بالنسبة لها، لأرضاء المستعمرين الألمان من ناحية ولاستصلاح الرأي العام الألمانى من ناحية أخري، ولاتصال مسألة الاستعمار بموقف الحكومة الداخلي، وكان يعلم أن الموقف الذى وقفه في مسألة مصر كان نتيجة طبيعية لوقوف انجلترا أمام أمانى المانيا الاستعمارية ، فكما يقول «إن أقل ركن في غنيا الجديدة او أفريقيه الغربية حتي ولو لم تكن له قيمة فى ذاته هو أهم في نظرنا وفى سياستنا من كل مصر ومستقبلها»(٢) فالرأى العام الألماني لا يهتم بأمور مصر ، والمستعمرون الألمان قد وجهوا عنايتهم الى مناطق بكر جديدة ولم تكن مصر واحدة منها ، فمصر فى نظرهم مثقلة بالديون قد وقفت مواردها على خدمة أصحاب الديون من الفرنسيين والانجليز.

ولقد اتهم المستشار الألماني انجلترا بالعمل على إيقاع التشاحن بينه وبين فرنسا وروسيا ، فانجلترا كما يقول تعمل علي إثارة الأمور في أوربا ضد المانيا حتي تستطيع أن تنفذ بنجاح تام سياستها الاستعمارية في مصر وفى أفريقيه والشرق . ولذا حين

(١) نفس المصدر مذكرة هربرت بزمرك ٥ أكتوبر سنة ١٨٨٤

(٢) الوثائق الالمانية بزمرك الي منستر ٢٥ يناير سنة ١٨٨٥

خطب جرانفل فى البرلمان الانجليزى فى ٢٧ فبراير سنة ١٨٨٥ وأراد أن يورط المانيا أمام الرأي العام الانجليزي بأن قرر أن المانيا تعطف دائما على مركز انجلترا فى مصر وتؤيدها فى سياستها تاييدا تاما، صحح بزمرك موقف المانيا، وأكد أن تصريحات جرانفل غير دقيقة وغير صحيحة ولا تطابق ما حدث فعلا و «أن بزمرك يعمل علي المحافظة على حقوق السلطان في مصر» و «أن انجلترا تستطيع أن تبسط نفوذها فى مصر بمفاوضات ودية مع السلطان وبتعاون السلطان ، وأن المانيا ليست لها مصالح مباشرة فى مصر تجعلها تثير العقبات فى وجه انجلترا»(١)

لقد كان جو المحادثات بين انجلترا والمانيا عاصفا ، وكان جرانفل كثيرا ما تثور ثائرته ويغضب ، ولكن موقف المانيا بالنسبة لمصر أرغمه على التراجع والتسليم بمطالب الألمان جميعها ، وجاء جلادستون نفسه الى هربرت بزمرك يعلن له أنه يشجع المانيا في سياستها الاستعمارية وأنه مبتهج لآمالها الحضارية . ولعل السبب المهم الذي جعل الانجليز يتراجعون هو احتمال تعاون المانيا وفرنسا البحرى ، فبحرية المانيا وفرنسا مجتمعتين متفوقة في ذلك الوقت علي البحرية الانجليزية ، ولما كان التقارب قويا بين بزمرك وفري Ferry رئيس الحكومة الفرنسية ، فبزمرك يؤيد مطالب الفرنسيين الاستعمارية وموقفهم فى المسألة المالية المصرية ، وفرى يؤيد المانيا، استطاع التحالف الجديد تحقيق أغراض الطرفين فى مؤتمر برلين . علي أن بزمرك لم يشأ أن يتحدى انجلترا أكثر من هذا ، فهو لا يثق تماما بفرنسا ، وانجلترا من ناحيتها في أشد الحاجة الى صداقة بزمرك ، فالحالة في السودان كانت سيئة للغاية ومنذرة بشر مستطير ، ففى أول سنة ١٨٨٥ سقطت الخرطوم فى يد المهديين وقتل جوردون وضاع ما كان لانجلترا من مركز ومهابة فى الشرق بأكمله واقتحمت الجيوش الروسية حدود الأفغان وهددت الهند ، وتجمعت المتاعب والأزمات على

---

(٢) الوثائق الانجليزية المنشورة فى الكتاب الازرق Blue Book لسنة ١٨٨ فبراير ١٨٨٣ ، صحيفة Nord Deutsche Allgemeine Zeiting ٢ مارس سنة ١٨٨٥

انجلترا فى أفريقيه وآسيا بشكل عديم النظير .

صفا الجو أخيرا بين المانيا وانجلترا بتراجع وزارة الأحرار ، وزاد الجو صفاء سقوط هذه الوزارة ، فلم تعد المانيا تحرك مسألة مصر من جديد إذ كانت سياسة المحافظين التقليدية هى المحافظة علي صداقة المانيا . فعاد الى تأييد سياسة انجلترا فى وادى النيل ، ويظهر هذا حين وجدت الحكومة الانجليز نفسها مضطرة الى المانيا لتعرف رأيها فى أمر مصير مصر . ففى سنة ١٨٨٦ أثار لورد راندولف تشرشل Rundolph Churchill مسألة مصير مصر أمام السفير الألمانى فى لندن ، وأبدى قلقه من أن إحدى الدول الكبرى عازمة على إثارة موضوع جلاء الانجليز عن وادي النيل مرة أخرى ، وطلب معرفة رأى المانيا إزاء هذه الحالة الجديدة المملوءة بالنذر . فرد هاتسفلت السفير الألمانى فى لندن بأن المسألة لن تثور فى الوقت الحاضر نظرا للعلاقات الطيبة بين المانيا وانجلترا ، وعقب بزمرك فى برلين بأن المانيا لن تشترك مع أى دولة أخرى فى أى مطلب يتعلق بموقف الانجليز فى مصر ، أما إذا لم تتعاون انجلترا مع المانيا في المسائل الاستعمارية فالموقف لا بد متغير(١). وقد بالغ تشرشل في شكر الألمان ، وبين أن التأييد الألمانى سيجعل الحكومة الانجليزية مطمئنة إلى وضع مشاريعها الخاصة باصلاح المالية المصرية فلن تخشى الآن شيئا من فرنسا(٢).

وكان شك بزمرك المريب في سياسة فرنسا الخارجية هو الذى حمله على أن يمضى فى سياسته القائمة على صداقة انجلترا وتأييد سياستها فى مصر ، فهو يصرح لحكومة سولسبري « نحن لا نستطيع أن نعتمد على الفرنسيين كحلفاء لنا حتى في وقت الدفاع ، فالعداء بيننا وبينهم قديم وسيظل باقياء وليس أمامنا سوى الانضمام

(١) الوثائق الالمانية هاتسفلت الي بزمرك ٢٠ سبتمبر سنة ١٨٨٦
وبرقية بزمرك الى هاتسفلت ٢٤ سبتمبر ١٨٨٦
(٢) نفس المصدر هاتسفلت الي بزمرك ٢٤ سبتمبر سنة ١٨٨٦

الى جانب انجلترا»(١).

زال بزمرك من مسرح السياسة الأوربية فى سنة ١٨٩٠ ، ولم تختلف سياسة القيصر الألمانى فلهلم الثانى Wilhelm II أو المستشار الجديد كابريفى Caprivi عن سياسة بزمرك فيما يختص بمصر وإن اختلفت دوافعهما الى حد ما عن دوافعه ، وكان الباعث لهما على انتهاج خطة بزمرك هو التقارب الجديد بين فرنسا وروسيا الذى تم بعقد التحالف بين الدولتين ، فكان من الطبيعي إذن أن تتجه المانيا صوب انجلترا وأن تهتم بالمحافظة على صداقتها وتأييدها ، فأوربا قد انقسمت الى معسكرين المعسكر الألمانى والمعسكر الفرنسى الروسي ، فكان هدف المانيا الطبيعى هو ضم انجلترا الى المعسكر الألمانى . ووجدت المانيا في التحالف الثلاثي بينها وبين النمسا وإيطاليا خير وسيلة لأرضاء الحكومة الانجليزية سواء أكانت حكومة سولسبرى أو جلادستون . فكما يكتب وزير الخارجية الألمانية مارشال Marshall الى سفيره فى لندن هاتسفلت فى سنة ١٨٩٣ « إننا سنستمر فى تأييد انجلترا طالما كانت لها سياسة مستقرة فى مصر والشرق الأدنى .... ومن اللحظة التى نعتقد فيها أن انجلترا غير قائمة بذلك أو نالها الوهن أمام روسيا وفرنسا يجب أن نبحث عن وسائل أخرى لوقف أى اعتداء من جانب التحالف الفرنسى الروسي » (٢) فالمانيا إذن مستعدة للاخذ بناصر انجلترا طالما وقفت انجلترا حاجزا قويا أمام مطامع فرنسا وروسيا.

فلا غرابة إذن اذا ناصرت الحكومة الالمانية وزارة سولسبرى نصرا مؤزرا، واذا أيدت وزارة روزبرى من بعده تأييدا قويا ، فكلاهما الى حد كبير كان ميالا الى الانضمام الى التحالف الثلاثى معضدا لسياسته. وهذا يفسر لنا تأييد المانيا لانجلترا

(١) الوثائق الالمانية رقم ٧٠٢ وما بعدها عن
Langer: European Alliances and Alignments.

(٢) الوثائق الالمانية ٩ يوليو ١٨٩٣

فى مشاريعها المتعلقة بالدين والقضاء ومحاولاتها إصلاح الحالة في مصر ، كما يفسر لنا جهود المانيا فى تهدئة روع الباب العالى من ناحية مركز الانجليز في مصر والتقريب ما بين وجهتي النظر العثمانية والانجليزية فيما يختص بمصر ، ومحاربة جهود فرنسا المستمرة فى إثارة الباب العالى للاحتجاج ضد انجلترا أو عرض مسألة مصر من جديد علي الدول الكبري .

ولما جاءت وزارة روزبري الذى تعين فيها لورد كمبرلى Lord Kimberley وزيرا للخارجية ظلت المانيا على موقفها لاتثير صعوبات أمام انجلترا طالما لم تمس المصالح الالمانية بضرر ، وطالما كان لورد كمبرلى مخلصا فى تنفيذ آراء رئيسه روزبري ، ولذا لما اعوج كمبرلى قليلا عن السنن الذى اختطه رئيسه ، وهدد بالعمل علي التقرب من فرنسا ، وذلك حين أبدت القنصلية الالمانية بعض المعارضة للسياسة الانجليزية فى مصر في سنة ١٨٩٤ ، بينت الحكومة الالمانية لوزير الخارجية البريطانية بأنه مخطئ في اتباع مثل هذه السياسة فانه سينجم عنها لانجلترا متاعب لا قبل لها بها ، وأنها (أي الحكومة الالمانية) تعلم أن السفير الفرنسي قد هدد انجلترا بالتقرب من المانيا نهائيا والتفاهم على مسألة الالزاس واللورين ، وأنها (أي الحكومة الالمانية) تستطيع تهديد انجلترا وإثارة مشاكل معقدة لها في مصر بتأييد سياسة فرنسا ، وتستطيع بعد ذلك التفاهم مع الفرنسيين فيما يختص بحدود الرين ، فما كان أمام وزير الخارجية الانجليزية إلا الاسراع فى التراجع ، ولذا فهو يضطر الى تغيير موقفه وتحسين لهجته مع الحكومة الالمانية بل وشكرها علي موقفها العام إزاء انجلترا فى مصر (١) . نتيجة لذلك أصدرت الحكومة الالمانية الى قنصلها العام فى مصر بارون فون هايكنج von Heyking بتعليمات توجه فيها نظره بالا يعارض سياسة انجلترا وألا ينضم الى اعدائها فى المستقبل الا اذا جاءته أوامر من حكومته تفيد ذلك.

(١) الوثائق الالمانية مارشال الي هاتسفلت ٢ مايو سنة ١٨٩٤

وكان يهم المانيا فى ذلك الوقت بقاء مسألة مصر معلقة ومعقدة وموضع تنازع شديد بين انجلترا وفرنسا حتي ترى الحكومات الانجليزية ضرورة المحافظة دائما على صداقة المانيا ، كما كان يهم المانيا ألا تؤيد سياسة انجلترا علي طول الخط حتي لا تعتبر انجلترا ذلك واجبا يجب أن تؤديه المانيا باستمرار نحوها ، ولكن ينبغى أن تكون سياسة المانيا نحو مصر — كما يرى الساسة الالمان من القيصر الى المستشار كابريفى الى وزير الخارجية مارشال — يجب أن تكون سياسة المانيا بصفة عامة غامضة مبهمة لا تعرف انجلترا حدودها ولا منتهاها ولا مقاصدها ، وأن تقوم بتأييد السياسة الانجليزية فى المناسبات المختلفة على حسب ما تملي المصالح الالمانية ومصالح دول التحالف الثلاثي (١) وأن تتخذ المانيا من مسألة مصر وسيلة لتسوية حسابها مع انجلترا في المسائل الاوربية والمسائل الاخري التي تهمها .

ولذا لم يتورع القيصر الالمانى عن تهديد انجلترا بمعارضة سياستها فى مسألة مصر اذا لم تحل مسألة الكنغو حلا مرضيا لالمانيا ، وتم للقيصر ما أراد . « فمصر ، كما يقول بارون فون روتنهام في وزارة الخارجية الالمانية ، كبلغاريا بالنسبة لنا ، ليست غاية سياسية فى حد ذاتها ، ولكنها وسيلة لتنظيم علاقات المانيا مع الدول الاوربيه (وخاصة انجلترا) بطريق تتفق والمصالح الالمانية» . ولذا لا يهم ألمانيا القيصرية فى ذلك الوقت أن يشتجر الخديو عباس الثانى في نزاع مستعر مع لورد كرومر ، ولا يهمها من يكون المنتصر منهما ، ولا يهمها اذا كان الرأى العام المصري قد نما شعوره بالقومية ، ولا تكترث لأماني المصريين فى الاستقلال اذا تعارض هذا مع المصالح الالمانية ، وانما يهم المانيا قبل كل شيء أن تكون صديقة لانجلترا ، وأن تقوم مشاكل معقدة في مصر لا تستطيع انجلترا حلها وحدها فتضطر الى طلب المعونة من المانيا والانصراف عن الوفاق الثنائى الفرنسى الروسى. (٢)

(١) نفس المصدر روتنهام Rothenham . وزارة الخارجية الالمانيــة الى بارون فــون هايكنج ٥ يوليو سنة ١٨٩٤ .

(٢) الوثائق الالمانية — بارون فون روتنهام الي بارون فون هايكنج.

وحين قررت الحكومتان المصرية والانجليزية استرجاع السودان والقضاء نهائيا علي ثورة المهديين الدراويش انتهز القيصر الالمانى هذه الفرصة لتأييد انجلترا تأييدا تاما ضد فرنسا . هددت فرنسا وثار الرأي العام الفرنسي وانذرت الحكومة الفرنسية بالحرب ، ولكن التأييد الألمانى قوى من مركز انجلترا بدرجة جعلتها تتحدى فرنسا وتقوم بتنفيذ اغراضها وارسال الحملة آمنة مطمئنة . ووافق القيصر الألمانى أولا على أن تقوم المالية المصرية بنفقات الحملة الى دنقلة الا أنه رفض رفضا تاما مشروع سولسبري الذي يرمى الى تقسيم الدولة العثمانية وانفراد الانجليز بمصر ، فالقيصر صديق الدولة العثمانية فى ذلك الوقت ولا يبغى انحلالها ، وأيد القيصر وزارة سولسبرى في مسألة استرجاع السودان لأنه كان يعمل علي ازالة الاثر السيء الذى أحدثته برقية كروجر في انجلترا ، هذه البرقية التى أثارت الحكومة الانجليزية والرأى العام الانجليزى ضد المانيا . ولأنه كان يخشى أنه اذا لم تؤيد الحكومة الالمانية انجلترا في مسألة السودان ربما دعا ذلك الموقف انجلترا الى التفكير فى تغيير سياستها نحو المانيا، وتعضيد الفريق القائل بضرورة إصلاح العلاقات الانجليزية الفرنسية والانضمام الى الوفاق الثنائى الفرنسي الروسى، لا سيما وأنه أى القيصر يعلم جد العلم أن لورد سولسبرى ولو أنه ميال الى مجاملة المانيا والى تأييد سياستها الأوربية والاستعمارية الا أنه غير ميال الى تجديد اتفاقية البحر الابيض مع إيطاليا صديقة المانيا، الاتفاقية التى عقدت في سنة ١٨٨٧ ، هذه الاتفاقية التي كانت ضمانا كبيرا لنفوذ دول التحالف الثلاثي فى البحر الابيض المتوسط ، كما أن القيصر يعلم أن سولسبرى يود لو استطاع تحسين علاقاته بفرنسا والاتفاق علي تسوية المسائل المختلف عليها بينهما .

وكان تأييد المانيا لانجلترا فى نظر القيصر ضروريا جدا من ناحية أخرى ، وذلك لخدمة أصدقائه الايطاليين الذين انهزموا هزيمة منكرة أمام الاحباش في موقعة عدوه

فلقد كان القيصر دائم الاتصال بانجلترا يحاول اقناعها بضرورة اغاثة الايطاليين حلفائه ، ولذا حاولت وزارة سولسبري تبرير الحملة الي السودان أمام دول التحالف الثلاثي، المانيا والنمسا وايطاليا، برغبة انجلترا في نصرة الايطاليين المدحورين قبل أن يؤخذوا أخذا وبيلا .

وبالرغم من الاتفاق الودي الذي تم بين انجلترا وفرنسا في سنة ١٩٠٤ بشأن مصر ومراكش ، ذلك الاتفاق الذى أطلق يد الانجليز حرة في مصر ، واعترفت فيه فرنسا بالاحتلال الانجليزى ، ولم تعد انجلترا في كبير حاجة الى تأييد المانيا السياسى — بالرغم من ذلك فقد ظلت العلاقات الانجليزية الالمانية بالنسبة لمصر بصفة عامة جيدة ، فلم تعمل المانيا من جانبها علي احراج مركز الانجليز في مصر ، وذلك خشية زيادة توثق العلاقات الفرنسيه الانجليزية ، فلقد كانت السياسه الالمانيه الخارجيه ترمى الى الفصل بين الدولتين بكل الطرق الممكنه . كذلك لم تبد المانيا حماسا كبيرا لمشاريع الانجليز ، ومن ناحيه ثالثه كان اهتمام المانيا فى ذلك الوقت منصرفا عن مسألة مصر موجها الى السياسه العالميه Weltpolitik الى المسائل التى تهم المانيا مباشرة مسائل آسيا الصغري والعراق حيث كانت المانيا تعمل علي مد نفوذها الى الخليج الفارسى ، مسائل الشرق الاقصى وخاصه بعد الحرب الروسيه اليابانيه ، هذه الحرب التي اندحرت فيها روسيا والتي أخذت بعدها اليابان تتزعم شرقى آسيا ، ثم هناك مسائل البلقان التى أخذت تنذر باصطدام خطير بين دوله الناشئه ، وبتنازع بين حليفه المانيا النمسا وبين روسيا

وظل موقف المانيا واحدا لايتغير حتى قامت الحرب الاوربية الاولى وأعانت انجلترا زوال سيادة تركيا وبسطت حمايتها على مصر فكان من الطبيعى ألا تعترف المانيا بذلك التغيير فى مركز مصر ولا في مركز الانجليز في مصر ، ذلك التغيير الذي لا يبرره عرف دولي ولا قانون سياسي أخلاقى ، ظلت المانيا على رأيها في أن

مصر جـزء من الدولة العثمانية وأيدت الأتراك في محاولاتهم اليائسة غزو مصر من الشرق وطرد الانجليز منها . إلا أن انهزام الألمان في الحرب واضطرارهم إلى قبول معاهدة فرساى أرغمهم على الاعتراف بالحماية الانجليزية على مصر ، ولمـا أعلنت انجلترا انتهاء الحماية وتصريح ٢٨ فبراير سنه ١٩٢٢ كانت المانيـا من الدول التى اعترفت بالمركز الجديد لمصر كدولة مستقلة وتبادلت التمثيل السياسى معها .

محمـد مصطفى صفوت
الاستاذ المساعد للتاريخ الحاضر

المراجـع

لا توجد فى ذلك الموضوع بالذات فى ثنايا الدراسات التاريخيه للمسألة المصرية فى الربع الاخير للقرن التاسع عشر الا اشارات لا تغني كثيرا .

هذا البحث قائم علي دراسه مركزه للوثائق السياسيه التي أصدرتها الحكومه الالمانيه عقب الحرب الكبري الاولى والمسماة
Grosse Politik der Europaïschen Kabinette
وهى تمتد خلال المدة من سنة ١٨٧٠ الي سنه ١٩١٤ . وعلي هذه الوثائق يعتمـد البحث الي حد كبير وأشرت اليها خلاله «بالوثائق الالمانيه» فحسب .

وتكمل هذه الوثائق مجموعه الوثائق السياسيه التى نشرتها الحكومه الفرنسيه بعدالحرب الكبرى الاولي والمسماة : Documents Diplomatiques Français وهى تشمل نفس المدة التي تشملها الوثائق الالمانيه

ويلي هاتين المجموعتين فى الاهميه الوثائق التى نشرتها الحكومه الانجليزية في الكتب الزرق Blue Books فى خلال المدة ما بين حرب السبعين سنه ١٨٧٠، وسنة ١٩١٤، هذه الكتب الخاصه بالمسائل المصرية . وهى لا تشتمل علي عدد كبير من الوثائق الخاصه بموقف المانيا ازاء الاحتلال. اهم هذه الكتاب الازرق الكتاب لسنه ١٨٨٢ ، ثم هناك وثائق نشرتها وزارة الخارجيه الفرنسيه فى الكتب الصفر Livres Jaunes وخاصه الكتاب الاصفر للسنين مابين ١٨٨٣ — ١٨٩٣ فهو يبين موقف فرنسا ازاء المسألة المصرية وتشير بعض وثائقه الى موقف المانيا

ولا ريب في أن وثائق وزارة الخارجيه الانجليزية في لندن تلى في الاهميه الوثائق الالمانيه فيما يختص بهذا الموضوع لاسيما الوثائق الخاصه بتركيا F. O. 78 وفرنسا F. O. 27 وللمانيا F. O. 64 ، ولقد أطلعت علي كثير من هذه

الوثائق أثناء وجودى فى انجلترا . ولعل أهم هذه الوثائق الرسائل التي أرسل بها السفير الانجليزي فى برلين Lord Odo Russell الى حكومته ، ولقد أشار الي بعض هذه الرسائل ونشر بعضها Winifred Tuffs في رسالته للدكتوراه من جامعه لندن An Ambassador to Bismarck: Lord Odo Russell. Muller, London, 1938. ولقد فصل مؤلف هذا البحث بعض اجزاء ذلك الموضوع في كتاب يعده للطبع عنوانه موقف الدول العظمى ازاء الاحتلال الانجليزى لمصر .

وهناك بعض الكتب التى كتبت عن حياة سياسي ذلك العصر أهمها فيما يختص بهذا البحث

Bismarck: Some Secret Pages of his History. A diary by Dr. Moritz Busch. 3 vols. (Translation, Macmillan London 1898.

Bismarck: The Man and Statesman. Reflections and Reminiscenes of Otto Prince von Bismarck. Trans by A.J. Butler 2 vols. Smith. London, 1898.

Disraeli, Life of, by Buckle Murray. London 1929.

Gladstone, Life of, by J. Morley. 2 vols.

Granville, Life of, by Edmond Fitz maurice (4th impression) Longmans, London 1905.

ومن الكتب والدراسات التي لها قيمه في هذا البحث والتي درست العلاقات الدوليه بالنسبه لمسائل البحر الابيض المتوسط

Knaplund, P.: Gladstone and Britain's Imperial Policy, Allen and Uniwin London 1927.

Langer, W.: Alliances and Alignments. New York 1931.

Mitchell P B.: The Bismarckian Policy of Conciliation with France. University of Pennsylvania Press, Philadelphia 1935.

Penson L.: The Principles and Methods of Lord Sabsbury's Foreign Policy, Cambridge Historical Journal 1935.

Penson and Temperley: A Century of Diplomatic Blue Books, Cambridge University Press, Cambridge, 1938.

Safwat M M.: Tunis and the Great Powers. Baganis Alexandria 1943.

Schuman F L.: International Politics. 2nd Edition Mc Graw Hill, New York 1937.

Seton-Watson R.W.: Disraeli and Gladstone and The Eastern Question Macmillan. London. 1935.

Sumner, B.H.: Russia and The Balkans. Clarendon Oxford. 1937.

محمد مصطفى صفوت

الاسكندرية فى عصر البطالمة

بعض مظاهر الحضارة بها (١)

تأليف زكى على

انفردت الاسكندرية في القرن الثالث قبل الميلاد بنظمها الخاصة وساعدها على ذلك ظروف تأسيسها على أن تكون مدينة هيلينيــة حقة متمتعة بجميع الخصائص والمميزات التي تتوفر في المدينة (polis) أينما تنشأ، وكان اتخاذها عاصمة للبلاد المصرية وهى نائية واقعة على تخوم هذه البلاد وليست في صميمها وقلبها حتى حدا ذلك بالرومان فأسموها بالاسكندرية الواقعة على تخـوم مصر (Alexandria ad Aegyptum) — مدعاة لكثير من التناقض في نظمهـا ومظاهر الحضارة فيها وسببا فى كثير من التعقيد فى تسيير دفة الأمور بها وتعطيل هيئاتها التي أصبحت ، فى ظل سلطان ملوك البطالمة الذين كانوا يقيمون بين ظهراني السكندريين ، غير قادرة على أن تعصي لهم أمرا .

القوانين المرعبه بالاسكندرية

وكان للاسكندرية محاكمها الخاصــة وقوانينها التى تطبق على السكندريين وحـدهم ، والتى عرفت في مجموعهـا بقانون المدينة (Politikos nomos) ، وكانت هذه القوانين معترفا بها حتي فى المحاكم القضائية العادية التابعة للملك من خريماتستاى (Chrematistae) وهى التى تنظر فى قضـايا اليونانيين ، أو كوينوديكيون

(١) تناولت في مقالى السابق الظروف التي احاطت بتأسيس الاسكندرية والعـوامل التى حدت بالاسكندر فجملته يختار هذا الموقع بالذات وعرجت على طبوغرافية المدينة ووصف بعض معالمها فى ضوء ما جاء في سترابون وها انذا اتناول نواحي اخرى .

(Koinodikīon) وهى المحاكم المختلطة التى كانت تنظر فى القضايا بين اليونانيين وغيرهم من الأجانب ، او محاكم وطنية ـ لاوكريتاي (Laocritae) · وهى التى كانت تنظر فى قضايا الوطنيين من المصريين ، وكان الأساس في قانون مدينة الاسكندرية لحد كبير مستمداً من القانون الأثيني ، وهو السائد فى أتيكا ببلاد اليونان مضافا اليه بعض تغييرات وتعديلات مشتقة فى بعض الأحيان من غير نظم أتيكا وفي بعض اخرى روعى فيها ظروف مدينة الاسكندرية الخاصة، وكانت تلك القوانين تكمل من وقت لآخر بما يصدره الأحرار فى المدينة من قرارات فى مجالسهم وتسمى هـذه القرارات (psephismata) ، على ان السكان المقيمين فى نطاق هذه المدينة الحرة كانوا يخضعون مع ذلك لما يصدره الملك من قرارات وأوامر.

وانه لمن حسن الحظ ان حفظت لنا الأيام بعض هذه القوانين التى توفرت على نشرها احدى الجامعات (١) واصبحت تعـرف بـبرديه هـالنسـيس (Papyrus Halensis). وتحتوى هذه الوثيقة الهامة على مجموعة من المقتطفات من هذه القوانين المدنية واللوائح التى كانت تطبق على أحرار المدينة ومن يلوذ بهم من اتباع وعبيد ، ولـكن لا يوجد أى دليل قاطع فى أمر الجهة التي أصدرت هذه القوانين ، وهل هي من عمل مجلس الأحرار في المدينة أم انها جاءت نتيجة فرض الملك لارادته على هذا المجلس. ونظرا إلى أنها تلقى ضوءا على حياة السكان فى مدينة الاسكندرية وتنظم العلاقات بينهم فتأخذ البعض بالشدة بينما تترفق مع البعض الآخر ، فانا نؤثر ان نقتبس منها بعض أحكامها على الوجه الآتي :

---

(١) جامعة هالى (Halle) بالمانيا التى نشرت هذه الوثائق القـانونيـة عام ١٩١٣ تحت عنوان (Dikaiomata) ومعناها القوانين والالتزامات

الحقوق القانونيه لبعض طبقات السكان فى الاسكندرية (١)

«لا يجوز لأحد ان يقيم الدعوي علي أحد آخر ممن أنفذهم الملك فى خدمته ، لا علي اشخاصهم ولا علي ضامنيهم ، كما لا يحق لمن يوكل اليه أمر التنفيذ ولا لأحد من أعوانه أن يلقي القبض على هؤلاء .

«وكذلك الحال إذا أقام بعض النـاس الدعوي ضد ذرية هؤلاء الغـائبين وآلهم أو ضد ضامنيهم فيما يتعلق بأمور كانت موضوع شكوي وقعت عندما كان أولئك الذين رحلوا عن ديارهم لا يزالون مقيمين بين ظهرانيهم ، فلايجوز [حينئذ] ان ترفع هذه الدعاوي أمام ساحة القضاء ما لم يكن قد حدث ان هؤلاء بوصف كونهم من الآل والأتباع قد حصلوا لأنفسهم علي حقوق [مكتسبة] بالتقاضى مع آخرين بشأن أمور كانت موضوع النزاع في الوقت المذكور . فاذا كانت الدعوى ضد أمثال هؤلاء فلتقدم للقضاء .

«وإذا ادّعى البعض انتماءهم لطبقة الآل والاتباع فعلي القضاة الفصل فى هذا الموضوع ، فاذا تبين أنهم ينتمون لهذه الطبقة وإذا ثبت أن الامور موضوع النزاع قد وقعت وقتما كان أولئك الذين رحلوا عنهم لا يزالون يقيمون بين ظهرانيهم ولم يكونوا قد حصلوا بعدُ علي الاقتصاص منهم بالقانون كما هو مذكور أعلاه ، فليكن مصير هذه الدعاوي إلى التأجيل حتى يعود أولئك الذين فارقـوهم . أما رسـوم الدعوي وقدرها العشر أو جزء من خمسة عشر فيستردها دافعوها(٢) .

---

(١) من برديه هالنسيس I ، ١٣٤ — ١٦٥ ترجمة النص المنشور فى «البردي المختار» (Select Papyri) لـكل من هنت وادجار (Hunt & Edgar)

(٢) هذه الرسوم هي نسبة مئوية مقررة بحسب المبلغ موضوع النزاع وتدفع تأمينا من قِبل طرفي النزاع قبل اجراء المحاكمة لتغطية النفقات اللازمة للمحكمة ، على أن يسترد المحـكـوم لصالحه مبلغه من المحـكوم عليه

«وكل الدعاوي التى يرفعها آخرون ضد الاتباع بعد رحيل اصحاب الولاية عليهم وتركهم من بعدهم أو الدعاوى التى يرفعها الاتباع ضد آخرين ، مدعين عليهم بأنهم قد الحقوا بهم اضرارا بعد ترك أوليائهم لهم — كل هذه الدعاوى يكون مصيرها النظر أمام محكمة الاختصاص للفصل فيها ، واذا حدث ان كان الملك قد انفذ بعض الاشخاص فى مهمة بعد اقامتهم الدعوى ولم تكن المحكمة قد نظرتها بعد فان لهم حق الاختيار فى استرداد رسوم التأمين من العشر أو الجزء من الخمسة عشر ، على أن تؤجل قضاياهم حتى يعودوا، على الا يُقَدِّموا الي المحكمة قبل أن يودع من جديد اولئك الذين رفعوا الدعوي رسوم العشر او الجزء من الخمسة عشر التى كانوا قد استردوها من قبل .

«فاذا كان اصحاب الدعوي ممن يقيمون في الريف[1] (Chora) ثم اتقذهم الملك فى مهمة قبل أن تقدم هذه الدعاوي الى المحكمة فانها تؤجل بنفس الطريقة الى أن يعودا ، وكل اولئك الذين منحوا رعوية مدينة الاسكندرية وكانوا قد انضووا في لواء الجيش فأمرهم يجرى علي النحو الاتي : من يتقدم منهم بالشكوى بصدد مرتباتهم ورواتبهم العينية من غلال وما يكون قد آل اليهم من الاموال والغلال التى اضيفت لحسابهم — وكان خصومهم في خدمة الجيش كذلك ممن منحوا رعوية مدينة الاسكندرية، فان المقاصة تجرى أمام المحاكم المخصصة للاجانب فيأخذون مالهم ويدفعون ما عليهم ، علي ان يتم تنفيذ الاحكام وفق الامر الملكي[2] »

---

(١) الريف هنا بمعناه الواسع ويشمل اي جزء من البلاد المصرية فيما عدا الاسكندرية التى كانت تعتبر المدينة ، وما عداها فهو ريف لها يمدها بما يلزمها من حاجيات واقوات لضمان كفايتها الاقتصادية واستقلالها السياسى وذلك طبقا لما جري عليه العرف عند اليونان .

(٢) كانت هناك اوامر ملكية تسمى (Prostagmata). (Diagrammata) وتتناول شتى المسائل من اقتصادية وقضائية وتنظم مناحي الحياة في مصر البطلميه وهذا الامر الملكي الذي تشير اليه هذه البرديه كان شاملا للتعليمات الواجب اتباعها فيما يختص بالاجراءات القانونية.

عقوبات التعدى فى قانون الاسكندرية(١)

«التهديد بالحديد: اذا هدد رجل حر زميلا له بآلة من حديد أونحاس او بقطعة من الحجر أو الخشب فعقابه دفع مائة دراخمة اذا خسر دعواه. بيد انه اذاارتكب عبد من ذكر او انثي أو أمة شيئا من ذلك ضد حر أو حرة فعقابه ضرب السياط، ولا يقل ذلك عن مائة سوط، والا فعلى ولى المذنب اذا ما خسر دعواه ان يدفعلمن لحق به الضرر ضعف الغرامة المقررة علي الحر .

«إضرار السكير بالغير: اذا تعدي سكيرعلى آخر فاصابه بضرر فى موضع من جسده سواء أكان ذلك فى سكون الليل ام في حرم مقدس ام فى السوق العامة فجزاؤه دفع ضعف الغرامة المقررة .

«اعتداء العبد علي الحر: اذا اعتدي عبد أو أمة بالضرب على حر أو حرة فجزاء المعتدى ان يُضرب مائة سوط على الاقل ، اما اذا اعترف سيد العبد بالواقعة فعليه هو ان يدفع بدلا من العبد التابع له ضعف العقوبة المقررة علي الحر ، أما اذا دفع بعدم صحة الواقعة ، فللشاكي ان يرفع الامر للقضاء ويطلب تعويضا قدره مائة دراخمة عن كل لكزة او لكمة اصابته ، واذا أدين سيد العبد فعقابه ان يدفع ثلاثة امثال هذا المبلغ دون مراعاة لتقدير المحكمة . اما في حالة تعددالكمات فللشاكي الحق فى أن يقدر قيمة التعويض المطلوب ، عند رفع القضية ، وعلي سيد العبد أن يدفع ثلاثة امثال ما قد تقرره المحكمة من تعويض .

«العراك بين الاحرار: اذا تحرش حر او حرة فتعدى بالضرب على حر اوحرة فعقاب البادى بالعدوان ، اذا ما أدين ، مائة دراخمة دون مراعاة لتقدير المحكمة.

«واذا تعدي الضرب لاكثر من لكمة ، فللشاكي عند رفع دعواه للقضاء أن

(١) مقتبس من برديه هالنسيس I ، ١٨٦ — ٢١٣ فى «البردى المختار»

يقدر هو نفسه مبلغ الضرر الناجم عن الضرب ، وعلى المتهم ان يدفع ضعف ما قد تقرره المحكمة من تعويض .

«واذا اعتدى احد علي موظف عمومى من موظفي المدينة في اثناء قيامه بمهام منصبه الادارى فجزاؤه اذا ما حكم بادانته دفع ثلاثة امثال الغرامة المقررة .

«جزاء القِحة: اذا تعدى أحد على آخر بالسب غير المنصوص عنه فى القانون فللطرف المعتدي عليه ، عند رفع دعواه ، أن يقدر ما اصابه من ضرر ، وعليه فوق ذلك ان يبين بالذات كيف استهدف للسب وتاريخ حدوث ذلك ، واذا أدين المتهم فجزاؤه دفع ضعف ما قد تقرره المحكمة من غرامة ».

تلك بعض أمثلة من القوانين المرعية في مدينة الاسكندرية في عصر البطالمة ، وهى تنظم ناحية من حياة السكان بها . وكان هؤلاء ، ولا ريب ، يمثلون اخلاطا وأنواعا جنسية عديدة، وفدوا علي المدينة من شتى الاقطار والارجاء. ويكفى للتدليل علي ذلك أن نذكر الحوار الذي رواه ثيوكريتوس (Theocritus) شاعر بلاط بطلميوس فيلادلفوس في القصيدة الراعوية الخامسة عشر التى تصف أجنبيا ضاق بحديث امرأة ثرثارة من سيراكيوز بصقلية وكانت تسمى براكسينوا (Praxinoa) وصديقتها جورجو (Gorgo) فصاح فيهما قائلا «أيتها المرأتان ! ألا تنتهيان عن هذه الثرثرة حتي لكأنكما زوج من الحمام ! إن سماع هذه اللهجة الدورية ذات اللكنة ثقيل على أذني ومضن لي حتى لينفد صبري قبل نهايته » فأجابته براكسينوا: «ياللعجب ! من أي أرض جاءنا هذا الشخص ؟ وما شأنك بنا ؟ وماذا يعنيك من ثرثرتنا ؟ عليك أن تشترى عبيدك أولا قبل أن تأمر وتنهى فيهم — اعلم أن من تتحدث لهن وتصدر إليهن الأوامر هن من أهل سيراكيوز ، وأحب أن تعلم كذلك أننا من أصل كورنثى فنحن ، كما تعلم، نتكلم اللغة البليبونيزية أسوة بأبناء

ملك كورنثه، وأظن انه يحق للدوريين أن يتحدثوا باللهجة الدورية ! » .

ولا بد أنه كان بالاسكندرية لهجات أخري كثيرة كانت تسمع رطانتها في الشوارع والاسواق وعلي رصيف الميناء وفى الندوات الثقافية وحلبات السباق وساحات الالعاب الرياضية ثم اضمحلت هذه اللهجات المختلفة وحلت محلها لهجة واحدة مؤتلفة من هذه الرطانات، كانت تعرف باللهجة المشتركة - كويني - (Koinê) وهى اللغة التي تميز بها ذلك العصر الهيليني الثانى من عصر ما قبل الاسكندر، وكان أساسها اللهجة الآتيكية مضافا اليها عناصر من اللهجات الاخرى. وكان فى التقاء هذه الاجناس والشعوب بالطبع فى هذه البوتقة امتزاج كبير للثقافات وللأفكار الدينية، وقد انتشرت فى الاسكندرية عبادة ايزيس وسيرابيس وعمت كل ارجاء العالم اليونانى - الرومانى، وفى الاسكندرية تمت الترجمة السبعينية للتوراة، وانه لمن حديث الخرافة أن يقال ان هذه الترجمة للعهد القديم كانت بأمر بطاميوس الثاني، والحق انها صدرت تدريجيا كيما ينتفع بها يهود الاسكندرية الذين اصطبغوا بطابع هيليني وكانو أعرف باللغة الاغريقية منهم بلغتهم الاصلية . وفى هذه الترجمة قرأت الكنيسة اليونانية الكتب المقدسة مدة قرون ومنها ترجمت الى القبطية والسوريانية والارمنية واللغات الاخرى — وكانت الاسكندرية احد المراكز الرئيسية فى امتزاج الديانات واتحاد الفرق والنحل والمذاهب المختلفه وادماج عبادات مختلفة فى بعضها حتى صار منها مجموعة واحدة تمثل ديانة وثنية واحدة هيأت عصب النزاع الاخير بين الوثنية والمسيحية .

وما انتصف القرن الثالث حتي صارت الاسكندرية اعظم مدينة في الشرق واصبحت مركزا تجاريا هاما فى العالم الاغريقى يؤمها العلماء والشعراء والمشتغلون بالعلوم الرياضية والتجار والجند والمشتغلون بالزراعة والهندسة ثم السياح الذين قصدوا رؤية معالمها وآثارها — كل اولئك قصدوا اليها من كل حدب وصوب إما للاستقرار

فيها وإما لمتابعة سيرهم الى مصر الوسطى وبخاصة اقليم الفيوم الذى أحبه اليونان ورحبوا بالسكني فيه واستغلال أراضيه بطرق علمية مستحدثة حتى أصبح من مفاخر البطالمة . وفريق من اولئك الاجانب رحل الى صعيد مصر واقاصى جنوبها ووصل بعضهم الى جزيرة الِفَنتين وتركوا من بعدهم فى سجل اوراق برديه تعرف «بردى إلِفَنتين» اثرا يبين حياة اولئك الاقوام وطرائق معيشتهم وعقود زواجهم ومدى اختلاطهم (١)— وهكذا كانت البلاد المصرية بفضل الاصلاحات اليونانية والسياسة المستنيرة التى نهجها ملوك البطالمة قد تحول كثير من اراضيها البائرة الى مزارع مثمرة وتضاعفت غلات الارض وثمراتها فى كل مكان ، وكانت المنتجات الواردة من مختلف انحاء العالم والحاصلات المصرية ترى علي أرصفة ميناء الاسكندرية أو تتجمع فى مستودعاتها الملكية (Thesauroi) فالعاج وخشب الابنوس والذهب والتوابل كانت ترد من افريقية ، ولم تنقطع عن المدينة حاصلات الهند وكان يباع الحرير الوارد من الصين فى الاسكندرية فى عصر متأخر ، وكان يرد من بلاد الاغريق الزيت والنبيذ والعسل والتين واللحوم الباردة والسمك المجفف والاسفنج وكانت الفواكه علي مختلف انواعها ترد من آسيا الصغرى وجزر بحر الارخبيل وكان القمح والشعير وما اليهما من غلات مصر تحمل فى النيل فى مراكب الي سوق الغلال العظيمة في الاسكندرية . وفوق ذلك فان المدينة نفسها كانت تقوم بصناعة مواد كثيرة من عطور وزجاج وكتان وبردى كانت تقوم مصانعه المختلفة فى شتي ارجائها (٢)

---

(١) البردي المختار ، جزء اول ، ويحتوي علي نبذ من هذه الوثائق توضح عقود الزواج والالتزامات التى تربط اطراف هذه العقود

(٢) وتلقي وثائق بردى زينون التى يجرى نشرها تباعا منذ ١٩٢٠ ، ضوءا علي ما حظيت به المدينة من تقدم اقتصادى وتذكر الواردات اليها من مختلف اجزاء البحر المتوسط والضرائب التى كانت تجبي عليها

اهم معالم المدينه

ولما أصبحت الاسكندرية قاعدة لمصر ونقل اليها جثمان الاسكندر واتجه ملوك البطالمه الأولين الى ناحية في السياسه ، لاهى بالمصرية الصميمة ولا باليونانية الفجة، ركزوا جهودهم فى اظهار مدينة الاسكندرية فى ثوب من الحسن والبهاء يبهرون به ابصار العالم الاغريقى، فنمت المدينة بسرعة فائقة وقامت مبانيها تمتد من القصور الملكية علي رأس لوخياس (Lochias) فى قطاع كان يسمى براخيوم (Bruchium) في الجانب الشرقى من الميناء الشرقي ، وبدت علي جزيرة فاروس المنارة المشهورة للغادى والرائح فى أبهى حلة ، وكانت اول الابنية العامة التي اقيمت من هذا النوع حتى عدت احدي عجائب الدنيا ، وضع تصميمها مهندس كنيدى مشهور يسمى «سستراتوس» (Sostratus) واحتفل بافتتاحها فى أول عهد بطلميوس الثاني وبوركت باسم الالهين المخلصين (Theoi Soteres) وهما بطلميوس الاول وزوجته، وكانت تتكون من ثلاث طبقات وبلغ ارتفاعها نحو مائة وعشرين مترا وكان يشع منها ضوء قوى يرى علي مسافة ثلاثين ميلا فى البحر ، ويظهر انها كانت تحتوى بالاضافة الى ذلك على شيء أشبه بمنظار مكبر لعله كان يدار بواسطة مرايا كاسرة للاشعة — وكان من معالم مدينة الاسكندرية ضريح الاسكندر الذي عرف باسم سيما (Sema) وهى تحريف من كلمه سوما (Soma) الاغريقية بمعنى جسد، والى جواره ، بلا ريب كانت تقوم مقابر ملوك البطالمة المتعاقبين من الآلهين المخلصين وهما بطلميوس الأول وزوجته ثم الآلهين الاخوين (Theoi Adelphoi) اى بطلميوس الثانى وزوجته ارسينوي الثانية وهى أخته ، والآلهين المحسنين (Euergetai) وهما بطلميوس الثالث وزوجته، والآلهين المحبين لابيهما (Philopatores) اي بطلميوس الرابع وزوجته وهكذا . ثم كان هناك السرابيوم المشهور في غرب المدينة على مقربة من الحي الوطني ، وتقوم فيه عبادة الاله الجديد سيرابيس الذي اصطنعه

البطالمة الأولون كي يكون وسيلة يوحدون بها الشعب ويوثقون بها الصلات(١) .

الاسكندرية مركز للثقافه

ولم يُنس البطالمة حرصُهم علي مظاهر العظمة المادية لعاصمة مُلكهم جانب الحياة المعنوية والفكرية فيها، فقد اشتهرت قبل كل شيء بدار الحكمة او الأكاديميه ودار الكتب ، ويظهر أن الأولى كانت في بادىء أمرها معبدا للتاسوع الالهي من أرباب العلوم والفنون (Muses) ، له رئيس هو سادن لهذه الآلهة ثم ما لبثت أن أصبحت جامعة كبري أو على الأقل محفلا جامعيا أشبه باحدي كليات جامعتي أكسفورد او كمبردج فى نظمها وتكوينها(٢)، فكان العلماء والأدباء من مختلف الأجناس والأقطار يلتقون فيها وتغدق عليهم الحكومة البطلمية المستنيرة من خيراتها ما يشجعهم على الانتاج العلمى والفكري ، بل وتمنحهم مرتبات من خزانتها الملكية فى سخاء ، وبفضل هذه المرتبات وما كان يتوافر لدى هذه الجامعة من الموارد المعتادة استطاع علماؤها ان يتوفروا علي أعمال البحث والتنقيب، لان التعليم والتدريس لم يكن عملا إجباريا فيها ، ولقد وجدوا فى المكتبة الملحقة بهم موردا عظيما من الكتب والمراجع فى متناول أيديهم يعتمدون عليه فى متابعة أبحاثهم .

ولقد عنى بطلميوس الأول منذ أول الامر بادخال الأدب الاغريقي إلي الاسكندرية ، وكان هو نفسه رجلا من رجال الأدب إذ كتب وصفا لحملات الاسكندر وأحاط نفسه بحاشية من الشعراء والفلاسفة وأسبغ عليهم من الحظوة والمودة ما حبب اليهم الاقامة في الاسكندرية فقرب اليه علماء النحو أمثال زينودوتوس

(١) بيير جوجيه — «السيطرة والأستعمار المقدوني» ص ٢٧٨ — ٢٨١
P. Jouguet Macedonian Imperialism pp. 278 - 281
وقد عدد فى هذه الصفحات معالم المدينة وتقسيمها الي احياء خمس سميت باحرف الهجاء الاولى.

(٢) انظر مقال ربل (H. I. Bell) فى مجلة الآثار المصرية
(Journal of Egyptian Archaeology) vol. XIII, p. 176.

(Zenodotus) ، والشعراء أمثال فيليتاس (Philetas) ، وعلماء الرياضة أمثال أقليديس (Euclid) ، وكان سخيا نحو هذه الشخصيات الفذة الممتازة بقدر ما كان لين العريكة ، وكان يختص ستراتون (Strato) بقدر من عنايته حتى أنه قدم اليه هدية قدرها ثمانون تالنتات[1] (نحو ١٨٫٠٠٠ جنيها) فكان يعرف تماما كيف يجزل العطاء لذوي المواهب فى سخاء ملوكى — ولكن ليس بكاف أن يستهوى العلماء ويجذبهم بكرمه وسخائه إلى الاسكندرية، فلا بد من الاحتفاظ بهم فيها حتي يتركوا أثراً باقياً دالا على إقامتهم فى مصر ، فعمل علي تهيئة الضمان الكافى بأن يحصل هؤلاء العلماء فى الاسكندرية لا علي رفقائهم وزملائهم فحسب وإنما الكتب والفرص وفسحة من الوقت كذلك لمتابعة دراساتهم ، هذا فضلا عن عطف ملك مستنير ، وعندئذ رحل كل أولئك العلماء تدريجيا الى تلك الكعبة التى كانت تنتظر وفادتهم ، وكانت الاسكندرية فى تلك الأزمنة المضطربة ملاذاً يأوي اليه رجال الفكر ومستقرا للعمل المثمر وأخذ الناس يرحلون عن بلاد الاغريق التي عمها الفقر وأصابها الوهن وأنهكتها الحروب وكذلك رحلوا عن آسيا التي لم تكن الحياة مستقرة فيها الي « أثينا الجديدة » علي شاطىء مصر الشمالى وقد اتخذت مقرا للعلوم وأصبحت عظمتها إرثا مشتركا للجميع ، وكان ملك مصر غيوراً علي تأييد هذه النهضة الأدبية وتعضيد القائمين بها خشية أن يسبقه فى هذا المضمار ملوك آسيا من السلوقين او غيرهم فسارع بانشاء دار للحكمة ودار الكتب وقد بذ تا زميلاتهما فى آسيا.

وهنا قد يعرض لنا سؤال وهو : من يستحق الفخر بأن نسب اليه إنشاء هاتين المؤسستين ، أكان بطلميوس سوتر أم بطلميوس فيلادلفوس ؟ وانه لمن المستحيل علينا أن نجيب عن هذا السؤال بصفة قاطعة لأن النصوص القديمة متضاربة

(1) Diogenes Laertius, V, 3. 58.

في أقوالها (١)، ومع ذلك فيمكن أن نستخلص من هذه النصوص القديمة ما يؤيد القول بأنه كان بطلميوس الثاني — لقد أوضحنا المشاعر التي دفعت ببطلميوس سوتر إلى التفكير فى انشاء دار للحكمة ومكتبة ملحقة بها ، ولكن هذا العمل لم يكن من الأمور التى تتم في يوم وليلة ، ويبدو أنه فى أثناء الجزء الأول من حكمه كان مشغولا بتأمين مملكته ضد عدوان منافسيه والانتقال من معركة لأخري فتارة هو فى برقة وأخرى هو فى رودس او قبرص او آسيا الصغرى فلم يتح له من الفراغ او يجد من المال ما كان يتطلبه القيام بمثل هذا المشروع السلمي اما في الشق الثانى من حياته فقد كان اكثر هدوءا ، قضاه في استقرار ، وبعد أن أقام مُلكه على اسس ثابتة ودعائم قوية كان فى استطاعته أن يكرس جهوده في كثير من السخاء الى المنشآت السلمية وصادف فى ذلك الوقت (٢٩٩ ق. م.) ان طلب اليه ديمتريوس الفاليرى (Demetrius Phalerius) ان يأويه بعد أن نفي من أثينا وكان ديمتريوس هذا ذا عقل راجح وفكر خصب عرف بالنشاط واشتهر بالعلم فكتب وصنف فى كل موضوع يمكن تصوره من تاريخ ونحو وسياسة وخطابة واخلاق (٢) ولقد اكرم سوتر وفادته وانتفع بعلمه بأن وكل اليه الاشراف على دار الكتب ولا يمكن ان يكون معنى ذلك تولية وظيفة رسمية شبيهة بتلك التي تولاها مديرو المكتبة وامناؤها الذين خلفوه لأنه لم يكن لدار الكتب وجود حتي ذلك الوقت وكانت الحاجة ماسة الى شخص يقوم بتنظيمها وكان ديمتريوس أقدر واصلح شخص للقيام بهذه المهمة الشاقة ، وبناءا على مشورته اشتري بطلميوس كتبا كثيرة كان من بينها كل ما كتب عن فن الحكم «والكتب» علي حد قول ديمتريوس «اكثر شجاعة من رجال القصر على قول الحق للملوك» (٣). تلك هي الظروف التي نشأت

(1) Plutarch, Apophthegmata 189 d; Clement, Strom. I, 351.
(2) Diogenes Laertius V, 5, 80.
(3) Plutarch, Apophthegm. 189 d.

فيها المكتبة التى اصبحت محتوياتها لا تقل في نهاية حكم بطلميوس سوتر عن مائتي الف مجلد ، ولما تولى فيلادلفوس نفى ديمتريوس هذا لأنه كان يشك في اخلاصه وبذل الملك مجهودات جبارة في جمع الكتب من كل انحاء العالم الاغريقى وفى السنين الأولى من حكمه نقلت الكتب الي دار الحكمة وفى الحقيقة بدأ منذ ذلك الوقت وجود المكتبة الفعلى وينطبق هذا القول علي دار الحكمة ايضا ، والمتفق عليه أن بطلميوس الثاني يعتبر المؤسس للمكتبة ودار الحكمة (١) ومن الممكن ان التصميمات الاولى لتلك المؤسسة قد وضعت فى عهد سوتر الذي استمد الفكرة من اولئك العلماء الذين احاطوا به ولكن فيلادلفوس هو الذي نفذ المشروع فجنى فخر نسبته اليه وكرس جهوده منذ تولى العرش «لمتابعة التقاليد الموروثة عن والده» (٢) وعلي ذلك يمكن أن نقول بحق ان بطلميوس سوتر هو صاحب الفكرة في انشاء المكتبة ودار الحكمة وابنه فيلادلفوس هو الذى اسسهما واخرجهما الى حيز التنفيذ .

وقيل أن بطلميوس الثالث اصدر أمرا يقضي بأن يؤخذ من جميع السياح الذين يرسون علي شواطىء الاسكندريه ما قد يكون معهم من الكتب وان يبعث بها الى دار الكتب ويتسلم اصحابها بدلا عنها نسخا رسمية (٣) ولم تكن محتويات هذه الدار من الكتب مقصورة على الآداب اليونانية وانما كانت تشتمل على مترجمات لمؤلفات من اللغات الاخرى واصبحت محتوياتها فى العصر الروماني تعد بمئات الالوف من المجلدات .

وكانت دار الحكمة بالاسكندرية تقوم فى الغالب علي اسس مقتبسة من انموذج اغريقى وكان يلتقى العلماء فى ساحاتها وابهائها لتأدية اعمالهم وللمناقشة فى

(1) Couat, Alexandrian Poetry pp. 11-12.
(2) Callimachus, Hymn, IV, 170.
(3) Galen ed. Kuhn, XVII, 1, 606.

الامور الهامة من درس وبحث واذا استطعنا ان نتصور ذلك المبنى الرئيسى الذى وصفه سترابون والابنية الشاسعة فى خارجه وقد الحقت بالبناء الرئيسى ودار الكتب، وما كان يهذه المباني من أروقة فخمة وأعمدة رشيقة، أمكننا ان ندرك ما توفرت عليه الحياة الداخلية فيها من وسائل الراحة ، ففي ظل الهواء الدفء فى أفنيتها وفى كنف البهو غير المسقوف (Exedra) كان ينزل أولئك العلماء ضيوفا يأكلون وينامون في تلك الدار ويعقدون اجتماعاتهم لمناقشة بحوثهم بعيداً عن ضوضاء المدينة وجلبتها ويعكفون علي كتابة مؤلفاتهم التى ذاع صيتها وطبق الآفاق .

كان أدباء الاسكندرية يحاكون أدباء اليونان القدماء، ولكن ألوان الادب التي تميزت بها الاسكندرية لا يمكن ان تقارن بما أخرجه اليونانيون من الادب فى العصور الزاهرة الكلاسيكية (القديمة) ، ومع ذلك فكانت آداب الاسكندرية ذات طابع خاص له قيمته، ومن المسلم به ،ان طابع الادب الاسكندرى كان يوصف بالتكلف والتصنع ، فقد أظهر كتاب مدرسة الاسكندرية من العلم والمعرفة ما لم يستطع قراؤهم استساغته ، وهناك بقية من قصيدة للشاعر كاليماكوس[1] تسمى «الاسباب» تلقي لنا بعض الضوء على طريقته فى صناعة الشعر فتظهره جالسا على مائدة يجمع بشغف واشتياق من عابر سبيل الغريب من المعلومات والنوادر كما يصوغها فى قصيدته وهذه طريقة طريفة تدل على روح العصر ، وكان السكندريون قد طغت عليهم الى حد بعيد آداب العصر الزاهر اليونانى فيما يختص بأساليب الشعر وقوافيه وليتحقق الانسجام والتوازن وجهوا وجهتهم شطر التجديد في الموضوع وطريقة المعالجة لما يعن لهم من موضوعات طريفة فكانوا باستمرار كمن يصب النبيذ الجديد فى زجاجات قديمة ، وفى بعض الاحايين لم يكن عملهم فى ذلك موفقا ، وتحتوى مقطوعة حكمية (epigram) من شعر كاليماكوس الذى كان يضرب الامثال

(1) Callimachus, Aitia, (P. Oxyr. XI, 1362).

فيه للناس على خلاصة روح الحركة الفكرية فى الاسكندرية : « إني امقت الملاحم ولا أوثر المطولات التي يتشعب فيها القول كما يفعل الكثيرون وأكره الغزل التقليدى فى الشعر ولا انهل من ينبوع ينهل منه الآخرون ، واكره كل ما يتعلق بجمهرة الناس وكثرتهم الغفيرة » وكان من آثار هذه النزعة فى هذا الشاعر ان جاء بالشعر النفيس العالى القيمة والذي لم يبرأ من التصنع ، ولم يخل أدب السكندريين عامة من هذا العيب ، ومع ذلك فان اناشيد كاليماكوس وملحمة ابولونيوس الرودي تحتوي على مزايا حقيقية اذا قدرنا ما فيها ولم نبحث عن صفات لم تجل بخواطر مؤلفيها — وان تجارب السكندريين كانت ذات قيمة باقية الاثر فقدموا لنا فى الاناشيد الراعوية (Idylls) للشاعر ثيوكريتوس نوعا جديدا واسلوبا فذا في المعالجة لم يجاره فيه احد فيما بعد ، وان موضوع الحب الخيالى ، الذي عرفه كتاب الاسكندرية ولكنهم لم يستغلوه بقدر كاف في ذلك العصر ، كان مما أثر فى مجرى الادب الاوربى وتوجيهه .

ولكن خدمات السكندريين للادب لم تقتصر علي انتاجهم الخاص منه فان علماء دار الحكمة او « المحفل الجامعى » ان صح هذا التعبير وفقوا لاختراع فن النقد الادبى ، وان عملهم فى هذا المضمار لم يخل من شوائب ومع ذلك فاننا مدينون لهم فيه بدين عظيم ، واذا كان من الثابت كما يؤخذ من اوراق البردى ان نصوص بضعة نفر من المؤلفين القدامي قد أصبحت فى القرن الثالث قبل الميلاد محرفة مما اصابها من المسخ والتشويه ، فالى علماء الاسكندرية وادبائها يرجع أكبر الفضل فى اعمال التنقيح والتصحيح والمراجعة لكثير مما بقى لدينا من مادة النصوص التى نقرأها اليوم ومن يدرى فكم من نصوص الادب الاغريقى الذي تستمتع بقراءته اليوم كانت تعبث به ايدي البلي والدثور وتعدو عليه عوادى الزمن لولا ماقام به علماء الاسكندرية ونقادها من غيرة وجهد فى البحث عن اصول ونصوص كتب ذلك الأدب الاغريقي الخالد ؟ ؟

ولعل الاسكندرية قد برزت فى العلوم الطبيعية فاشتهرت مدرستها الطبية وخاصة فى علمي التشريح والجراحة وبزت نظائرها من المدارس الاخري بمراحل كثيرة، اما فى علم الأحياء فلم يكن حظها من الشهرة مثله في العلوم الاخري ، على أن دراسة علم الاحياء تقدمت فيها بلا شك بفضل حديقة الحيوان التي اسسها بطلميوس فيلادلفوس، وكان أكبر نصر احرزته فى ميدان الرياضيات وعلم الميكانيكا . وفي الاسكندرية سبق أرستارخوس (Aristarchus) العالم كوبرنيكوس (Copernicus) بأن وفق لمعرفة ان الارض تدور حول الشمس وقاس اراتستينيس (Eratosthenes) قطر الارض ووصل فى بحثه الى رقم لا يختلف عن طوله الحقيقى الا بمقدار خمسين ميلا وكتب اقليديس (Euclid) كتابه المسمي «العناصر» وكان اريشيمديس (Archimedes) من بين الذين درسوا هناك. ولكن الجمود العجيب والخمول الذى اعترى الذكاء اليوناني قبل العصر المسيحي بقليل حال دون ان يوفق اليونان الى معرفة كثير من عجائب العلم الحديث بل أن هذا الجمود أدي بهم الى اهمال العلوم التي كشفوها من قبل .

حال المدينه فى أواخر عهد البطالمه

ولقد كانت الاسكندرية ميدانا لـكثير من الاحداث الهامة فى مدي القرون الثلاث التي حكم فيها البطالمه مصر، ففي القرن الثالث قبل الميلاد اذ كانت قوة اسرة البطالمه على أشدها شاهدت الاسكندرية كثيرا من مظاهر النشاط السياسى والاحداث الهامة فكانت الاحتفالات والمواكب وزيارات السفراء الاجانب ابرز هذه المظاهر في ذلك العصر ، وهناك وثيقة بردية كشفت حديثا (١) تحتوى خطابا من وزير المالية ابولونيوس فى عهد فيلادلفوس الي وكيله زينون في فيلادلفيا ينبئه فيه بوصول رسل معتمدين من ارجوس وسفراء من قبل الملك بيريساديس (Paerisades) ملك البسفور كما يشاهدوا مناظر الفيوم وآثارها وهناك بعثة سياسية ثبت أنها

(1) Symbolae Osloenses, 1927, "Greek Sightseers in Fayum" by Bell.

اتت من روما واخرى من قرطاجه وثالثة من الهند، فقد أرسل الامبراطور البوذي المسمي أسوكا (Asoka) رسله إلى بطلميوس الثانى لينصحوه ويبشروه بأن ساعة الخلاص من ربقة الدنيا قد حانت ، فهل استجاب لنصحهم ، وهل وجدوا في قلب هذا الملك المفتون بالنساء وإيثار المسرات وحب الترف والعظمة سامعا او مجيباً ؟
وعقب موت بطليموس الرابع (فيلوباتور) الذى انهمك فى الملاذ والمجون والفحشاء بدأ الحال يتغير وحدثت اضطرابات فى الاسكندرية عندما ظهرت امام الشعب حظية الملك الخبيثة وأخوها — بعد قتلها الملكة المحبوبة — يحملان رفات الملك والملكة ويتكلفان ذرف الدمع الهتون ، فثار عليهما سفلة الناس وعامتهم ، ولكن ثورتهم لم تنجح[١]، وتاريخ القرن الثانى هو فى الغالب سجل لما كان يحدث من شقاق ونزاع داخلي بين أفراد الأسرة المالكة وحروب أهليه كانت روما تتدخل من وقت لآخر لحسم النزاع فيها ، والسكندريون — ولا ريب — قد ألفوا مظاهر هذا النزاع بين أفراد الأسرة المالكة وما كان بينهم من تناحر ، وفى عهد بطلميوس الثامن الذي اشتهر رسميا باسم يورجيتيس الثاني والذي سماه المعجبون به من رعيته فسكون(Physkon) أي السمين نشبت الاضطرابات وقتل الملك فيها عدداً كبيراً من الوطنيين فنشأ عن ذلك تغيير كبير في أخلاق الشعب السكندرى، ولقد وصف الاسكندرية المؤرخ بوليبيوس الذي زار مصر فى هذا العصر فقال « كان بالمدينة ثلاثة عناصر من السكان : العنصر الوطنى وهم المصريون وهو نشيط لبيب متحضر ، والجنود المرتزقة وهم كثيرون متمردون تعلوهم سمة من الكبرياء والصلف (لأن الملوك تعودوا من أمد طويل ان يحتفظوا بالجند المرتزقة المدججين بالسلاح الذين تعلموا مما وجدوه من عدم أهلية الملوك المتعاقبين وقلة كفايتهم ان يحكموا لا أن يطيعوا) ، ثم ثالثهم العنصر السكندري وهؤلاء لم يكونوا متحضرين لنفس

---

(١) قد ذكر المؤرخ بوليبيوس تفاصيل هذه الحقبه باسهاب ، كصور ما كان يجري في البلاط الملكي من منافسات وما كان يقوم به شعب الاسكندرية من اضطرابات .

الأسباب ولو أنهم كانوا أفضل من العنصرين الأولين لأنهم مع كونهم أمشاجا من بلاد مختلفة كانوا يونانيي الأصل فلم ينسوا المميزات المشتركة لليونانيين(١)» ، ويقول بوليبيوس بأن هذا الفريق من السكان قد تلاشى ، وفى هذا بلا شك مبالغة ظاهرة ـ وهكذا لا يذكر المؤرخون الأقدمون السكندرين في العصر المتأخر من حكم البطالمة بشيء من الاعجاب ، فكانوا في نظرهم متقلبين سريعي التأثر عنيدين متمردين يحبون العمل ويميلون مع ذلك الى اللهو ، وهم ثرثارون فيهم طلاقه اللسان ولذعه ، قليلو الاحترام للأديان ومع ذلك كانوا يظهرون تعصبا دينيا شديدا في بعض الأحيان ، وكانوا دائما معرضين لأن تنتابهم حالات يفرطون فيها في الهياج والشغب على الحكام فكانوا مدة قرن شوكة في جانب السلطات التي كانت مسئولة عن حفظ النظام .

وما وافى القرن الاول قبل الميلاد حتى كان استقلال مصر قد أشرف على الضياع وأصبحت حالها لا تفضل كثيرا حال البلاد الخاضعه لحماية الرومان ، وعندما ثار شعب الاسكندرية فى وجه الملك بطلميوس أوليتيس (Auletes) أو الزمار ، وكان ماجنا مبذرا ، أغرم بالزمر وأهمل شئون البلاد طرده شعب الاسكندرية الي المنفى ، ولكنه ذهب الى روما باحثا عن معين يعيده الى عرشه المسلوب ، وأخيرا وجد فى شخص جابينيوس (Gabinius) قائد جند الرومان وحاكم الشام ضالته المنشودة ، فرشاه بالمال الوفير وفي نظير ذلك ساعده علي العودة الى بلاده بل واحتل جند الرومان مدينة الاسكندرية لتأييد عرش الملك سنة ٥٥ ق.م. ، وفيما بعد ذلك بقليل أتي يوليوس قيصر الى مصر مقتفيا أثر پمپي المنهزم الفار بعد موقعه فرساليا عام ٤٨ ق.م. ، ولكن القائد المظفر وقع أسير حب كليوباتره السابعة إبنة بطلميوس أوليتيس السابق الذكر ، فتنته بذكائها وروحها وأساليبها التى أسهب المؤرخ

(1) Polybius, Book XXXIV, 14 De Alexandria, Aegypti Urbe.

بلوتارك في تعدادها والاشادة بها(١)، ولكن العلاقات بين قيصر وكليوباتره لم تمض دون أن يكدر صفوها شعب الاسكندريه وقواتها المحاربة ، فقد شق عليهم وجود قيصر بين ظهرانيهم وتدخله فى أمورهم ووقوفه من كليوباتره وأخيها الصغير وهو زوجها موقف الحكم ، ثم تطورت الأحوال وحوصر قيصر في القصر الملكي وشدد عليه الخناق اتباع أخيها ،وقد ساءت الظروف المحيطه بقيصر فترة من الزمان ،كان فيها يعاني مرارة الحصار وقلة الماء للاستسقاء وضعف القوات ، ولكن أنقذته قوات حليفة أتت من الشام يقودها مثريداتيس ، وفي أثناء القتال الشديد الذي نشب بينه وبين الثوار عقب ذلك أصيبت أجزاء من المدينة باضرار جسيمة ، وخاصه الأجزاء القريبة من القصر الملكي وفيها أغني الأبنية وأعظمها وقد عمد بعض الكتاب الي القول بأن أجزاء من المكتبة قد تهدمت وأحرقت كنوزها فى هذه الظروف ، ولعل الأمر قد اختلط عليهم فظنوا أن الكتب التى كانت على مقربة من رصيف الميناء أومكدسة في مخازن في هـذا المحيط والتى اشتعلت فيها النيران هى بعينها الكتب الموجودة في دار الكتب الكبري وليست بديلا أو فائضا كان قيصر ينوي أن يبعث به الى روما ، وعلي أي حال فلا يزال القول بحريق مكتبة الاسكندرية مفتقرا الى التأييد بعيدا عن الصواب .

توارى يوليوس قيصر عن الابصار فى مارس سنة ٤٤ ق. م. نتيجة تآمر عصبة من الجمهوريين المشفقين على الروح الجمهورية الحقة من نوايا قيصر في إعادة الملكية الى روما في أثواب فضفاضة ، وكان يتلمس السبيل ويتحين الفرص ويجس نبض الشعب الرومانى ليتعرف على مبلغ تقبله لذلك التغيير الذي لا نعرف مداه إذ حمل هذا السر العظيم إلى قبره بعد أن خر صريعا فى مجلس الشيوخ الروماني أثر طعنة من بروتس (Brutus) ، وقد آل الأمر الى اكتافيوس وأنطونيوس، فتوفرا

(1) Plutarch. The Life of Antony.

علي تنظيم إرث قيصر وتنفيـذ مشروعاته ، ثم بدت بوادر الخلاف بين الزعيمين وكانا قد اقتسما العالم الروماني فاختص انطونيوس بالشرق بما فيـه مصر وانفرد اكتافيوس بالغرب وأصبح ناصره والمدافع عنه ضد الشرق وقد اتصل أنطونيوس بكليوباتره وأغرم بها ثم تزوجها ، فلم يرق ذلك في نظر روما التي أخذت تنظر اليه علي أنه مفتون وعبد لكليوباتره يريد أن يُغلّبها علي روما ويجعل من الاسكندرية عاصمة للعالم كله ، لها السبق على روما ، فقام العالم الغربي يشن حربا على كليوباتره ونصيرها أنطونيوس ومن ورائها جل قوى الشرق ووقعت الموقعـة الهائلة فى اكتيوم سنة ٣١ ق.م. فانتصرت قوات روما وباء أنطونيوس بالخذلان وعاد هو وكليوباتره الى الاسكندرية ومعهما أسطول مصر البالغ ستين مركبا ، وكان قد انتهى من قبل ذلك عهد استقلال مصر بالحكم المشترك بين أنطونيوس وكليوباتره، ولما قُضي الأمر بانتحار المحبين كليهما عقب هزيمتهما في الاسكندرية وفشلهما في الاعتصام بها ضم أكتافيوس مصر الي الدولة الرومانية وسجل ذلك فى الوثيقة المشهورة بأثر أنقره (Monumentum Ancyranum) بقوله وهو يشيد بأعماله « أضفت مصر لسلطان الشعب الروماني »(١) ، وقد أصلح اكتافيوس أغسطس شئون الاسكندرية واصدر عفوا عاما وأقر امتيازات المدينه ويقول المؤرخ ديوكاسيوس (Dio Cassius) إنه « أمر السكندريين بألا يعولوا في تسيير شئونهم السياسية على مجلس الشورى (Boulê) نظرا لشكوكه فى أخلاق السكندريين المتقلبة » .

وهكذا شهدت الاسكندرية طوال القرون الثلاثة من حكم البطالمة أحداثا عظيمة تركزت فيها آمال البطالمة الذين اختصوها بجل عنايتهم فكان حظها من النجاح وافرا وتقدمها سريعا ، وإنا لنرجو أن تكشف اعمال الحفر والتنقيب بها عن آثار تزهو بها على غيرها من مدن مصر القديمة، ونرجو لها ان تستعيد سيرتها الأولى.

---

(1) Monumentum Ancyranum, Chapter 27 "Aegyptum imperio populi Romani adieci".

الفلسفة بين مصر والغرب

قد وافقت ادارة مجلة كلية الآداب بجامعة فاروق الأول علي نشر هــــذه التعليقات الوجيزة علي ما صدر حديثا فى مصر وأوروبا من مؤلفات فلسفية ، وما نشر من نصوص عربية أو غربية هامة ، بغية اطلاع قارئى هذه المجلة من أساتذة وطلاب وجمهور مثقف ، علي الحركات العقلية القائمة فى العالم وعلي مدي اتصال هذه الحركات فيما بينها . وسنستمر باذن الله ، في المستقبل علي نشر مثل هذه التعليقات، متتبعين على التدريج ، تقدم الفلسفه في بلادنا وفى البلاد الغربية .

١) فصوص الحكم للشيخ الاكبر محيى الدين بن عربى

والتعليقات عليه بقلم ابى العلا عفيفى

(دار احياء الكتب العربية ــ بالقاهرة ١٩٤٦)

ليس من شك في أن الخوض فى مسائل هذا الكتاب من شئون دارسى الفلسفة الاسلامية ، وناحيتها التصوفية بنوع خاص . ولكن ليس هناك شىء ادعى الى الاغتباط من التنويه بما لكتاب كهذا من قيمة ، ومن الاشارة بما في نشره من خطر، لا لدارسى الفلسفة وحدهم ، بل لجميع المعنيين بالمسائل الثقافية في الوقت الحاضر .

نعلم ما امضاه حضرة الشارح من اوقات في دراسة ابن عربي والتصوف الاسلامي بوجه عام ، وما بلغ اليه من معرفة عميقة بمذهب من اصعب المــذاهب الفلسفية ، مذهب وحدة الوجود ، وما لحضرته من خبرة لا تضارع بنصوص ابن

عربي ، ما نشر منها وما لم ينشر ، وما وضع على هذه النصوص من شروح مختلفة .
وهاهو ذا اليوم يعطينا نشرة محققة لكتاب «الفصوص» لابن عربى ، بعد مقارنة دقيقة بين مخطوطات ثلاثة ، اثنان منها موجودان بالمكتبة الملكية بالقاهرة ، والثالث ملك المرحوم الاستاذ نيكولسون المستشرق الشهير .

يوضح لنا حضرة الشارح فى مقدمته ، ما لكتاب «الفصوص» من أهمية ، من بين جميع مؤلفات ابن عربى . فالكتاب يعبر فى حيز محدود وأسلوب مركز ، عن تفكير ابن عربى فى ناحيتيه الاساسيتين ، الفلسفية والتصوفية ، رابطا بينهما ربطا وثيقا ، جاعلا منهما وحدة كاملة متينة ومذهبا بالمعنى الدقيق ، هو مذهب وحدة الوجود . والمذهب كما يظهر عند ابن عربى ، لا يمكن تفسيره باي تأثير صادر مما طالعه ابن عربى من الكتب أو سمع به ، بل يرجع له وحده ، ولفهمه للعالم ، ولتقديره الخاص للقيم الروحية . — نجد أنفسنا بالفعل ، بعد مطالعة المقدمة ومحاولة تفهم نصوص ابن عربى ، أمام وحدة روحية لا نلقى لها مثيلا فى العالمين الشرقى والغربى (الا اذا استثنينا أفلوطين) ، حتي العصر الذى جاء فيه أسبينوزا وأعطى مذهب وحدة الوجود صبغته الغربية الأخيرة .

ويعطينا حضرة الشارح مفتاح هذا المذهب الصوفى الفلسفى لا فى المقدمة وحدها ، بل في تعليقاته أيضا على متن الكتاب ، تعليقات يصح أن نقارنها ، في عمقها وانطباقها على جميع ما يعرض لنا في النص من مسائل ، بأحدث ما عمل من تعليقات على افلاطون وأرسطو ، كتعليق تيلر على طيماوس ، أو تعليق روس على كتب أرسطو « في ما وراء الطبيعة » — . يمتاز تعليق الدكتور عفيفي بأنه ليس تفسيرا عاما للمعني أو المعانى التي يشير اليها المؤلف في عبارات تكاد تكون فى ذاتها ألغازا ، انما هو تتبع لنص المؤلف فى حرفيته ، بغية استخلاص المعانى التي يحملها في طياته ، بل التوغل أيضا فى التحليل ، حتي يجعل القارىء يلمس روح ابن عربى لمسا . وليس أدل على قيمة هذا التعليق ، من أنه يعين من لم تكن له دراية خاصة بنصوص ابن

عربی علی فهمها خیر الفهم، وعلي ربط معناها بمذهب الرجل في جملته. واذا كان ابن عربی ، علي حد قول الدكتور عفيفي ، يرمي فی «الفصوص» ، الي عرض مذهب خطير عن طريق مناظرة رجال الظاهر واساليبهم، فخضرته يوفق فی عرض معانی ابن عربی العميقة عن طريق دراسة أسلوبه المعقد الرمزی . وليس كل هذا في نظرنا بالامر الهين .

وان كان لا يصح لغير المتخصص ، الخوض فی ما يدرسه هذا الكتاب من مسائل ، فانه يمكن على الاقل الاشادة ببعض ما يسترعي اهتمام القاريء المتعود كتب الغربيين واساليبهم ، من مسائل خاض فيها ابن عربي ، ووصل بصددها الي نتائج لا تبعد كثيرا عما وصل اليه بعض الغربيين من الفلاسفة .

(ا) بالرغم من أن ابن عربی لا يقيم صحة قضاياه على أدلة عقلية كما هو الأمر مثلا عند أسبينوزا ، إلا أنه، أثناء عرضه الغامض لمذهب وحدة الوجود ، يثير ما يثيره أصحاب هذا المذهب بين الغربيين ، من المسائل الفلسفية أو الدينية . فنجد ابن عربی يقرر أمهات الأفكار التي أدركها بعض القدماء من الفلاسفة كالرواقيين وأفلوطين ، أو المحدثين كاسبينوزا وهيجل وأتباعه . فنجد أولا أن علاقة الحق (أو الذات الالهية) بمجاليه أو صوره، تكاد تكون ذات العلاقة القائمة عند اسبينوزا بين الجوهر الوحيد الواحد وبين أحواله المختلفة ، كما أن صلة الحق بالاسماء والصفات تثير عند ابن عربی نفس المشاكل التي تثيرها صلة الجوهر الوحيد والماهيات الأبدية بالوجود الزمنی المحدود عند اسبينوزا أيضا . ونجد ثانيا تشابها عظيما بين الاطلاق والتقييد عند ابن عربي ، وبين وصف أفلوطين للواحد أو وصف هيجل وبرادلی للمطلق وتمييزهما له عن الظواهر . ونجد ثالثا التشبيه والتنزيه عند ابن عربی كالمفارقة (Transcendance) والحلول (Immanenence) عند الهيجليين المعاصرين . ونلاحظ أخيرا ما يعمله ابن عربی من تمييز بين أهل الظاهر وأهل الباطن ، وما وصل اليه قبلُ ابن رشد من تمييز

بين الجمهور والعلماء الراسخين .

ومن القضايا التى يقررها ابن عربى ويربطها ربطا وثيقا بمذهبه قوله أن التجلى خلق جديد ، قاصدا بذلك ، أن العالم مجموعة مجالى الله أو الحق ، كل منها متمايز عن الأخرى لا يتكرر مرة بعد حلوله . ويُظهر حضرة المعلق ما بين هذه النظرية وبين بعض نظريات الأشاعرة من تشابه . ويصح من ناحيتنا أن نذكر بهذه المناسبة نظرية ديكارت للخلق المستمر . ثم نذكر بوجه خاص نظرية باركلى اللامادية : الوجود عند هذا الأخير عبارة عن آثار مستمرة للخالق يحدثها فى نفس الانسان — . وقداسترعى نظرنا نص رائع فى « الفص الأول » عن منزلة الانسان من الوجود العالمي ، يُذكرنا من ناحية بباركلي هذا ، ومن ناحية أخرى بنص لابن خلدون في فصله فى علم التصوف . يقول ابن عربى « فلا يزال العالم محفوظا ما دام فيه هذا الانسان الكامل . ألا تراه إذا زال وفُكّ من خزانة الدنيا لم يبق فيها ما اختزنه الحق فيها وخرج ما كان فيها والتحق بعضه ببعض » ؟ يرى باركلى ضرورة إرجاع الدنيا إلى الكائن المدرك ، ويذهب فى نهاية حياته ، فى كتاب «السيريس» (Siris) ، إلى القول بأن روح الانسان تتفصّل ما كان مركزا فى عقل الله تعالى .

إلا أن لمذهب ابن عربى طابعا خاصا يميزه عن غيره من فلسفات وحدة الوجود. فبينما كانت هذه ، عندما تعالج مشكلة الطبيعة الالهية ، منكرة فى الأغلب منزهة ، كانت فلسفة ابن عربي منزهة مشبهة معا ، مقررة نافية فى الوقت ذاته. وبينما كانت مذاهب وحدة الوجود ومن بينها مذهب أسبينوزا لا تقرر إلا في عناء قيام الأضداد السابقة ، نقصد الواحد والكثير ، المطلق والمتعين ، الحق والظاهر ، وتلقى فى تقريرها أعظم الاشكالات ، نجد ابن عربى لا يشعر بشىء من هذا . فالوجود عنده واحد ، سواء نظرنا إلى الحق أو إلى الخلق ، سواء أطلقنا أو قيدنا .

(ب) من أهم ما يعالجه حضرة الشارح ، علاقة مذهب وحـدة الوجود بنزعة ابن عربى الصوفية . وقد نجح نجاحا مشكورا فى تمييز تصوف ابن عربى من تصوف الحلاج . فالحلاج حلولى يزعم أنه يصل الى حال لا تضيع فيها شخصيته فحسب ، بل تنقلب طبيعته وتتحول الي الطبيعة الالهيـة . بينما كان ابن عربى ، إذ يرى فى الوجود مجموعة لمجالى الله ، يعمل على تعدى هـذه المجالى وذاته من بينها ، كي يتحد بأصلها ومنبعها .

وإذا كان لا بد من أن نميز مع حضرة المعلق بين «وحدة الوجود» و «وحدة الشهود» التى ادعى لها الحلاج ، فربما ظهر شيء من الصعوبة بعد ذلك في تفهم النزعة التصوفية عند ابن عربى ذاته . وغنى عن البيان أن اسبينوزا يُرجع الوجود العالمي كابن عربى الى الله ، معتبرا العالم مجموعة أحوال أو صور لله ، ولـكن كان اسبينوزا أبعد الناس عن النزعة التصوفية . ويلمس حضرة المعلق هذا التعـارض القـائم بين مذهب وحدة الوجود والنزعة الصوفية عندما يقول ، شارحا موقف ابن عربي من الصلاة، اننا نجد في الصلاة مثالا رائعا«لاظهار العاطفة الدينية التى لم تتمكن وحـدة الوجود من إطفاء جذوتها فى قلب ذلك الرجل، ولـكيفية فهمه العبادة فهما صوفيا» (راجع ص ٣٤١) .

(ﺟ) غير أن مذهب ابن عربى الذي يظهره لنـا حضرة المعلق فى تفاصيله ، إن كان يبدو معارضا للنزعة الصوفية الأصيلة ، فهو يعد صاحبه على الاقل الى اتخاذ موقف يفهم منـه اختلاف الأديان ووحدتها . فمن ناحية يُظهر كلُ دين عقليةَ صاحبه : « لون الماء ، لون إنائه »، يقول الجنيد . ومن ناحية أخري تظهر الأديان لصاحب مذهب وحدة الوجود كجمله مجهودات تتجه بها الانسانية إلى مجالى الله .

عقد الخلائق فى الاله عقائداً   وأنا شهدت جميع ما عقدوه

يؤدي مذهب وحدة الوجود الى القول بأن كل انسان يعبد الله وحده ، مهما كانت مرتبة الانسان فى العبادة، ومهما كان المعبود الذى يتصوره ، وأن العاطفة الدينية مهما اتخذت من الصور ، لتحمل فى ذاتها ما يجعلها عاطفة خالصة لوجه الله . وان اختلاف الأديان لا يُظهر تعارض الناس بل اتحادهم العميق واتجاههم كل حسب نوره ، الى كائن يتعدى فى وجوده تصورنا وأفهامنا ، الى إله مطلق « لا يسعه شيء لأنه عين الأشياء وعين نفسه : والشيء لا يقال فيه أنه يسع نفسه ولا لا يسعها » كما يقول ابن عربى فى الفص السادس والعشرين .

٢ — يوسف كرم :

تاريخ الفلسفة الاوربية فى العصر الوسيط

(دار الكاتب المصرى ، القاهرة ١٩٤٦).

يعرض حضرة الاستاذ للفلسفة الأوربية في العصر الوسيط عرضا مركزا دقيقا ، في أقل من مائتين وخمسين صفحة لا يدع فيها للفكر مجالا للاختلاط والتشتت حتى لحظة واحدة . فالكتاب غني بالمعلومات مليء بالمعاني لا يدرسه القارىء إلا أفاد منه خير إفادة .

يبدأ الأستاذ بتعيين نطاق بحثه وحدوده . فهو يدرس الفلاسفة الأوربيين فى العصر الوسيط تاركا لغيره من المتخصصين البحث في الفلسفة الشرقية وكبار ممثليها. — ولتوضيح دراسته هذه يجد لزاما عليه أن يرد بايجاز عما قيل ضد الفلسفة المدرسية . فيبدأ بتقرير كيانها كفلسفة ، وما لها من استقلال عن الدين والسلطة السياسية ، واعتمادها علي تفكير عقلى خالص دقيق . ثم يشرح بعد ذلك علاقة هذه الفلسفة بالدين ، ومعنى ما سمي «فلسفة مسيحية» ، مميزا بهذه المناسبة بين عقليتين : الأولى يمثلها أوغسطين ، تميل الى الأخذ بمعانى الوحي بغية تعقلها ، والثانية يمثلها توما الأكوينى ، تتجه الى الفصل بين العقل والوحى . يعمل توما الأكوينى ،

ومدرسته من بعده ، على تشييد مذهب مرتبط بالمسيحية ارتباطا وثيقا في ناحيتين على الاقل : تعطى الفلسفة علم اللاهوت اداة دقيقة يعمل هو على استخدامها لشرح حقائق الوحى واستخلاص ما يجب استخلاصه منها غاية تفهم الحقائق المذكورة ، ويستمد الفيلسوف من الوحى بعض حقائق لم يقطع بها العقل من قبل ، وان كان يستطيع البرهنة عليها بعد أن كشفت له ، كخلق العالم وخلود النفس .

يطبق حضرة الاستاذ فى دراسته منهجا تاريخيا وفلسفيا : فمن ناحية ، يدرس المفكرين في الوسط الذى عاشوا فيه، وفى مؤلفاتهم وما احدثوه من آثار في هذا الوسط أثناء حياتهم وبعد وفاتهم . ويعمل حضرته علي تعيين ما قام بينهم من علاقة وطيدة ، مبينا اثرهم أيضا فى الحضارة الأوربية ، معنيا بوجه خاص بانتقال التراث الفكرى اليونانى الى الامم الغربية، سواء كان ذلك عن طريق آباء الكنيسة قبل ابتداء العصر الوسيط ذاته ، أو عن طريق العرب واليهود واتصالهم بالحضارة الاغريقية —. ثم نجد الاستاذ يقرن منهجه التحليلي هذا بوجهة نظر تركيبية ، تبدو منها الفلسفة في العصر الوسيط ، كما يبدو لنا الكائن الحى : فلدينا أولا بذور هذه الفلسفة كما عمل علي نشرها آباء الكنيسة ، ثم ميلاد الفلسفة فى القرن العاشر ، ثم نشأتها وترعرعها حتى تبلغ ذروتها في القرن الثالث عشر ، ثم انحلالها وانتهاؤها فى نهاية القرن الرابع عشر .

ومن ناحية أخرى ، يتحد هذا المنهج التاريخى التركيبى عند حضرة الاستاذ بمنهج فلسفى ، تُعتبر على ضوئه نظريات العصر الوسيط لا كحوادث عقلية روحية فى الماضى البعيد، بل كمحاولات خطيرة عنيفة للبحث عن الحقيقة ولتكشف معنى العلم . ولا تظهر آثار الموقف المذكور فيما يخصصه الأستاذ من صفحات للقديس توما الاكوينى فحسب ، بل نجدها أيضا فى فصوله عن الفلاسفة السابقين لهذا الفيلسوف او اللاحقين له ، هؤلاء الذين حادوا عن جادة الحق واتبعوا طرقا لا

يقرها العقل ، سواء من أسرف منهم في ادخال حقائق الوحى فى ميدان التفكير الفلسفي ، او عمل على فصل الوحى عن العقل فصلا أدى الى حرمان الفلسفة غذاءً روحيًا عظيماً ، كما أعد تمرد العقل على الدين والسلطات السياسية .

واذا كان القارىء يكسب بمطالعته الفصل الطويل الذى خصصه حضرة الأستاذ لتوما الأكوينى ثروة عقلية عظيمة ، فستنمى فيه مطالعته للفصول الأخرى ملكة الانتقـاد الدقيق ، وتعـده أحسن الأعـداد لاختيار الموقف الفلسفى الجدير بالعقل حقا .

وأظن أن فصول الأستاذ فى وليام أوكام وفي انتشار الاسمية من أجل فصول الـكتاب. فهو اذيوضح موقف مفكرين ضربوا بالقيم العقلية عرض الحائط ، يعنى فى الوقت ذاته باظهار العوامل التي انتقلت بالفلسفة من العصر المدرسى الى العصر الحديث ، وخاصة تلك التي أعدت مواقف التجريبيين أمثال هوبز ولوك وهيوم .

كتاب الاستاذ اذن واف بجميع ما يتوخاه من أغراض ، جدير بأجمل الثناء. وأن كنا نشكو فى بعض الاحيان ايجازه المفرط ، مما يجعله عسير الفهم على القاريء المتسرع على الأقـل ، فواضح من ناحيـة أخرى أن الفلسفة المدرسية تعرض لمسائل لا تناسب عقلية القارىء المتسرع — . ثم أن كنا نفضل، بصدد فيلسوف كتـوما الأكـوينى، على عـرض شـامل لجميع المسائل الفلسفية كالذى اتبعه الاســتاذ ، دراسـة لمسـألة واحـدة ، قل لمسألة « المماثلة » تظهر بصـددها شخصية الفيلسوف ، ويعطينا حلها مفتاح سائر المسائل ، إلا أننا نـقـدّر ما للعرض الشامل من قيمة ، لا سيما وأن الفيلسوف المذكور كان يعمل في دراسته لجميع المشكلات ، علي احترام العقل واستخدام حججه ، ولأن فلسفته لم تكن مذهبا من بين المذاهب ، بل كانت نظاما عقليا رائعا ، وتعبيرا هو أدق ما وصل إليه الفكر الغربى المسيحى في الميدان النظرى والعملى .

٣) يوسف مراد : مبادىء علم النفس العام

(دار المعارف سنة ١٩٤٨)

يجب علينا أن نبدأ بتهنئة حضرة المؤلف والثناء عليه ، فهو يعطى الجمهور العربى المثقف ، كتابا يفى بجميع الأغراض التي تتوخاها كتب علم النفس الغربية . ويعرض فيه لبعض مسائل علم النفس الهامة ، كالانفعال والسلوك والشخصية ، عرضا جديدا مبتكرا ، ويعبر عن مواقف النفس العميقة المعقدة خير وأدق تعبير .

وسنكتفى هنا بالاشارة الى الاتجاهات الرئيسية التى يتخذها المؤلف فى كتابه ويوفق الى الربط والتوحيد بينها .

للكتاب أولا مزية علمية تجريبية تجعله فى مستوى الكتب الغربية فى علم النفس: فسواء عرض المؤلف لظواهر هذا العلم ، أو عمل على استخلاص ما يجب استخلاصه من نتائج بصدد اكتشافاته ، أو قام بالتدليل على صحة موقفه في تفسير ظاهرة من الظواهر ، أودحض موقفاً يعارض موقفه ، فحضرته لا يقف عند وصف أو تحليل لبعض ظواهر معروفة شائعة تتناولها عامة كتب علم النفس ، بل هو يعمل على استقصاء ظواهر جديدة لا يتاح للانسان العادى معرفتها ، راجعا فى دراستها الى الطرق التجريبية التي يلجأ اليها علماء النفس الغربيون ، مبينا طبيعة هذه الطرق ومزاياها . ثم ، علاوة على ما تظهره له ملاحظة ذاتية دقيقة لأحوال النفس ، وعلاوة على ما تقف عنده منها ملاحظة موضوعية صادقة ، يعرض المؤلف الى النتائج التى وصل اليها كل من علم وظائف الأعضاء والتشريح ، بصدد أعضاء ووظائف الجسم المرتبطة أوثق الارتباط بأحوال النفس ، مشيرا فى مناسبات مختلفة الى مظاهر كنتيجة لهذا الارتباط ، من علوم جديدة متفرعة من علم النفس لم يسمع بها علم النفس القديم : كعلم النفس المقارن ، والتحليل السيكولوجى ، وعلم النفس الفردي ، والطب

النفسى الجسمى الذى خصص له صديقنا مصطفى زيور فصولا جديدة قيمة .

وللكتاب ثانيا ناحية عملية تطبيقية تجعله لازما لمن يعنى بتربية الأطفال ، ويتتبع تطورهم الانفعالى والعقلى . ويجد المعلم فيه عونا كبيرا له بصدد ما قد يلقاه عند تلامذته من مشكلات نفسية وخلقية . بل يستطيع اطباء الجسم والنفس ايضا أن يطالعوا فيه فصولا رائعة ، بعضها مخصص لدراسة الانفعال، والبعض الآخر لدراسة الذاكرة،والبعض الأخير للشخصية . أما ما كتبه المؤلف فى علم النفس الجنائى (راجع ١١٤ و ١١٧) ، وفى وصف تجربة لارسون لمقياس الضغط الدموى عند بعض المجرمين، ومايذكره عن علاقة الافراز العرقى بانفعال الفرد ، فهو جديد لم نعهده فى كتب علم النفس التي كنا نطالعها حتى سنة ١٩٣٩ .

وللكتاب ثالثا اتجاه يصح أن نسميه منهجيا «ابستمولوجيا» . ويمكننا أن نشبهه لذلك بكتب اميل ميرسون فى العلوم الفيزيقية او كتاب لالاند فى نظرية التطور ، أو كتب كورنو فى المعرفة العلمية والتاريخية . فهو يرجع مرات لمسألة المنهج ، موضحا الموقف اللازم اتخاذه لدراسة أحوال النفس ، مميزا اياه من المواقف المتبعة في العلوم الفيزيقية وغيرها . ويستفيد حضرة المؤلف بهذه المناسبة من فكرة ظهرت فى الفلسفة العلمية الفرنسية فى أواخر القرن التاسع عشر ، مضمونها أن ظواهر العلم ليس لها خصائص ثابتة ، وقوانينه ليست قوانين عامة، بل الظواهر متغيرات، والقوانين نتائج احصاءات (راجع ص ١٢ ، ٣٥٠ ، ٣٥١) . وليس أبلغ على مزية هذا الاتجاه ، من عدم اكتفاء الاستاذ بالتمييز بين العوامل الثابتة فى السلوك النفسى وبين العوامل المكتسبة ، وعزمه على دراسة حقيقة التغير النفسانى فى ذاته . ونجد مثالا طيبا على قيمة هذا الاتجاه ، عندما يتكلم حضرته عن الوظيفة الدائرية اللولبية للتفكير الانسانى: فالتفكير يتقدم ولكنه يرجع ادراجه، والطفل اذ يتكلم يصغى لصوته ، كما أن حكم الاحساس ينعكس علي ذاته فيظهر الادراك الحسى، كما ينعكس

الشعور على نفسه فتظهر الشخصية بتمامها . « ولا داعى للقول أن الخط الذى يقفل الدائرة يبتعد عنها لتكوين دائرة جديدة . أما اذا اقتصرت الحركة على مجرد الدور بدون التقدم الى الامام ، وقع الشخص فيما يعرف بالحركات الآلية النمطية ، أو بأحلام اليقظة أو بالتفكير الخيالى » (٢٥٦).

ثم نقول أخيرا أنه اذا كان حضرة المؤلف لا يخل لحظة بقاعدة من قواعد البحث العلمي التجريبي ، فهو لا ينسى ما لاعتبارات خارجة عن العلم من منزلة وخطر في دراسة الظواهر النفسية .

فمن ناحية نجده ، يقرر عدا الجانب التطبيقى لعلم النفس ، ما لأفكار كالغاية والقيمة والمعيار من أهمية : لا لأن الأفكار المذكورة فروض عملية تسهل دراستنا لهذه الظواهر ، بل لأن حقيقتها متغلغلة في حياة النفس ، في تصور الانسان لسلوكه المستقبل ، وفى نضوج تفكيره وتكامل شخصيته . نجد من أبرع ما طالعناه فى الكتاب السطور المركزة التى كتبها المؤلف فى طبيعة الانفعال ووظيفته (ص ١١١) ، ما للانفعال من تأثير ذاتى في الجسم ، وما له من دلالة من حيث هو أداة للتعبير الخارجى ، تنتهى بتحرير الانسان من الانفعال ذاته . وعندما يوضح المؤلف مظاهر الانفعال المختلفة ، يشرح كيف أن الانفعال سلوك انساني غير موفق ، أى لا يصل بالانسان الى تحقيق غايته فى الحياة . - ويقرر حضرته انه لا يمكن فهم السلوك الا بالنسبة لغاية السلوك ، كما أنه لا يمكن وضع مشكلة الارادة وتحليل هذه الوظيفة السامية ، الا اذا اعتبرنا غاية الفعل الارادى ، غاية يتصورها الانسان قبل وأثناء القيام بالفعل ، وإلا إذا اعتبرنا قيمة هذا الفعل الخلقيه والاجتماعية ، وقدرنا على اعلاء معنى القيمة على الحوافز الحسيه البيولوجية . غير أن أهم ما يسترعى النظر بهذا الصدد ، هو نجاح المؤلف أتم النجاح فى تطبيق المنهج التكاملى : نعلم أن المؤلف لا يعتبر الظاهرة النفسية « كمملكة فى مملكة » على حد قول اسبينوزا . انما الانسان كل

يجمع في وحدة تامة ظواهر مصدرها الجسم والنفس الشاعرة والمفكرة، والمجتمع أيضا. وان كان المنهج التكاملي يعطى أطيب ثمراته فى الفصول الأخيرة من الكتاب ، عند ما يدرس المؤلف الذكاء والارادة والشخصية ، فانه يوجه نظر المؤلف توجيها مفيدا فى نواح أخرى . نجده يقول مثلا بصدد ضرورة الاعلاء (sublimation) لعلاج الأمراض النفسانية ، أن هذه العملية «لاتنجح في صرف الطاقات المكبوتة بطريقة ملائمة، الا اذا أعيد تنظيم الشخصية بأكملها على أساس جديد» (١٥٣) .

ومن ناحية أخرى ، فالمؤلف لا يبحث فى ظواهر النفس كما لو كانت موضع دراسة علمية فحسب ، بل هو فوق كل شيء فيلسوف درس الفلسفة وعرف منزلتها من مختلف الدراسات العلمية ، مما يدعوه فى بعض الاحيان أن يتعدى دراسة علم النفس ، مشيرا لما حدث للعلوم الوضعية ذاتها من رجوع أخير مفاجىء للموقف الفلسفي. نجد المؤلف يعمل بصدد كثير من المسائل ، على وضعها بطريقة فلسفية : فعندما يدرس الاحساس يشير الى منزلة الحكم منه ، وما للاحساس من قوة مميزة تحوله فيما بعد الى ادراك . وكذلك عند ما يشرح طبيعة الفكر الرمزية ، يشير الى المسائل الخطيرة التى اثيرت بمناسبة المعانى وقيمتها الموضوعية — .ولا أشك على كل حال فى أن اختيار المنهج التكاملي كالمنهج اللازم لعلم النفس، له دلالته الفلسفية البعيدة .

لنهنىء المؤلف اذن على ما وصل اليه من نتائج وعلى ما جمع بينه فى كتابه من مختلف الاتجاهات لدراسة علم النفس.

٤) J. O. Wisdom: The *Metamorphosis of Philosophy* (El-Maaref Press, Cairo 1947).

قد تبدو الفصول الأولى من هذا الكتاب عسيرة على من لم يتعود لغة المنطقيين المعاصرين وأساليبهم فى البحث والمناقشة ، وقد يمر على القارىء صفحات لايدرى

مرمى المؤلف منها ولا موضـــوع دراسته بالضبط. إلا أنه حالما يدرك الموضـع الذى تظهر فيه أغراض المؤلف واضحة ، فلن يطالع الكتاب إلاويمضى فى مطالعته، ولن يمضى فيها إلا لينتهى منها وقد أخذته معانى الكتاب وملأته إعجابا بالمؤلف، لا لدقة تفكيره وجدة نظرياته وحدها ، بل للطف عبارته ورشاقتها أيضا . وإن كان كاتب هذه السطور لا يسعه الاتفاق مع حضرة المؤلف فى أمور كثيرة ورد ذكرها فى الكتاب ، فانه موقن بأن كل من يحب الفلسفة فى مصر سيطالع الكتـاب وسيعجب بمؤلفه .

الكتاب ، وعنوانه ، على وجه التقريب : « انقـلاب الفلسـفة » ، يقع فى جزئين ، يعالج المؤلف فى أولها المنطقيـين المعاصرين ،من تلامـذة راسل (Bertrand Russell) ومور (G. E. Moore) والحجج التى فندوا بها نظريات الفلاسفة، وبالأخص خصوم المذهب التجريبى كأفلاطون وديكارت وكنت وهيجل ومن على شاكلتهم . ويخصص المؤلف الجزء الثانى من الكتـاب لشرح موقفـه الشخصى من الفلسفة النظرية وأصحابها المشار اليهم . وإن كان الجزء الأول يبـدو أطول مما يجب من الجزء الثانى، فلأن المؤلف لاينكر قيمة هجمات المنطقيين المعاصرين على الفلسفة ، ولأنه ربما كان أيضا متأثرا بموقف هؤلاء المهاجمين .

ان نظرنا إلى ما وجهه المنطقيون — ويسميهم المؤلف المحللين المنطقيين — (لأنهم يحللون الفكر ويرجعونه إلى أصوله)— من الانتقادات إلى الفلسفة النظرية ، وجدنا صيغتها جديدة وفحواها قديما . ويعترف حضرة المؤلف بذلك عندما يقرب بين موقف هؤلاء ، وبين مواقف باركلى وهيـوم فى القرن الثـامن عشر والوضعيـين كماخ وبيرسون وغيرهما فى القرن التاسع عشر (راجع ٤٦—٤٩) . يرى المحلل المنطقى أن كل كلمة يستخدمها العالم أو المفكر — سواء ابتكرها أو استعارها من لغة الناس المعتادة — لابد من إرجاعها الى المعنى الذى تؤديه فى حديث الناس وتفكيرهم

المعتاد . أما هذا المعنى ، فمن المسلم به أنه أمر أو جملة أمور محسوسة نتعلمها بالتجربة. يجب بعد ذلك تطبيق نفس الشرط على القضايا : فحدودها وما بين حدودها من علاقات يجب تعيين معناها ، ومعناها راجع إلى وقائع ملموسة فى التجربة . نصل أخيرا إلى قضايا لها أكثر من غيرها صفة العموم ، لأنها لا ترجع فى مكوناتها إلى التجربة ، بل تملى على التجربة قوانينها . نقصد التكلم عن الفروض الطبيعية. يشترط المحلل المنطقى بصددها إما أن يكون من الممكن تحقيقها مباشرة فى التجربة ، أو إرجاعها إلى مكونات يصح تحقيقها، أو أخيرا — وهو ما يحدث أغلب الأمر فى العلوم الطبيعية —، أن تسمح لنا الفروض بتقرير نتائج نستطيع تحقيقها .

ان نظرنا إلى الفلاسفة المشار اليهم ، لاحظنا أنهم لا يراعون واحدا من الشروط السابقة : فالمعانى التى ينسبونها لألفاظهم ، لا أصل لها فى الاستعمال المعتاد ، ولا مرجع مباشر أو غير مباشر فى التجربة الحسية . ثم القضايا ، كحدودها والعلاقات بين الحدود،خالية من أى معنى، لعدم رجوعها إلى الاستعمال الشائع وإلى التجربة الحسية. وأخيرا ، نظريات الفلاسفة يمكن ردها إلى ما سبق : فيها إدعاء للتفكير والنظر ، ولكنها عديمة المعنى ، لامبرر عقلى لها على الاطلاق —. وقد نكون متساهلين مع الفلاسفة ، إذا اعتبرنا نظرياتهم فروض كاذبة . الحقيقة أن الفرض العلمى الكاذب، كفرض الأثير ، له قيمة عملية أو سلبية على الأقل: أى لوكان صحيحا لصدرت عنه نتائج يمكن الاستدلال بها على صحة الفرض . أما الفرض الميتافيزيقى فلا يحتمل صفة الصحة ولا صفة الخطأ ، ولا معنى إذن لاستدلال الميتافيزيقيين به على الظواهر .

يخلص المنطقيون إلى القول : أن قضايا الفلسفة النظرية عديمة المعنى (Nonsense) . ومن يعرف الانجليزية يدرك مباشرة أن عدم المعنى هذا ، هو ناشىء من عدم استناد المفكر إلى الحس والتجربة الحسية فى استخدامه القضايا المذكورة . وليس أظهر على هذا التعادل بين مضمون المعنى ودلالته التجريبية ،

من مناقشة يتخيلها المؤلف بين الفيلسوف النظرى والمحلل المنطقى : فعند ما يتهم الثانى الأول باستخدام الفاظ وقضايا دون معنى ، يرد عليه الآخر بأنه يفترض قضايا عديمة المعنى لأنها تدل على ما يتعدى الحس والمحسوس (Transense) . وهكذا يذهب كل من الفيلسوف والمحلل المنطقى فى طريقه ، دون أن يرجع واحد منهما عن رأيه، ودون أن يصلا إلى نتيجة مرضية .

نقطة خطيرة يتأدى اليها الفكر الانسانى ، وقد يتجه منها إلى شك مطلق يذهب بالعقل وبقيمه : هذا هو ما دعا المؤلف إلى النعى على كل من الموقفين وإلى البحث عن طريق جديد يأذن بتحول فى تاريخ الفكر وبانقلاب الفلسفة ذاتها (Metamorphosis of Philosophy).

نعم ! يتفق حضرته مع المنطقيين على أن قضايا الفلسفة النظرية ليست قضايا علم ومعرفة ، ولا تعبر عن حقيقة أو مجهود نحو الحقيقة . ولكنه يتساءل : أليس هذا لأن الفيلسوف لم يرم بالفعل (سواء كان شاعرا بمرماه أو لم يكن) إلى البحث عن المعرفة والحقيقة ، ولم يقصد اطلاعنا على شىء من العالم الخارجى ، بل إن جل محاولاته كانت تؤدى إلى الكشف عن شىء فى نفسه ؟

وان نظرنا إلى تعدد الفلاسفة اتضح لنا أن ما يقوم بينهم من تباين لا يرجع إلى تفاوتهم فى الاعتماد على المنطق أو التجربة ، بل إلى طابع شخصى يتعين فى ما يختارونه من مشكلات وفى مايعدونه لها من حلول — . وقد تظهر هذه المشكلات والحلول للمؤرخ السطحى ، كمحاولات تحاكى مجهود العلم للوصول إلى الحقيقة الموضوعية ، ولكن من ينظر وراء الستار الخارجى المصنوع من الكلمات الجوفاء ومن أشباه الحجج ، يتبين أن هناك مشكلات تربك الفيلسوف حقا من حيث لا يدرى ، مشكلات صادرة عن لا شعوره .

يخلص المؤلف إلى القول أن الفلسفة ليست موضع دراسة المحلل المنطقى (logical analyst) وانتقاده ، بل هى موضع معالجة المحلل النفسانى

(psycho-analyst). وكما أن دراسة أمراض النفس تحتاج الى أن يفحص المعالج المريض، فى ظاهره وكلامه وسلوكه الخارجى في المواقف المعتادة، للتأدى من هذا الفحص إلى الكشف عما يحويه اللاشعور من رغبات نفسية مكبوتة، فكذلك يتطلب فهم الفلاسفة أن نعمد إلى البحث فى لغتهم ومشكلاتهم، فى ظاهرها الموضوعى اللاشخصى، بغية اكتشاف ما يحمله لاشعور كل واحد منهم، من رغبات شخصية عمل طوال حياته على إخفائها .

نعرف أن فرويد (Freud)، مؤسس مدرسة التحليل النفسى، قد حاول فى نهاية حياته تطبيق منهجه فى دراسة أصول الأديان والحضارات والمجتمع . وإن كان الدكتور وزدم يدين لفرويد بشىء من نظرته إلى الفلسفة والفلاسفة، فقد عمل من ناحيته على صبغ هذه النظرة بصبغة علمية دقيقة، وعلى تأسيسها على معرفة مناهج علم النفس، وعلى إلمام واسع بالفلسفة وتاريخها . وكلنا يعرف ما قام به حضرته، على ضوء منهجه هذا، من دراسات فى ديكارت وباركلى وشوبنهور .

ولا شك أن الموقف الذى يقفه حضرته غاية فى الخطورة، ويتطلب من المتخصصين مجهودا كبيرا لفهمه ولمناقشته، غير أننا نكتفى الآن بالاشارة إلى بعض ما يخالجنا من شكوك بصدد هذا الموقف، مرجئين لفرصة أخرى دراسته بالتفصيل .

نقول : إن المؤلف دعم فرضه دعما قويا، وذهب إلى أبعد مما ذهب اليه المحللون المنطقيون، إلا أنه لم يفعل ذلك إلا بعد أن استخلص من انتقادهم أن تفكير فلاسفة كأفلاطون وديكارت وهيجل، شاذ على الأقل، خارج عن أصول التفكير المعتاد وعن منطقه السليم (ص ٢١٤) . ولكن يحسن بنا ألا ننسى أن ما يسميه المحللون المنطقيون تفكيرا عاديا ومنطقا سليما لهو تفكير مقياسه الحس والتجربة الحسية. فيكون شذوذ التفكير الفلسفى الذي يهاجمه المنطقيون ويعتبره

المؤلف عارضة مرض يفتقر إلى تحليل ومعالجة ، ليس إلا خروجا من جانب هؤلاء المفكرين الفلاسفة عن منطق الفلسفة التجريبية وأصولها . وكما كانت هجمات المنطقيين على الفلاسفة ، كما لاحظ المؤلف (ص ١٧٦) ، صادرة عن إيمان فلسفى يعارض إيمانا آخر ، فمعالجة المؤلف للفلاسفة يستند حتما إلى إيمان فلسفى معين .

ولكن قد نكون مغالين فى استنتاجنا هذا ، متجاهلين ما يرمى اليه المؤلف من أغراض إيجابية علمية : فحضرته عندما يفرض اللاشعور والرغبات المكبوتة ويفسر بفرضه هذا نظريات الفيلسوف ، لا يرمى ذاته إلى وضع فرض فلسفى . ولا يعنيه من فرضه إلا قيمته التجريبية العملية، أى صلاحية التحليل النفسانى الذى يقوم به على كل فيلسوف يدرسه . ولكننا نعرف أن القيمة العملية للتحليل النفسانى موقوفة ذاتها على مبلغ توفيق المعالج فى كل حالة يعرض لها ، أى بالمعنى الصريح ، على وصول المعالج إلى أن يسترجع المريض صحته . وإذا كانت غالبية مرضى الفلسفة غير عائشين الآن ، فلم يبق للمؤلف فى سبيل تحقيق فرضه ، إلا إجراء العلاج على كبار الفلاسفة المعاصرين كهيدجر أو سارتر أو برتراند راسل .

وحضرة المؤلف من المعجبين براسل وتفكيره ، ويعتبره مع أينشتين وفرويد من القليلين الحقيقين بأن يلقبوا فلاسفة ، وذلك لما يجتمع فى تفكيرهم من صفات الشمول والاحاطة والدقة والاتزان . ولا يغرب عن بال المؤلف بالطبع أن هذه الصفات قد اجتمعت فى أكثر من واحد من الفلاسفة الأقدمين والمحدثين الذين يتنقدهم المحلل المنطقى ، أمثال أفلاطون وأرسطو، وكلهم كانوا رجال علم دقيق فى الميدان الرياضى أو التجريبى ، قبل أن يكونوا رجال أحلام وأوهام .

ونحن نشارك المؤلف إعجابه برجل مثل برتراند راسل الذى ، بالرغم من إيمانه الوثيق بالعلم الوضعى وبقيمته العقلية والروحية ، لا يشك لحظة واحدة فى قيام مسائل اختص بها الفلاسفة وحدهم ، أولاها مسألة الحقيقة وطبيعتها (راجع راسل :

تاريخ الفلسفة الغربية ص ٨١٥)، وراسل ذاته يعترف، بأن الفلسفة إن كانت تتأثر بما يعترى المجتمع من تطورات وما يصيب النفس من أزمات ، إلا أن هناك مسائل يستحيل على غير الفيلسوف أن يعالجها .

٥) Condillac : *Oeuvres Philosophiques* Volume I
Ed. Georges Leroy. (Presses Universitaires. Paris 1947).

ان ما نلحظه فى مصر من مجهود عظيم لنشر أصول الثقافة العربية نشرا محققا متقنا لهو مثال على ما يحدث فى البلاد الغربية الكبيرة ، فى كل عصر تشعر فيه هذه البلاد بأنه لا قوام لثقافتها إلا بربط الحاضر بالماضى ، وبالافادة من آثار الماضى البعيد والقريب ، فى سبيل تفهم مشكلات الحاضر وحلها .

وهاهى ذا « دار النشر الجامعية » — وهى أعظم دار للطباعة فى فرنسا — تقوم بمجهود جليل فى هذه الناحية ، تعلن عن عزمها — بالرغم مما تعانيه فرنسا من صعوبات اقتصادية واجتماعية — على اصدار سلسلة لأعمال الفلاسفة الفرنسيين الكاملة ، فكلفت للاشراف على ذلك لجنة ثقافية عليا يرأسها الأستاذ أميل برهييه. وإذ لم يكن من المستطاع ضمان ظهور مجلدات هذه السلسلة فى النظام التاريخى اللازم ابتداء من فلاسفة القرن السادس عشر ، سمحت اللجنة بأن تكون أعمال كوندياك (Condillac) الفلسفية الكاملة ، باكورة السلسلة المذكورة . وقد نشر هذه الأعمال الأستاذ جورج لروا ، بعد مقارنة دقيقة لطبعة أعمال كوندياك الكاملة التى ظهرت فى سنة ١٧٩٨ ، بمخطوطاته المودعة بالمكتبة الأهلية بباريس . وخصص حضرته مقدمة لهذه الطبعة ، عرض فيها عرضا موجزا مركزا لحياة كوندياك وفلسفته وتأثيره — . وكوندياك ليس مجهولا لدارسى الفلسفة ومؤرخيها ، فهو يكاد يكون الكاتب الوحيد فى القرن الثامن عشر (ولد فى سنة ١٧١٢ وتوفى فى سنة ١٧٨٢) الذى خصص حياته ومؤلفاته للمسائل الفلسفية البحتة ، دون أن يضيع وقته فى

الأدب أو الدين أو السياسة ، كهؤلاء الذين سُمّوا «فلاسفة» فى ذاك العصر .

وقد وزع الأستاذ لروا أعمال كوندياك على مجلدين يعطينا فى أولهما مؤلفات الرجل فى المسائل الفلسفية الرئيسية ، كمقاله «عن أصل المعارف الانسانية» وكتبه فى «المذاهب الفلسفية» وفى «الحيوان» وفى «الاحساسات» ، منتهيا بدروس كوندياك الشهيرة لأمير بارم . وقد وعد الأستاذ لروا بأن ينشر قريبا المجلد الثانى والأخير لمؤلفات كوندياك فى المنطق وفلسفة الرياضيات والاقتصاد السياسى .

عندما نلقى نظرة على هذا المجلد الضخم ، ونتصفح أوراقه ، يجول بخاطرنا سؤال هام : هل هناك من حاجة ماسة لنشر أعمال هـذا الفيلسوف قبل غيره ، أو ليس هناك من بين الفلاسفة الفرنسيين من يمت للمعاصرين ولمشكلاتهم ، بروابط أوثق من كوندياك ؟ نقول : وإن كان لا مفر من الاجابة بالايجاب ، فليس فى هذا باعث كاف فى نظرنا على أن نقصر عنايتنا على فلاسفة دون آخرين . بل ربما كانت الشقة العقلية الكبيرة القائمة بيننا وبين كوندياك ، باعثاً لنا أقوى من أى باعث، على مطالعته وتعرف مشكلاته والاطلاع على أسلوب تعبيره ، وعلى طرق وضعه وحله للمشكلات . فليس هناك ما ييسر فهمنا للمفكرين ، وإفادتنا منهم ، أكثر من المسافة التى نتكلم عنها. وان تمعنا فيما تنشره اليوم «دار النشر الجامعية بفرنسا» من أعمال كوندياك ، وجدنا أكثر من سبب يحبب الينا مطالعتها .

(أولا) كوندياك مؤلف فلسفى عظيم يكتب النثر الفرنسى فى عصره الذهبى . يعبر عن أفكاره أوضح وأسلس تعبير ، وقلما نجد من بين نصوص الفلسفة الفرنسية، عدا «تأملات» ديكارت وبعض مؤلفات ملبراش ، ما يعادل كتابات كوندياك ، فى وضوحها وتنظيمها للأفكار . وظاهر لنا أن كتاب العصر الحاضر من الفرنسيين والألمان على الأقل هم فى أشد الحاجة إلى هاتين الصفتين .

(ثانيا) تمتاز عقلية كونديلك بأنها عقلية فيلسوف منتقد لا يقبل الأمور على علاتها ، ولا يرضى بما يمليه الخيال على الناس من أفكار رائعة، ينأى بقدر المستطاع عن الصروح الميتافيزيقية الشاهقة ، مكتفيا بتحليل دقيق للنفس الأنسانية ومحاولاً الكشف عن أصول تفكيرها — . وإن كان الفلاسفة بعد كونديلك محقين فى عدم اقتناعهم بصلاحية موقفه وبمحاولته إرجاع المعارف كلها الى الحس والتجربة الحسية، إلا أنه قد يفوتهم أن كونديلك هذا، باعترافه الشخصى، لم يكن ميتافيزيقيا ، ولم يدّعِ لحل جميع مشكلات الوجود ، بل كان فيلسوفا منهجيا وضع بعض مسائل هامة وضعا مفهوما معقولا .

(ثالثا) نؤمن اذن على ما يقوله الأستاذ لروا فى مقدمته وعلى انتقاداته الشديدة للموقف الحسى . غير أننا نجد من اللازم أن ننبه ، بمناسبة صدور هذا المجلد ، إلى مجهود كونديلك لتعدى الخلافات بين أصحاب المذهب الحسى وأعدائه .— يقوم كونديلك بدراسة الانسان والظواهر الانسانية ، دراسة تكشف عن أشياء كثيرة كانت خافية على الناس ، على الأقل فى القرن الثامن عشر . فهو من ناحية عندما يفرض حالة أصلية يبتدىء عندها نمو العقل وظهور المدركات ، يشير إلى ضرورة مراجعة كل فكرة من أفكارنا مراجعة تظهر لنا مقدار اتصال هذه الفكرة بالواقع ومبلغ توغلها فيه . ومن ناحية أخرى، فالقول بأن قيمة كل فكرة موقوفة على تجربة حسية دقيقة ، لايعنى بالمرة ضرورة إرجاع المعارف إلى إحساسات موضوعية كاحساسات البصر ، بل يشير بوجه عام إلى أن الانسان يصل إلى مرحلة الادراك بعد عدة مراحل تسود فيها عوامل حركية انفعالية . وهذا القول مما أثبتت صحته اكتشافات علم النفس المعاصر .

ولا يقف كونديلك فى «المقال عن أصل المعارف الانسانية»، وفى مؤلفاته الأخرى، عند إظهار الأصول الواقعية للمعرفة العقلية ، بل يدرس على نحو طريف ظواهر لغوية

وفنية واجتماعية يمكن اعتبارها مع كوندياك أصولا لا لتجربة الفرد وحده بل للتجربة الانسانية جمعاء . وليس هناك من بين ما كتبه ما هو أجدر بالاطلاع، من فصوله فى أصول القصص والشعر والغناء والرقص والموسيقى . فهو يصل بعددراسة تاريخية وعلمية لهذه الأصول ، إلى تثبيت قيمة المنهج الذى اتبعه فى دراسة عقلية الفرد .

وأظن أن معالجة مسائل متعلقة بالانسان تبعا لطريقة المؤرخين وعلماء الاجتماع، والعناية بظواهر اللغة وأصول الفن ، مما يقبل عليه كل محب للثقافة الانسانية .

لذلك فنحن نشكر «دار النشر الجامعية بفرنسا» على افتتاحها سلسلتها الفلسفية العظيمة بهذا المجلد، كما نشكر الأستاذ لروا على ما قام به من مجهود لتحقيق النص وتنظيم أعمال كوندياك ، على نحو يجعله فيلسوفا حيا بمعنى الكلمة .

نجيب بلدى

السحر وعلاقته بالدين
عند الشعوب البدائية

بقلم
الدكتور السيد محمد بدوى
مدرس علم الاجتماع

مقـــدمة :

كانت مسألة العلاقة بين السحر والدين من أهم المسائل التى شغلت أذهان الباحثين الاجتماعيين منذ أن خطت الأبحاث الاجتماعية خطوتها الأولى فى دراسة الشعوب البدائية . فأثار العلامة فريزر Frazer هذه المسألة فى مؤلفاته الضخمة التى تعد من أهم المراجع وأدسمها مادة فى دراسة الشعوب البدائية (١) وحاول أن يحدد بالدقة ماهية هذه العلاقة ومدي تأثير السحر فى مظاهر الحياة الاجتماعية . ثم جاء بعده كودرنجتون Codrington (٢) ودرس فكرة ال (مانا) Le Mana أو القوة السحرية عند الشعوب البدائية . ومنذ ذلك الحين ظلت هذه المسألة مثار النقاش والجدل لا بين علماء الاجتماع فحسب بل وأيضا بين المؤرخين ورجال القانون والفلاسفة وعلماء اللاهوت فاهتمت كل طائفة من هؤلاء ببحث ناحية خاصة من المسألة . ووجه علماء المدرسة الفرنسية من أنصار دوركيم اهتماما خاصا لدراسة مسألة السحر بوجه عام والى تحديد مدي تأثير العقيدة السحرية على الناحية التشريعية بوجه

---

(١) أهم مؤلفات فريزر هي *The Golden Bough* 3ème édit. en 7 Vol. 1911-15.
The Magic Origines of Royalty 1905.
La Tâche de Psyché; trad. Française 1909.

(٢) وصف كودرنجتون عقيدة المانا فى كتابه Codrington : *The Melanesians* 1891.

خاص . ومن علماء هذه المدرسة الذين اشتغلوا بهذه المسألة مـوس Mauss (١) و هوفلان Huvelin (٢) كما ساهم في بحثها أيضا العلامة ليفي برول Levy-Bruhl وتعرض لها من نواحي مختلفة في كتبه عن العقلية البدائية (٣) .

ولكن على الرغم من كثرة هذه الابحاث والتفسيرات المختلفة التي استعان فيها أصحابها بالتعليل المنطقي الى جانب ما جمعوه من الوثائق والمعلومات عن حياة الشعوب البدائية فان المسألة الرئيسية وهي تحديد العلاقة الحقيقية بين السحر والدين ومعرفة الوظيفة التي يؤديها السحر في حياة المجتمعات البدائية من حيث علاقته بنشأة الفن والعلم والأخلاق والتشريع كل هذه المسائل ظلت موضع خلاف بين الباحثين ولم يصلوا فيها بعد الي رأي نهائي .

فمنهم من يقول بأن السحر نشأ عن الدين بعد أن أفسد بعض عناصره الأخلاقية وحولها الى ناحية الشر ومن أنصار هذا المذهب آليه Allier (٤). أو أنه نتيجة لبزوغ فكرة الفردية بعد أن كان الطابع الجمعي يسيطر على المجتمعات البدائية وأيد هذه الفكرة دوركيم (٥) وهوفلان . ومنهم من يعتقد علي العكس بأن الدين هو الذى خرج عن السحر ومن هؤلاء العلامة فريزر . كما أن هناك طائفة ثالثة وعلى رأسها ليفي برول تعتقد أن محاولة فصل السحر عن الدين أو القول بسبق أحدهما على الآخر إن هي الا محاولة عقيمة فالسحر والدين مظهران لفكرة واحدة أوظاهرة

---

(١) راجع مقال موس وهوبرت في المجلة الفرنسية لعلم الاجتماع

Mauss: *Esquise d'une théorie générale de la magie* (en collaboration avec Hubert). Année Sociologique 1902-1903.

(٢) Huvelin: *La Magie et le Droit individuel* (Année Soc. 1906).

(٣) Lévy-Bruhl: *La mythologie Primitive, Paris* 1936.

L'Expérience mystique et les Symboles chez les Primitifs, Paris Alcan 1938.

(٤) Allier: *Magie et Religion* 1936 pp. 22 et suiv.

(٥) Durkheim: *Les formes élémentaires de la vie Religieuse* 1912.

خاصة تميزت بها عقلية الشعوب البدائية وسماها ليفى برول « ظاهرة ما قبل التدين «Pré-religion»(١)

وسنحاول فى هذا البحث أن ندرس أهم النظريات فى هذا الموضوع دراسة نقدية لنخلص منها الى اثبات حقيقة اخرى : وهى أن السحر والدين ظاهرتان لاصلة لأحداها بالأخرى من حيث الأصل وأن كلا منهما تقوم على أسس نفسية تختلف عن الأخرى .

وقبل أن نخوض في بحث الموضوع نحب أن ننبه الأذهان الى أن كلمة «سحر» في العربية يقابلها في اللغات الأوربية لفظتا magie ، Sorcellerie كما أن كلمة «ساحر» يقابلها لفظتا magicien ، Sorcier. وتعبر لفظة Sorcellerie بوجه خاص عما يسمونه أحيانا السحر الأسود La magie noire. الذى يكون مقصده الوحيد احداث الضرر ببعض الافراد . أما السحر بوجه عام فهو وظيفة اجتماعية تتلخص في القيام بشعائر خاصة لجلب الخير للمجتمع أو درء الخطر عنه كالشعائر التي تقام لجلب المطر حين يعم الجدب أو لدفع خطر عدو مغير أو لشفاء مريض الخ ....

نظرية جيمس فريزر :

تسمى هذه النظرية بالنظرية العقلية Théorie intellectualiste وذلك لأن فريزر أراد أن يفسر ظاهرة السحر عند البدائيين بالرجوع الى أسس عقلية لا دخل للعاطفة فيها . فنسب الى البدائيين أنهم توصلوا الي ادراك انتظام الظواهر الطبيعية وتتابعها فى تسلسل لاشذوذ فيه . ثم قال بأنهم فسروا هذا الانتظام بنوع من التأثير العاطفي بين الأشياء Sympathie (٢) ثم قام السحر بعد ذلك على تطبيق قوانين

(١) وقد نحا ليفى برول هذا النحو فيما يتعلق بالتفكير أو التعليل المنطقي توصف العقلية البدائية بأنها ''prélogique''. راجع كتابه *La Mentalité Primitive*

(٢) *Rameau d'Or* (Trad. Franç. de Golden Bough) p. 5 et suiv.

هذا التأثير العاطفي : وهى قانون المشابهة Loi de similarité وقانون الاتصال Loi de Contiguïté. «فالشبيه يؤثر فى الشبيه ، والأشياء التى كانت بينها صلة ثم انقطعت يظل يؤثر بعضها فى البعض كما لو كان الاتصال بينها ما زال قائما . كما أن التأثير ينتقل من قريب الى قريبه ومن الصورة الى ماترمز اليه ومن الجزء الى الكل » (١)

فالسحر فى نظر فريزر تطبيق وهمي لترابط المعاني عن طريق المشابهة والاتصال. هو علم science سابق لأوانه ولكنه علم يقوم على البهتان أو اذا شئت فانه فن عقيم أو نوع من الخرافة يستغلها المكرة وذووا الدهاء من أهل القبيلة للتسلط على عقول الافراد واخضاعهم لسلطانهم .

ولكن هذه الخرافة كانت فى نظر فريزر ذات نتائج بعيدة المدى فمنها خرج العلم والفن كما أنها أصل العقيدة الدينية . أما كيف نشأ العلم عن السحر فان فريزر يوضح ذلك بقوله ان السحر فى مظهره الخالص يقوم على الاعتراف بأن الاحداث الطبيعية تتتابع بالضرورة دون الحاجة الى تدخل عامل روحى أو مادى . وهذا المبدأ هو بعينه المبدأ الذى يقوم عليه العلم الحديث : مبدأ النظام ووحدة القوانين الطبيعية . فالساحر مقتنع تمام الاقتناع بأن العلة الواحدة لا يمكن أن تصدر عنها الا نتيجة واحدة وهو لا يمارس فنه الا إذا سار وفق قوانين الطبيعة على قدر فهمه لها. ولا يتوسل الى كائن آخر أقوي منه أو أكثر سلطانا كما يفعل الكاهن أمام معبوده ولا يحني هامته أمام جبروت الآلهة . هذا التشابه بين المبدأ الذى يقوم عليه السحر والمبدأ الذى يقوم عليه العلم هو الذى حدا بفريزر الى القول بأن العلم وليد السحر فكلاهما ينظر الى ما يحدث في الطبيعة لا على أنه وليد الصدف أو الأهواء الشخصية بل على أنه ناتج عن قوانين ثابتة تتتابع في نظام آلى. (٢)

(١) *Origines Magique de la Royauté* (Trad. franç.). pp. 35-38.
(٢) *Rameau d'Or* I. p. 64-65.

ولما كانت حياة القبيلة البدائية لا تستطيع أن تقوم بغير أداء بعض الشعائر السحرية من حين لآخر ، فقد أصبحت طبقة السحرة فى مركز ممتاز ، واقتصرت هذه المهنة بطبيعة الحال علي أكثر أفراد القبيلة ذكاء وأشدهم دهاء . وكان تحررهم من القيام بأعباء الحياة المادية مما ساعد كثيرا علي تفرغهم لبعض الأبحاث العلمية . هؤلاء السحرة أمثال صانع المطر والطبيب المشعوذ والساحر الزراعي والساحر المتنبيء هؤلاء جميعا هم أسلاف أطبائنا وجراحينا بل ومخترعينا في الوقت الحاضر (١) فالسحر ولو أنه وليد الجهل والوهم الا أنه أبو الحقيقة والحرية فقدساعد كثيرا علي تحرير الانسان من عبودية التقاليد .

أما عن علاقة السحر بالدين — وهو موضوع بحثنا — فان فريزر ينوه فى باديء الأمر بما بين الظاهرتين من تنافر في المظهر الخارجى . فأهم ما يميز الدين على حد قوله « الضراعة والتوسل من جانب الانسان نحو قوة عليا يعتقد أنها تسيطر على شئون الطبيعة وعلى حياته . وهذه الصفة وحدها قد تكون كافية لتظهر لنا تعارض الدين مع السحر والعلم على السواء (٢) فموقف الساحر هو موقف الآمر المتحكم . أما رجل الدين فانه يضرع ويتوسل وذلك لأن الأول يشعر أنه يواجه قوى قد تكون مماثلة له في طبيعتها أو أقل منه على حين أن الثاني مقتنع تماما بأنه يتوجه نحو قوة عليا خارجة عنه transcendante وتتحكم في مصيره . هذا التعارض بين موقفي الدين والسحر يفسر لنا العداء المستحكم الذى كان ينشب فى مختلف العصور بين السحرة والكهنة . فان غطرسة السحرة واستخفافهم بالقوي التي تسيطر على الطبيعة جلبت عليهم سخط رجال الدين الذين كانوا يقارنون هذا التحدى بخضوعهم وضعتهم أمام الشعور بعظمة الآلهة. ومما زاد هذ االشعوربالسخطما كانوا

(١) *Origine magique*... pp. 93-95.
(٢) *Rameau d'Or* pp. 66-67.

يشاهدونه من ثراء السحرة وتمتعهم بالجاه والسلطان دون عناء علي حين أنهم كانوا يقضون العمر فى التقشف وتعذيب النفس ويقطعون مرحلة طويلة شاقة في سبيل الوصول الى رضا الله والدخول فى رحمته .

ولكن فريزر يعود فيؤكد لنا أنه بالرغم من هذا الخلاف الظاهرى بين السحر والدين فان السحر هو الظاهرة الاجتماعية التي سبقت الدين من حيث الظهور وهو الأساس الذي نشأت عنه العقيدة الدينية . فقد نشأ الدين من أخطاء السحر وفشله فى كثير من محاولاته . إذ ظل الانسان مدة طويلة يعتقد أنه يستطيع بنوع من الخيال والاقتناع العقلي أن يكيف الأشياء كيف يشاء وأن يتحكم فى القوي الطبيعية كما يتحكم فى حركاته وسكناته ولكنه ما لبث أن اصطدم بمقاومة الظواهر الطبيعية له وعدم سيرها طوع بنانه . فعزى ذلك الي وجود قوى خفية خارجة عنه أطلق عليها اسم «الآلهة» ونسب اليها القوة والعظمة والمقدرة . ثم اضطرته هذه الصفات الى أن يقف منها موقف الخضوع والخشوع والي أن يتزلف اليها بالقرابين والصلوات والأدعية . ويدعم فريزر نظريته هذه بأسباب ثلاث :

(١) أن السحر بشعائره وطرقه واحد أينما وجد . واحد من حيث مبدؤه ومن حيث تطبيقاته العملية علي حين اختلفت الديانات حسب المجتمعات التي نشأت فيها والعصور التي ظهرت فيها . فكلية السحر Universalité وخصوصية الدين particularisation سببها أن السحر هو الطبقة الأكثر عمقا أو الجذور الأصيلة التي تفرعت عنها الديانات .

(٢) تتميز الظواهر السحرية بأنها بسيطة أولية على حين أن العقائد الدينية وما يتبعها من شعائر وطقوس تمتاز بطابع التعقيد الذي يرتكز في غالب الأمر علي تقدم الفكر . فقد اكتشف الانسان بعد ممارسة السحر أزمانا أن السحر قد يخفق فى كثير من الأحيان وحينئذ بدأ يشعر بضعفه وجهله وبقوته المحدودة . فمهد هذا الشعور

لظهور الديانات التي ما لبثت أن تغلبت على السحر وظهرت عليه .

(٣) نلاحظ فى بعض الديانات اختلاط شعائرها ببعض عناصر السحر كأن تحتوى هذه الشعائر مثلا علي صيغة الرجاء والأمر معا . ولا بد أن يكون ذلك قد حدث فى عصر الانتقال من السحر الي الدين فتعلقت بعض عناصر السحر بالعقائد الدينية وأصبحت جزءا منها . وأعظم مظهر لذلك الامتزاج ظهور الرجال الآلهة Les hommes-Dieux فى كثير من المدنيات الغابرة حيث كان الحاكم يجمع بين صفات الساحر والاله والملك (١).

***

أظهرت لنا الدراسات الحديثة وخصوصا دراسات ليفي برول خطأ فريزر الأساسى من حيث المنهج méthodologique . فقد بنى نظريته وما علق بها من تفسيرات مختلفة على مبادىء عقلية أومقولات Catégories تختص بها عقلية الشعوب المتحضرة وأراد تطبيق هذه المباديء علي العقلية البدائية . فنراه يتحدث عن التشابه Similitude والاتصال contiguité ، التناسق Ordre ، العلية Causalité دون أن يفرق بين ما قد يفهمه البدائى عن هذه المقولات وبين فكرة المتحضر عنها في الوقت الحاضر . ولذلك فانه قد نزع عن السحر كل عنصر عاطفي علي حين أن أهم ما يميز العقلية البدائية خضوعها لنوع من القوة الخفية لا تخضع لسلطان العقل وقد عبر ليفي برول عن ذلك بقوله ان العقلية البدائية تخضع لسلطان الروح pensée mystique (٢) فالبدائي يعتقد أن هناك قوي خفية تؤثر فى الأشياء تأثيرا قد لاتدركه الحواس ولكنه مع ذلك حقيقي ويعتقد كذلك أن هناك صلة خفية بين الأشياء وأن الشيء يمكن أن يكون هو وشيئا آخر فى وقت واحد (٣)

(١) Ibid. pp. 84-136.

(٢) راجع كتابه عن العقلية البدائية *La Mentalité primitive*

(٣) اطلق ليفى برول علي هذا النوع الاخير من التفكير البدائى اسم «قانون المشاركة» Loi de participation, وهو يناقض المبدأ المعروف فى المنطق باسم «مبدأ الهوية» Principe d'Identité.

كما أظهرت لنا دراسات موس وهوبرت عن موقف الساحر ووصفهما المسهب للشعائر والأفعال السحرية (١) خطأ فريزر فى اعتقاده أن الساحر شخص ماكر يستغل سذاجة الأفراد أى أنه يعتمد أولا وقبل كل شيء علي عقله في التأثير عليهم. فالحقيقة التي أثبتها البحث وأثبتتها المشاهدة أن الساحر يكون أثناء تأدية عمله في حالة ذهول وغيبوبة كالتي يقع فيها المتصوف حين تنتابه نوبة الاشراق فيغيب عن وعيه ولا يشعر بالمؤثرات الخارجية ويأتي بحركات غير ارادية . وهذه الحالة التى تعتريه Etat d'extase, de catalepsie تنتقل عن طريق التأثير وبفعل البخور والطبول والرقصات التي تصاحب العمليات السحرية — الى من حوله من مريديه . فتنتابهم النوبة التى تنتابه وهذا شرط أساسى لنجاح عملية السحر .

ثم ان العمليات السحرية ليست من البساطة كما يدعي فريزر بل هى على العكس شديدة التعقيد وتستلزم لأدائها شروطا كثيرة منها ما يتعلق بالمكان الذي يراعى فيه أن يكون نائيا عن المساكن كالمقابر والكهوف والمستنقعات والغابات حيث تتخذ الأرواح والشياطين مقامها المختار . ومنها ما يتعلق بالزمان الذي يجب أن يحدد بعناية فائقة من حيث الساعة واليوم والشهر وفصل السنة ويستدعي ذلك طبعا إلماما تاما بحالة الكواكب وأوضاعها حتى ليقال إن بعض السحرة الهنود يعتقدون أن من الشعائر السحرية ما لا تواتى الظروف لأدائه الا مرة واحدة كل خمسة وأربعين سنة . ومنها أخيرا ما يتعلق باختيار أدوات السحر نفسها وكيفية تحضيرها. فالساحر الذى يريد أن يشفي مريضا يذهب لجمع أعشابه فى ليلة قمراء أو عند شروق الشمس ويجمعها بنظام خاص مستعملا في ذلك إبهامه وسبابته دون الأصابع الأخري ويراعى ألا يمر ظله حين يسير علي الأرض التي يختارها لجمع أعشابه إلى غير ذلك من الظروف والملابسات التى لا يتسع هذا المقال لسردها .

(١) انظر : L'Année Sociologique 1902-03, pp. 20-85.

على أن مضمون السحر ذاته وما يحتويه من رموز واستدعاء قوى خفية كل ذلك يخرج به عن صفة البساطة . فهو ليس إذن كما يدعى فريزر عملية عقلية أو منطقية ولكنه صور رمزية وانفعالات ونزوع إلى نوع من الاتصال الروحى، حالة من حالات الضمير الجمعى لا يمكن تفسيرها تفسيرا عقليا وإنما يفسرها تحليل نفسية المجتمع ومعتقداته .

وقد وصل كودرنجتون Codrington من بحثه في هذه الناحية إلى اكتشاف فكرة الـ (مانا) Mana التى تخضع لها الظاهرة السحرية عند الشعوب الأولية :

عقيدة الـ (مانا) واتصالها بظاهرة السحر :

نظرية كودرنجتون:

عكف كودرنجتون على دراسة حضارة الشعوب الميلانيزية وهداه بحثه إلى اكتشاف عقيدة الـ (مانا) التي تسيطر على عقلية هذه الشعوب [١] وقد عرّف هذه العقيدة بما يلى :

« يعتقد سكان ميلانيزيا فى وجود قوة متميزة تماما عن القوة المادية . وهذه القوة تؤثر بطرق شتى إما لجلب الخير أو لجلب الشر . وهى تسهل كل شيء لمن يستطيع امتلاك زمامها ووضعها تحت سيطرته . هذه القوة هى الـ (مانا) : تأثيرها لا مادي ويمكن أن يقال إنه خارق للطبيعة surnaturel ولكن نتائجه تظهر على شكل مادى فتمنح القوة الجسمية أو الجاه أو السلطان . وهذه القوة لا تكمن في شيء بذاته بل يمكن لمن يعرف سرها أن يجعلها تسري في كل شيء فهى العنصر الفعال الذي يمكن الفرد من السيطرة على قوة الطبيعة وتوجيهها كيف يشاء . إذا امتلكها الانسان استطاع جلب المطر أو الصحو ، الهدوء أو العاصفة . كما أنه

(١) شرح كودرنجتون هذا الاكتشاف في كتابه The Melanesians 1899 الذى ظهر بعد كتاب فريزر The Golden Bough بسنوات قليلة.

يستطيع أن يشفى مريضا أو يجلب المرض لسليم وأن يتنبأ بالمستقبل ويجلب السعادة لشخص أو يبعد عنه الشقاء . والاعتقاد فى هذه القوة هو أساس السحر والشعوذة . فالسحرة والمطببون والعرافة كل هؤلاء لا بد لهم من امتلاك هذه القوة» .(١)

يتضح لنا من هذا التعريف أن كودرنجتون يرى أن الـ (مانا) هى القوة السحرية ، وهو يطلق عليها فعلا في كتابه هذا الاسم «Magical power» . وهذه القوة ولو أنها خارقة للطبيعة surnaturelle إلا أنها كامنة فى الأشياء immanente أي أنها تتغلغل في كل شيء وتتحد به (وفي هذا ما يميزها عن القوة العلوية الخارجة La force transcendante) وفى استطاعة الانسان او الجماعة أن يسيطروا عليها ويستغلوها لقضاء مصالحهم .

هذا التمييز هو الخطوة الكبرى فى سبيل الاتجاه نحو التفرقة بين ظاهرة الدين وظاهرة السحر . وقد سار ليمان Lehmann ، مالينوفسكي Malinowski فى هذا الاتجاه حتى وصلا بعد تحليل عقيدة الـ (مانا) إلى اثبات هذه الحقيقة : وهى أن السحر والدين ظاهرتان متباينتان لا صلة بينهما من حيث الأصل ، بل إن كلا منهما تقوم على أسس نفسية مختلفة .

ليمان يواصل البحث فى عقيدة الـ (مانا) :

بعد أن وضع كودرنجتون أساس التفكير فى عقيدة الـ (مانا) عند سكان ميلانيزيا جاء بعده ليمان Lehmann أحد تلاميذ العلامة الألمانى فوندت Wundt فواصل البحث فى هذه الناحية وأخرج لنا وصفا دقيقا شاملا لجميع مظاهر تلك العقيدة (٢). لاحظ ليمان عندما تعرض للبحث فى النواحى التطبيقية لهذه العقيدة أن

(١) The Melanesians, pp. 191 et suiv.

(٢) Lehmann: *Le Mana* 2ème édit. 1922.

هذا اللفظ (مانا) له معان كثيرة من الناحية اللغوية الصرفة (١).

فمعناه (أولا) في اللغة الميلانيزية يفكر ، يحب ، يرغب كما أنه يعني موضوع الشيء الذى تفكر فيه أو تحبه أو ترغبه — ثم هو يعني (ثانيا) النجاح والسعادة — (ثالثا) القوة الخارقة للطبيعة التي تقود الى النجاح والسعادة والتي نبحث عنها ونرغبها — (رابعا) المكانة الاجتماعية التى يتمتع بها شخص ما ومبلغ نفوذه فى المجتمع — (وأخيرا) التأثير الخفى الذى ينتج عن ممارسة قوى غير طبيعية .

ويعتقد ليمان أن هذا المعنى الأخير هو المعني الأصيل لكلمة (مانا) وعنه تفرعت المعاني الأخري لأن استعمال كلمة (مانا) كصفة أو اسم ناتج عن المصدر «التأثير الخارق للعادة الذى يؤدى الى نجاح مباشر Das potenzierte ubernaturliche Konnen» . ويهمنا ان نسجل هنا أن الـ (مانا) كقوة سحرية تستدعى بذل أقصى قدر من الجهد فى سبيل النجاح ، أى ان العنصر الأساسي فيها هو النشاط الانسانى (وفى ذلك تمييز آخر لها عن أساس العقيدة الدينية) .

وقد توصل ليمان بعد ذلك الى التمييز بين ثلاثة أنواع من الـ (مانا) :

(ا) نوع يعمل فى محيط الانسان كقوة تؤثر في العلاقات بين الأفراد والجماعات ، ويطلق عليها السكان الأصليون اسم «مانا تنجاتا Mana Tangata» . وهذه القوة قد تصيب الفرد أو الجماعة علي السواء . فالمحاربون الذين يصيبون النجاح والفوز في القتال يتمتعون بنصيب من قوة الـ (مانا) الفردية . وقد وصف تي كاوتى أحد الأبطال الذين قادوا الثورة ضد الانجليز بين قبائل الماهورى Les Maoris بأنه (مانا تنجاتا) أى الرجل الذي يتمتع بقوة لا مثيل لها . وقد تصيب هذه القوة أفراداً من أحط الطبقات فلا يلبث أن يتحقق سريانها اليهم بالنجاح الباهر الذى

---

(١) أشار هوبرت وموس الي بعض هذه المعاني فى بحثهما المشار اليه آنفا . انظر L'Année Sociologique 1902.

يكلل أعمالهم وبارتفاعهم الى أسمى مكانة في المجتمع . ويحدث الانتقال من الفكرة الفردية الى الفكرة الجمعية لهذه الكلمة حين يُقصد بها السلطان والمكانة الاجتماعية اللتان تضفيان على الفرد قوة يستطيع بها التأثير على سائر أفراد المجتمع . فيقال مثلا إن هذا الرئيس أو ذاك القائد الحربي يؤثر بما وهب من (مانا) على عدد من العشائر فى نطاق معين من الأرض ، وهذا يعنى أن مجموعة الرجال الذين يعيشون داخل هذا النطاق يخضعون لسلطته وينفذون أوامره . ويفقد القائد طبعا هذه القوة وما يترتب عليها من سُلطة ونفوذ حين يُمنى بالهزيمة في الحرب أو يفشل فى أداء مهمة يتعين عليه أداؤها . وقد يفقد الرئيس أيضاً صفته كممثل لهذه الـ (مانا) الجمعية بتأثير عمل سحري يقوم به شخص آخر لانتزاع هذه الصفة منه . وقد ينشب الكفاح بين ساحرين أو مجموعه من السحرة حتى يستطيع أحدهم أن يثبت بهزيمته للآخرين أنه يتمتع بأعظم درجة من قوة الـ (مانا) ويقضى بذلك على ما كان أنداده يتمتعون به منها (PP. 33 et Suiv.) .

كل هذه الأمثلة تظهر لنا بوضوح أن الـ (ماناتنجاتا) قوة تتصل اتصالا وثيقاً بالانسان وأنها مألوفة لديه يستطيع أن يحصل عليها ويضاعفها بمجهوده الخاص كما أنه قد يضعفها أو يفقدها إذا تراخى ذلك المجهود . وهى لذلك قوة أرضية لا صلة لها بحرمة الدين وقداسته . ويدخل تأثيرها فى كل ما يقوم به الفرد أو الجماعة من عمل. وقد لاحظ ليمان — كما لاحظ من قبله كودرنجتون — الدور الذى تلعبه عقيدة الـ (مانا) فى المجهود الصناعي والحرفى لسكان ميلانيزيا وخصوصا فى صيد اللآلىء . فالصياد الذى يغوص بمهارة إلى قاع البحر ويعود سريعا محملا بصيده يتمتع بحظ وافر من قوة الـ (مانا) ويكون ذلك خير عون له في عمله يقيه شر المخاطر .

وقد جاءت بعد ذلك دراسات مالينوفسكي عن العلاقة بين العمل والسحر مؤيدة

لتلك الملاحظة . إذ يقول[١] «إن السحر والعمل عند القبائل البدائية يسيران جنبا الى جنب ولا يستغنى أحدهما عن الآخر . فالبدائيون يعتقدون أن ما يقومون به من عمل لا ينجح إلا بفضل السحر ، كما أن السحر لا معنى له فى نظرهم إلا اذا كان عونا على العمل»[٢]. ويقول في موضع آخر «ولا يمكن أبداً أن نشبه الساحر بكاهن يتزعم حفلة دينية ، ولكن الوصف الذى ينطبق عليه هو انه صانع تخصص فى حرفة ما تعين على أداء الحرف الأخرى»[٣]. فالسحر إذن لازم لأداء أي عمل وينتظر البدائي منه ما ينتظر المتحضر اليوم من الحظ السعيد أو المصادفة الحسنة . والقيام بعملية سحرية معناه — إذا ترجمنا ذلك بلغة المتحضر — وضع الحظ فى جانبه ولذلك يستعان بالسحر خاصة عند الاقدام على عمل يستدعى المخاطرة ويلوح فيه جانب الخطر[٤].

(ب) أما النوع الثانى من الـ (مانا) فانه خاص بالحيوان والطير والأشياء الجامدة . ويتصل هذا النوع بما يعتقده البدائيون من وجود قوة خفية منتشرة فى الطبيعة مستقلة عن إرادة الانسان وتؤثر فى الأشياء دون تدخله . وقد استنتج ليمان من هذا الاعتقاد أن الـ (مانا) ليست صفة عارضة يُكسبها الساحر لما يزاوله من الأعمال بل انها في الواقع قوة حقيقية منتشرة فى كل شيء ، وإن كان الانسان لا يدري كنهها ولا يستطيع تعليلها . وتعمل هذه القوة فى محيط الحيوان والنبات والجماد دون أن يكون للانسان دخل في ذلك. ويعتقد سكان ميلانيزيا ان بعض

---

(١) انظر كتاب مالينوفسكي . Malinowski: Argonauts of the Western Pacific.

(٢) Ibid. p. 414.

(٣) Ibid. p. 142.

(٤) انظر ايضا كتاب مالينوفسكي

Myths in Primitive Psychology 1926 (p. 107-117)

صحح ليفي برول نتائج هذا البحث فيما يختص باقتصار السحر علي العمل الخطر فى كتابه :

Expérience mystique et les Symboles chez les primitifs 1938.

الطيور يختص بقوة عظيمة من الـ (مانا) وأن الانسان قد يستطيع فى بعض الأحيان وبعد بذل مجهود شاق أن يتحكم فى هذه الـ (مانا) ويستخدمها في أغراضه ومصالحه (وفي هذا ما يفسر استخدام بعض الحيوانات أو بعض أنواع الأحجار فى الشعائر السحرية) .

(ج) وهناك نوع ثالث من الـ (مانا) تختص به الأرواح والآلهة ويسمى «مانا أتوا» Mana atua . ويجب أن نلاحظ جيدا أن هذه القوة تعمل فقط فى محيط الآلهة ، أي فى كفاحها بين بعضها البعض ، ولكن لا شأن لها بالعلاقات بين الآلهة والانسان ، لأن الآلهة في علاقاتها مع الانسان لا تحتاج لمزيد من القوة وصفتها الذاتية تكفي لاخضاعه والتحكم فيه .

* * *

خلاصة البحث :

يتضح مما قدمنا من وصف عقيدة الـ (مانا) واتصالها بالظاهرة السحرية أن هذه الظاهرة لا تتصل من قريب ولا من بعيد بالعقيدة الدينية . فالسحر يقوم على القوة الخفية التي يُعتقد أنها تسري فى المحيط الأرضى ، أما الدين فانه يقوم على فكرة التقديس La notion du sacré .

ونحن إذا أنعمنا النظر فيما كتب موس وهوبرت عن السحر وعلاقته بالدين ، وجدنا أنهما يميلان للفصل بين هاتين الظاهرتين ، وإن تكن هناك اعتبارات أخرى تتعلق بمبدئهما الفلسفي جعلتهما يلتمسان طريقا آخر لايجاد صلة بين الظاهرتين من حيث الأصل . إذ نجدهما يقولان فى معرض المقارنة بين السحر والدين «إن الشعائر الدينية تتصف بطابع القدسية والالزام ، وانها عامة يشترك فيها الجميع وتقام في أوقات ومناسبات منتظمة . وعلى النقيض من هذه الشعائر توجد شعائر أخرى

لا تؤدي إلا فى الخفاء ، وذلك لأن المجتمع حرّمها وفرض العقوبة علي من يمارسها وهى شعائر السحر الأسود Les maléfices التى يُقصد من ورائها الهدم وجلب الشر . ولكن هذين القطبين المتناقضين ، قطب التضحية وقطب الشر ، يفسحان المجال بينهما لطائفة من الظواهر التى قد يصعب تحديد طابعها الخاص لأول وهلة . وهذه هى الظواهر السحرية المباحة التى تقصد في مجموعها إلى الناحية العملية أو الفنية كالتطبيب أو جلب المطر أو زيادة خصوبة الأرض الخ...»(١)

ترينا هذه الفقرة بوضوح تردد العالمين موس وهوبرت فى وصل السحر بالدين أو فصله عنه . وقد اتجها آخر الأمر الى البحث عن أصل واحد للعقيدتين ووجدا أن فكرة الـ (مانا) هى ذلك الأصل ، ولكنهم قسموها الى قسمين : نوع مقدس mana sacré هو أصل الدين ، ونوع غير مقدس هو أصل السحر . فكل ما هو مقدس أو ديني يرجع في نظرهم الى فكرة الـ (مانا) ، ولكن ليس معنى ذلك أن كل (مانا) ترتفع الى مرتبة التقديس . وقد اتجه موس وهوبرت هذا الاتجاه لأسباب تتعلق بمنهج المدرسة السسيولوجية الفرنسية ، هذا المنهج الذى يقوم على اعتبار كل ظاهرة اجتماعية سواء أكانت دينية أو سحرية ناتجة عن الضمير الجمعي أو عن القوة الجمعية .

ويميل الفيلسوف برجسن أيضا لفصل السحر عن الدين ، ويظهر ذلك جليا فى بعض فقرات من كتابه «مصدري الدين والأخلاق»(٢)، فقد قسم فى هذا الكتاب ظاهرة التدين الى نوعين : الديانة الاستاتيكية التى تقوم علي غريزة حب البقاء والكفاح فى الحياة ، والديانة الديناميكية التي تقوم على الحدس والفناء في عالم الروح L'intuition mystique . وربط السحر بالنوع الأول أى بالديانة

---

(١) راجع المقال المشار اليه آنفا. L'Année Sociologique 1902, p. 19.

(٢) Bergson: *Les deux sources de la morale et de la religion.*

الاستاتيكية لاتحادهما في الهدف وهو « دفاع الغريزة الطبيعى ضد ما قد يحدثه عمل العقل من خيبة أمل فى نفس الانسان» (ص١٢٧).ولكن العلاقة بين السحر والدين تقتصر فى نظره على الأساس النفسى الذي أوجد كليهما وفيما عدا ذلك لا يجد مجالا للتساؤل «فيما إذا كان السحر قد تفرع عن الدين أو إذا كان الدين قد تفرع عن السحر . فكلتا الظاهرتين معاصرة للأخرى» (ص ١٨٥) . وهو يرى أن السحر متأصل فى الانسان inné وأنه المظهر الخارجي للرغبات التي يختلج بها صدره (ص ١٧٧) ، ويمكن إرجاعه في النهاية الى عنصرين أساسيين :

(١) الرغبة فى التأثير على الأشياء المحيطة حتى ما لا يمكن أن تصل اليه يد الانسان.

(٢) الاعتقاد بأن الأشياء يسري فيها ما نستطيع أن نطلق عليه اسم « العصارة الانسانية Le fluide humain.

«وفكرة العصارة الانسانيه هذه أو بمعنى آخر فكرة الـ (مانا) ، انما هى فكرة سحرية صرفة لا علاقة للدين بها» (ص ١٨٣) وذلك لان «الدين قوامه معبودات مقدسة تسمو على قوة الانسان ، على حين أن السحر يرتكز على قوة خفية منبثة فى العالم المادى ويستطيع الانسان ان يتحكم فيها ويسيرها لأغراضه الشخصية» (ص ١٧٤ ، ١٨٣) . والسحر يدعى لنفسه الغلبة علي قوة الطبيعة ، على حين أن الدين يطلب رضا الآلهة . كما أن السحر يتميز بصفة الأنانية على حين أن الدين يقوم على إنكار الذات .

* * *

والنتيجة التى نصل اليها من هذا البحث ، أن السحر يقوم على فكرة الـ (مانا) أي اعتقاد الانسان بوجود قوة خفية كامنة في الاشياء force immanente وهذه القوة تتصل بجميع أعمال الانسان وتأتلف معه لتعاونه في حياته وخصوصا في

الناحية العملية منها . وفى هذا ما يميزها عن العقيدة الدينية التي تقوم على أساس التقديس أو العبادة ، والتقديس لا يكون إلا لقوة عليا force transcendante خارجة عن محيط الانسان .

وتعمل قوة الـ (مانا) على الأخص فى نطاق كائنات من مستوى وجودي واحد du même rang ontologique على حين أن أهم مظاهر العقيدة الدينية وجود كائن أعلى يختص بالنفوذ العلوى وكائن أسفل يتصف بالخضوع وطلب الرضا والعفو والغفران .

وانتفاء صفة العلوية عن الـ (مانا) يجعل من الممكن الاستحواذ عليها وتسخيرها بواسطة الانسان ، وليست العمليات السحرية إلا وسيلة للاتصال بهذه القوة وتسخيرها . ويمكن تشبيه الساحر فى اتصاله بهذه القوة الخفية بما ورد فى فلسفة أفلاطون عن الكائنات المؤلهة Les démiurges التى تشترك فى تنظيم العالم. ولكن ليس معنى ذلك أن الساحر يخلق هذه القوة خلقا ، فانها موجودة فى الاشياء فى حالة سبات d'une façon latente ويقتصر عمل الساحر على تحريكها وإيقاظها من مكمنها .

وقد نتج عن فكرة الـ (مانا) وما يتعلق بها من ممارسة العمليات السحرية تقوية الروح المعنوية فى الانسان او الجماعة وشعورهم بقوتهم وبنتيجة مجهودهم الذاتى . فتولد عن ذلك نوع من الاعتداد بالنفس مما ساعد كثيرا على تقدم النشاط الانسانى واتجاهه نحو الاستنباط والابتداع ، ومن السهل أن نتبين أن هذا الاتجاه لا تساعد عليه نزعة التدين ، لان الدين فوق ما يستلزم من خضوع وخشوع أمام قوة عليا من شأنه أن يشعر الانسان بضعفه وقصوره واحتياجه دائما الى عون يأتيه من فوق عن طريق الآلهة .

***

السحر والدين إذن ظاهرتان لا تتصل احـدهما بالاخرى لا من حيث النشـأة ولا من حيث الاسس النفسية التى تفسر كلا منهما . فأساس السحر هو تلك الرغبة الـمُلـحّة عنـد الانسان التي تدفعه للعمل وبذل الجهـد حتى يستطيع أن يتحكم في ظواهر الطبيعة ، وهذه الرغبة قد تكون مصحوبة بشيء من الوجل أو التهيب la crainte حين يقدم الانسان على مجابهة قوى لا يزال سرها مغلقاً عليه . أما أساس الدين فهو ذلك الشعور بالضعف وبقلة الانسان وبحاجته للمعـونة وما يترتب على ذلك من موقف الانتظار وطلب الرحمة ، ويصحب ذلك الشعور نوع من الفزع angoisse حينما يجد الانسان نفسه وحيـدا لا حول له ولا قوة ، ولا يخرجه من ذلك الفزع إلا أن يبتهل إلى قوة عليا ترسل اليه السلام والطمأنينة ؟

الفلسفة واللغة

بمناسبة صدور الطبعة الخامسة للقاموس الفلسفى
للأستاذ لالاند

ترك الأستاذ أندريه لالاند ، عضــو المجمع العلمى الفرنسى ، كرسى الفلسفة بجامعة فؤاد فى مارس سنة ١٩٤٠ ، وبقى أثناء سنى المحنة بين فرنسا المحتلة وفرنسا غير المحتلة ، ثم استقر أخيرا فى باريس مترقبا تحرر فرنسا. ومنذ رجوعه لفرنسا حتى اليوم ، وقد جاوز الثمـانين ، اشتغل طول الوقت باعداد مقالات جديدة ، وإعادة طبع كتبه وتنقيحها والزيادة فيها ، ونشر مالم يتيسر له نشره من دراساته ومحاضراته .

ليس أستاذنا لالاند فيلسوفاً كهاملان (Hamelin) صاحب مذهب تنتظم فيه الأفكار ، أو كبرجسون مخترع منهج فلسفى تُدرّس فى ضوئه المشكلات . ولـكنه كان ، وما زال ، خير معلمى الفلسفة . كان ، وما زال ، عقلا محللا ، يوجه تلامذته وأصدقاءه الفلاسفة ، ويشجعهم على القيام بالدراسات المنطقية اللغوية ، يدعوهم ، رغم ما بينهم من اختلاف أوجه النظر ، الى التعارف والتداول والمناقشة. — وفق فى مبدأ حياته الفكرية ، مع صديقه كزافييه ليون (Xavier Léon) ، الى تأسيس الجمعيــة الفلسفية الفرنسية . وليس أدلّ على توفيقه من التفـاف ممثلى الفكر الفرنسى المعاصر حوله ، بل والفكر العالمى أيضا ، لمناقشة أهم المشكلات العلمية العامة والفلسفية أثناء جلسات الجمعية، ومن تدوين هذه المناقشات فى مجلة(١)

(1) *Bulletin de la Société Française de Philosophie.*

تصدر تباعاً حتى اليوم منذ سنة ١٩٠١ . كما أن أظهر علامة على مجهود الاستاذ تخصيص أهم مناقشات الجمعية لدراسة عناصر اللغة الفلسفية الفرنسية ، والمقارنة بين مصطلحاتها على ممر العصور : عمل الأستاذ لالاند على إعداد هذه المناقشات ، فبعد تعيين المصطلحات الأوروبية القديمة والحديثة المقابلة لكل كلمة فلسفية فرنسية ، يحرر الأستاذ بنفسه تعاريف الكلمة وما يلزم هذه التعاريف من الشروح ، مستعيراً من أعظم الفلاسفة والكتاب ، أفضل النصوص التي تمثل استعمال الكلمة . ثم يعرض نتائجه هذه على أعضاء الجمعية الفلسفية ، فيناقشونها ويدلون آراءهم بصددها ، ثم يقرن الأستاذ هذاالبحث المخصص لكل كلمة فلسفية ، بدراسة نقدية ، يجمع فيها بين مقارنة الاستعمالات المختلفة للكلمة ، واستخلاص نتائج المناقشة التي قامت بين الأعضاء وبينه بصدد المقال .

عمل جليل حقا كرس له الأستاذ أوقاته الثمينة مدة عشرين عاما ، وظهرت ثمرته في سنه ١٩٢٦ تحت عنوان «قاموس المصطلحات الفلسفية الفني والنقدي»(١) في مجلدين. هذا العمل الذي صدرت طبعته الخامسة، منذ بضعة شهور في مجلد واحد، طبعة مزيدة ومنقحة ، هو ما نزمع التكلم عنه اليوم .

* * *

يقول مونتيني (Montaigne) في فصل من فصوله المتعة ان « أغلب خصوماتنا تقوم على أغلاط لغوية» . — نعرف أن فرنسيس بيكون كان له رأي مماثل ، وإنه كان يعتبر تاريخ الفلسفة كله منذ العصور القديمةمسرحاً لمناقشات تافهة حول الكلمات .

وإن كان بيكون مخطئاً في تقديره هذا ، ومتشيعاً لعصره في معاداة المدرسيين،

(1) *Vocabulaire Technique et Critique de Philosophie* (Presses Universitaires, de France 5e édition, Paris 1947).

إلا أنه وجه بعد مونتيني نظر الباحثين الى منزلة دراسة اللغة وأساليبها وكلماتها من الفكر الفلسفي . — ولسنا مبالغين ان قلنا بهذا الصدد أن الفلاسفة ، فى نظر رجلين كسقراط وأفلاطون ، لم تكن إلا دراسة دقيقة لبعض كلمات يتداولها الناس فى حديثهم ، وتدل على معان يحققها كل منهم فى حياته طول الوقت ، نقصد كلمات مثل الفضيلة والعلم والشجاعة والعفاف والجمال والوجود وما الى ذلك . وإن لم تبلغ دراسة هذين الرجلين لمعانى الكلمات ، الى نتائج نهائية ، فهى وجهت على الأقل نظر الناس الى أمر هام : هو أننا نتفوه فى أغلب الأحيان بكلمات لا ندري معناها أو نحمل على معان متناقضة أو استخلصت من تجارب لا تربط بينهما عوامل مشتركة .

اعتبرت الفلسفة القديمة إذن دراسة للغة عند اثنين من كبار ممثليها . وان كان المجال لا يسمح لنا بتتبع هذا التأويل للفلسفة (١) أو بالتنويه عمن كان يعارضه أشد المعارضة ، كديكارت وتلامذته من الديكارتيين ، الذين كانوا يبحثون عن الأشياء فى ذاتها ، ويعملون على التأمل مباشرة بمُثُلها دون ستار الألفاظ ، إلا أن هذه الاشارة تجعلنا نفهم ، لِمَ اتخذت ثورة هيوم على الفلاسفة ، صورة بحث نقدى فى معانى الكلمات الفلسفية . يتساءل هيوم: الى أى تجربة واقعية يصح أن نرجع هذه المعانى ؟ — وان تبين أن هناك كلمات للفلاسفة لا تستند الى تجربة شعورية أو حسية ، أليس من واجبنا إقصاء هذه الكلمات ؟

لا يبغى أستاذنا لالاند فى قاموسه أو فى سائر مؤلفاته إرجاع المعانى الفلسفية الى التجربة الحسية أو الشعورية ، ولكنه يقوم بصدد الألفاظ ، بمجهود عظيم لتفهم أوجه استعمالها راجعا فى ذلك الى تاريخ اللغة وتاريخ الفكر .

---

(١) راجع هنا كتب برس باران القيمة وخاصة
Brice Parrain: *Les Fonctions du Langage*. (Paris. 1942).

وإن كنا لا نستطيع فى دراستنا اليوم الالمام بالنواحى العديدة القيمه للقاموس فاننا سنعمل على الأقل على الاشارة الى ما يرمى اليه من أغراض هامة ، وما يستخدمه من طرق دقيقة لتحديد معانى الكلمات ، ممثلين لهذه الطرق ببعض أمثلة من القاموس .

ينبهنا الأستاذ لالاند فى مقدمة الطبعة الخامسة الى ما نجده عند بعض المفكرين وأشباه المفكرين ، من ألفاظ مُغرية ، ألفاظ كالوجودية والتعالى والفكر المتعالى ، يتوهم السامع أن وراءها معانى عميقة . الوظيفة الأولى للقاموس الفلسفى هى تحرير العقل من وطأة الألفاظ ، ولا يتم هذا التحرير إلا بالبحث فى الألفاظ ذاتها وبتحديد مختلف معانيها . — إنما يجدر بصاحب القاموس ، قبل أن يحدد المعانى الفلسفية ، وهى معان مجردة كما نعرف ، أن يجد أصل استعمالها ، أن يتلمس الطريق الذى سلكه الانسان عند ما ترك التجربة الواقعية وشرع يُجرد ويتفلسف . يجد المدقق مع الأسف أنه قلما يدرك الأصل الحقيقى لمعنى كلمة من الكلمات ، قلما يعثر على جذر المعانى كلها ، بل يتعذر عليه تعيين طريق مفهوم بين الأصل والفروع ، أو حتى الكيفية التى اجتمعت بها الفروع فى جذع واحد . يبدو أن الكلمات تتخذ منطقا شاذا ، وأن بعضها لا يتخذ منطقا على الاطلاق . لنأخذ مثلا كلمة «طبيعة» (Nature) : شتان بين معنى هذه الكلمة فى عبارة روسو الشهيرة : « لنرجع لحالة الطبيعة » ، وبين معانيها عندما نتكلم عن طبيعة الذرة ، عن جمال الطبيعة ، أو عن قوانين الطبيعة .

وان ادعى البعض أن العبرة ليست بالكلمات بل بالمعانى ، وشرع الباحث فى إيجاد معان خالصة عارية ، لما وجد فى الذهن شيئا منها ، لا لأن الذهن صندوق

فارغ أو ورقة بيضاء كما يقول البعض ، بل لأن المعنى عبارة عن استخدام هذا الفيلسوف أو ذاك للكلمات، ولأن لكل كلمة حياة وتجربة وتاريخا فلسفيا مرتبطا بها، وأن المعانى لا تُكتَشَفُ إلا بتفصيل هذا التاريخ . وقد يكون التفصيل أمراً شاقا متعذرا كما ذكرنا إنما يمكن القيام على الأقل ، بصدد الكلمات الفلسفيه بوجه عام، وما شاع فى الاستعمال منها بوجه خاص ، باحصاء المعانى الهامة ، ومراعاة ما اذا كانت هذه المعانى متصلة فيما بينها ، وطبيعة هذا الاتصال ، ثم ، ان كانت منفصلة ، التساؤل عما اذا لم يكن هذا الانفصال جزءاً من منطقها الغريب .

لنوضح الآن كيف قام حضرة الاستاذ بهذا العمل، راجعين لبعض أمثلة هامة، وسنشير فى نهاية مقالنا الى ما بلغ اليه من نتائج .

يلاحظ الاستاذ بصدد كلمة « صدفة » (Chance) أصلها اللاتينى فى كلمتى (cadentia) ، (cadere) وارتباطها اللغوى بالكلمة الايطالية (Cadenza) . ومعنى هذه الكلمات الأصلى هو السقوط ، وخاصة سقوط زهر النرد ، ثم سقوط أو نزول النوائب . ولا شك أن هذا الأصل يبرر استخدام الكلمة فى الفلسفة للدلالة على الظواهر الاتفاقية ، ظواهر يدرسها العلم الفيزيقى وحساب الاحتمالات .

يلاحظ أيضا الاستاذ بصدد كلمة (Raison) «عقل وسبب» ، اشتقاق الكلمة من الفعل اللاتينى (reor) ، واسم المفعول (ratus) ، أى يحسب ويقوم بعملية حسابية . ولكنه يلاحظ أيضا أن نفس الكلمة (ratio) تستخدم عند الكتّاب اللاتينيين فى العصر الكلاسيكى ، للدلالة على الحساب ثم على النظام العقلى ثم على السبب . ولا يستطيع أن يوضح كيف يمكن لكتّاب عصر واحد أن يستخدموا نفس الكلمة فى معان متباينة ، دون أن يعينوا مبررا ظاهرا لتعدد هذه المعانى .

لننتقل مع الأستاذ الآن الى بعض كلمات هامة شاع استعمالها ، وأولاها كلمة «الطبيعة» (Nature) التى أشرنا اليها فيما سبق : هذه الكلمة من أقدم المصطلحات الفلسفية ، نجدها عند الفلاسفة الاغريقيين كعنوان لأسفارهم الشعرية والفلسفية ، ونجـــدها أيضا فى عنوان مؤلف رائع للشاعر والفيلسوف اللاتينى لوكريس . (Lucrèce) .

ما معنى أو ما معانى هذه الكلمة بالضبط ؟ للاجابة عن السؤال ، يجدر بنا أن نميز بين طائفتين رئيسيتين : نطلق «الطبيعة» أولا على صورة كائن من الكائنات أو على ماهيته ، ونطلقها ثانيا على الكائنات ككل ، على العالم بأكمله .

لننظر للطائفة الأولى : تعتبر الطبيعة مبدئيا كماهية كائن أو ماهية جنس من الكائنات . ولا يبعد كثيرا عن هذا المعنى استخدام ديكارت للكلمة : فالطبائع البسيطة عنده ، عبارة عن الكائنات من حيث أنها معقولة ، موضع نظرة بسيطة ساذجة . — وإن خصصنا الكائن وأردنا به الانسان أو الحيوان أصبحت «الطبيعة» دالة على الغرائز ، على ما للانسان من فطرة ، بعكس ما يكتسبه بالتجربة . أما إن نظرنا للانسان كعضو فى مجتمع متحضر ، دلت « الطبيعة » على حاله قبل التحضر ، وإن نظرنا له ككائن دينى دلت على حاله قبل الوحى أو الخطيئة ، وإن نظرنا له أخيراً ككائن فردى له استعدادات وميول خاصة تتغير حسب الظروف ، فطبيعته هى طابعه أو سمته — . لدينا فيما سبق طائفة اولى من معانى «الطبيعة» تظهر فيها متفرعة عن أصل واحد .

ان نظرنا للطائفه الثانيه من المعانى وجدنا بعض الصعوبة في تفهم ارتباطها فيما بينها ، وخاصة فى معرفه صلتها بالطائفه الاولى من المعاني : تطلق «الطبيعة» على الكل ، علي كل ما في العالم ، علي العالم باكمله ، وخاصة على الكل من حيث يحقق نظاما أو يتبع قوانين ، أو يظهر قيام مبدأ فعال فى العالم ، سواء كان المبدأ

عقلا ساريا بين الكائنات ، أو غاية عمياء تنشدها هذه . وقد تطلق الطبيعة على ما لا يتبع نظاما معقولا ، كما تطلق كثيرا على العالم المنظور وخاصة على عالم النباتات . — أما المعانى الرئيسية لهذه الطائفة فتتفاوت حسب النظام المقصود أو نوع القوانين المتبعة : يقصد الفيلسوف الألمانى كنت « بالطبيعة » قوانين ضرورية ، أما باركلى فيريد بها مجموعة القوانين التى وضعها الله للعالم بفعل ارادته ، وقد يكون النظام المقصود خلقيا ، وهنا تعنى «الطبيعة» مجموعة القوانين الكامنة فى النفس ، التى إن حاد عنها الانسان أنّبه على ذلك ضميره تأنيبا شديدا.

ما الذى نستخلصه من هذا التنوع الغريب ؟ إن تطور معانى الكلمة لم يتخذ طريقا واحداً مستقيما ، بل كان معقدا متشعبا ، متجها كأشعة الضوء اتجاهات مختلفة . لا بل ان بعض هذه المعانى تتنافر فيما بينها ، حتى إن استخدمنا الكلمة فى معنى معين ، تعذر استخدامها فى المعانى الأخرى دون إطالة شرح وتفسير . ولذلك يقترح الأستاذ ، فى نهاية مقاله ، عدم استخدام الكلمة إلا فى النادر وعندما يكون الغرض منها واضحا كل الوضوح : فيقصر «الطبيعة» إما على العالم المنظور وخاصة النباتات والأشجار ، أو على العالم من حيث لا يحقق نظاما ظاهرا ، ثم ينصح فى الأحوال الاخرى باستخدام غيرها من الكلمات ، كماهية وغريزة ، للطائفة الاولى ، وكعالم وعقل وضرورة وقوانين ، للطائفة الثانية .

غير أن هذه النتيجة السلبية التى يقف عندها الاستاذ فى بحر مقاله لا ترضى بعض الفلاسفة ، ممن كان حاضرا مناقشة الكلمة : فيرى لاشلييه (Lachelier) ، ومكانته معروفة بين الفلاسفة المعاصرين ، أنه من الواجب على الباحث الفيلسوف أن يتعدى التنوع القائم بين معانى كلة واحدة ، لأن هذا التنوع ظاهرة نلاحظها فى التاريخ ، ولا تخضع حتما لمعيار العقل . وعلى الباحث أن يكشف أيضا عن معنى أصيل متغلغل فى جميع الاستعمالات الأخرى . يقول لاشلييه : لو دققنا فيما

نعنيه ، وجدنا أن «الطبيعة» تدل قبل كل شيء على الوجود ذاته ، من حيث يعين ذاته ويتطور من الداخل رغم التأثيرات الخارجية .

لننظر الآن لكلمة لها أهميتها من نواح أخرى ، هي كلمة «العلة» (Cause) . نجد الاستاذ يدلى بصددها بملاحظات فقهية لم يسمح بها تاريخ كلمة « الطبيعة » . «العلة» (cause) من اليونانية *(aition)* هي فى الأصل ، الانسان المسؤول ، أو من يُوجَّه له الاتهام فى قضية جنائية معينة . و«العلة» باللاتينية (causa) ومنها الايطالية (cosa) ، لها فى الأصل معنيان واقعيان على الأقل : القضية بالمعنى المعروف فى المحاكم ، ثم الشيء موضوع الحديث — . جلىّ أن هذه الأصول أثرت فى تطور معانى الكلمة الى حد بعيد : «فالعلة» اذا اعتبرناها كمبدأ فعال تحدث عنه الآثار ، لهى أقرب الأشياء الى الارادة الانسانية التى تعمل وتتحمل تبعة أعمالها . أما اذا وجهنا النظر الى المعنى العلمى للعلة ، «فالعلة» شرط التغير والحدوث ، شرط هو جزء من الظاهرة يبتدىء عنده حدوثها ، لا قوة خفية خارجة عن الظاهرة . ويرى الفلاسفة المعاصرون أن العالِمَ لا يميز علة الظاهرة من الظاهرة ذاتها وبأكملها — . وهذا معنى قول ليبنتز «ان هناك تطابقا بين العلة والمعلول» . — فيصبح تطور معانى هذا المصطلح مشابها لحركة دوران حول قطبين ، أحدها ، المعنى الخلقى للعلة أى الارادة الفعالة ، والآخر المعنى المعتاد للكلمة ، الشيء الذى نقصده فى الحديث ، ونفرض بقاءه في التجربة ، رغم التغير .

ظهر منذ سنوات بحث طريف لانطوان مييه (Meillet) فى كلمة الله وأصلها

الهندى الأوروبى ، يوضح فيه ان الكلمة تعنى فى الأصل الأب والحامى والمدافع .
وكان لهذا البحث أثر بعيد فى المناقشة التى دارت بالجمعية الفلسفية حول هذه الكلمة.

يؤدى بنا البحث فى تاريخ الكلمة الى ضرورة التمييز بين طائفتين من المعانى ، احداهما نظرية فلسفية والأخرى خلقية اجتماعية . — الأولى تدور حول فكرة تفسير العالم : الله عند اسبينوزا هو العالم ذاته ، الوجود معتبرا فى وحدته المطلقة . ثم الله فى الفلسفة المسيحية ، هو خالق السماء والارض . تدخل أيضا فى الطائفة الاولى بعض معان منطقية : الله مبدأ الحقائق ومحلها الاسمى ، هو الحقيقة المثلى المعيارية . — أما معانى الطائفة الثانية فهى تتفاوت فى التجريد ، انما تخص بالاكثر كائنا شخصيا فعالا . فلدينا من ناحية فكرة الله التى أشار اليها ميييه فى بحثه السابق : الله هو حامى القبائل ، أب العشيرة الانسانية ، أعظم أبطال المجتمع ، ورأس الكنيسة (وتعنى الكنيسة مجتمعا من الناس) . الله هو رب أمة خاصة ، شعب مختار من بين الشعوب ، «إله ابراهيم واسحق ويعقوب ، لا إله الفلاسفة والعلماء» كما يقول بسكال . — ولدينا من ناحية أخرى معان عملية أبعد من السابقة عن العالم الواقعى المنظور : فالله فى العقلية الدينية المتحضرة كائن لا متناه له شخصية سامية تتجه اليه آمالنا وصلواتنا ، وهو أيضا ، وخاصة عند الفلاسفة منذ كنت ، عماد القانون الخلقى ومثاله الأعلى .

نجد انفصالا بين الطائفتين ، بل نضالا بين المفكرين الذين يمثلون كلا منهما : هل هناك أى ارتباط فى المعنى بين حامى القبيلة ورأس المجتمع ، وبين مبدأ الحقائق النظرية ومعيارها الأعلى ؟ — يحسن ، قبل أن نحاول التوفيق بين الطرفين ، ملاحظة بعض حدود وسطى : يذكر الاستاذ لالاند ، بعد تعريف اسبينوزا لله ، الجملة الشهيرة التى يبدأ بها المسيحيون قانون إيمانهم «أؤمن بالله واحد أب ، ضابط الكل ، خالق السماء والأرض» . نجد إذن فى نص من أهم النصوص ، كلمة الأب

مرتبطة بكلمة الخالق ، أى بمبدأ تفسير العالم ، مما يدل على محاولة ضمنية عند المسيحيين للتقريب بين المعنى الأصلى لله والمعنى الفلسفى البحت . والمحاولة ذاتها صريحة عند ممثلى الأفلاطونية الحديثة ، وخاصة عند ابروقلوس حين يعمل على الربط بين ثلاث كلمات تدل على مبدأ العالم : الله هو الواحد والخير والأب .

إلا أن كثيرا من الفلاسفة المحدثين لا يقررون معنى واحداً عن الله إلا بتضحية المعانى الأخرى . فمن ناحية نشاهد فى مبدأ الفلسفة الحديثة اختفاء ، يكاد يكون كليا ، للمعنى الاجتماعى عن الله ، هذا المعنى الذى وجدنا صدى عميقا له فى الفلسفة المسيحية والفلسفة الأفلاطونية ، ونلاحظ من ناحية أخرى منذ كنت بوجه خاص ، اختفاء المعانى الميتافيزيقية والمنطقية ، وتغلب المعنى الخلقى المجرد . — ولكن أمر غريب : المعنى الاجتماعى الذى اختفى وقتا طويلا يرجع ثم يطغى على الفلاسفة أنفسهم بقوة شديدة : فعلاوة على رجال المدرسة الاجتماعية الفرنسية ، والله فى نظرهم مرتبط بطبيعة المجتمع وبمصيره ، نجد عند الفلاسفة الألمان من أوائل القرن التاسع عشر ، فكرة شعب يسود الشعوب وجنس بشرى يفضل سائر الأجناس ، هو الشعب الجرمانى . وليس غريبا بعد ذلك أن نجد عند بعض المفكرين السياسيين المعاصرين بألمانيا فكرة عن الله تكاد تكون بدائية .

غير أن هذا التردد الذى نشاهده فى الفلسفة الحديثة بين اتجاهين ، اتجاه خلقى واتجاه اجتماعى بدائى ، يظهر كما لو كان فى أساس هذه الفلسفة ذاتها : عند ديكارت مثلا ، وسلطة ديكارت فى الفلسفة الحديثة ما زالت قوية ، الله حرية مطلقة ، أقل ما يمكن أن يقال عنها ، أنها تتنافى مع كل طبيعة ، وتنفر من كل تعقل . — موقف خطير يدل على أن القدماء كانوا أكثر توفيقا من المحدثين فى إيجاد فكرة عن الله تحترم مطالب العقل ، وتوفق بينها وبين رغبات النفس العميقة ، وحاجة المجتمع لأساس روحى متين .

لدينا فيما سبق فكرة وجيزة عن بعض ما دار من المناقشات حول الألفاظ والمعانى الفلسفية، تاريخها وتطورها وما قام بينها من تنازع وما بلغت اليه من وحدة. وقد دون أو لخص الاستاذ لالاند هذه المناقشات ، وارتبط فى تحريره النهائى للشروح والتعاريف بنتائج المناقشة .

انا لنكون مغالين دون شك إن ادعينا أن صاحب القاموس وُفق الى اقناع الفلاسفة باستخدام الألفاظ والمصطلحات استخداما يمنع قيام أى جدل أو خصام بينهم . أو انه نجح فى تحديد المعاني تحديداً يؤدى الى صياغة أحكام فلسفية يؤمن عليها الجميع ، أو يظهر بصددها على الأقل تماثل مواقفهم وتكاملها .

إن كانت هذه غاية بعيدة يرمى اليها الاستاذ، فانه لم يتوخاها لذاتها فى القاموس، ولم يمن نفسه بالوصول اليها — . انا نظنه نجح فى أمرين على الاقل : الاول أنه جمع لمناقشة المسائل المتعلقة باللغة الفلسفية ، كل من تعنيهم أمور الفلسفة فى فرنسا وخارج فرنسا أيضا ، بل نقول كل من تعنينا معرفة رأيه فى هذه المسائل من بين المفكرين . ولا شك أنها خطوة عظيمة ، تلك التى أدت الى اجتماع العلماء والفلاسفة. ومن بين الأخيرين كثير منهم متباينوا النزعة : نجد جنبا الى جنب مفكرين أحرارا ورجالا يناقضون القضايا الفلسفية القديمة ، ثم فلاسفة مسيحيين ، منهم من يرعى معايير العقل ، ومنهم من ينقضها من الاساس : نطالع فى القاموس بجانب ملاحظات برانشفيج وراسل وروه (Rauh) وبرهييه ، اعتراضات وانتقادات بلونديل ولروا ودلبوس ولاشيلييه وجلسون —

ولا عجب فى ذلك إن كان الاستاذ واثقا بأن الفلسفة توطد دعائم الصداقة بين المفكرين ، وتدعو للصراحة فى القول والصدق والاخلاص — . ولا عجب في ذلك أيضا ، ان كان ما يعرضه حضرة الاستاذ على المجتمعين من تعريف لكلمة أو

ملاحظة أو انتقاد يدعو حضراتهم ، لا الى السكوت او عـدم المبالاة ، بل الى التحمس لمسائل الفلسـفة ولمواقفهم منها . وليس أدل على نجاح الاسـتاذ فى هذه الناحية من ملاحظات لجول لاشيلييه ، نلمس فيها ، أكثر مما فى كافة الملاحظات ، بعد النظر والعمق والدقة . نجد لاشيلييه ، هذا الرجـل العظيم الذى لم ينشر طول حياته إلا بعض صفحات نادرة رائعة ، والذى أوصى قبل وفاته باحراق ما حرره فى أوراقه الخاصة ، نراه لا يضن على صديقه صاحب القاموس ، بالملاحظات والشروح كلما سنحت لذلك الفرصة . نجده يعمل رغم تقدمه فى السن على تنقيح هذه قبل أن تطبع نهائيا.

وفق الاستاذ اذن الى تأسيس روابط روحية متينة بين المفكرين ، وليس هذا بالأمر الهين . — ويجب ان نذكر الناحية الاخرى التى وفق فيها : قلنا انه لم يحلم عند تحرير مقالات القاموس وعرضها على أعضاء الجمعية الفلسفية ، بالوصول الى تحديد المعاني تحديدا نهائيا . لم يمن نفسه أبدا بوحدة موضوعية ، لانها قد تؤدى فى نظره الى شل الحركة الفكرية وتوقفها . ولـكن مطالعة كل مقال وما يليه من انتقاد يعمـله الاستاذ بعد احصاء معانى الـكلمة ، ومطالعة ما يصحب المقال والانتقاد من ملاحظات له ولأعضاء الجمعية ، يحملنا على القول أنه وصل الى استخلاص العوامل التى تفرق بين معاني كلمة واحدة ، وتلك التى تؤسس ترابطها واتحادها ، والى الـكشف أخيرا عما يعد كلمة من الـكلمات (حتى من بين تلك التى شاع استعمالها ، وعمّ) الى استـخدام فلسفى جديد ، الى ما يعطى هذه الـكلمة حياة جديدة ، وما يحقق للفلسفة سيرها وتقدمها .

ولا يمكن ان نعيب على الاستاذ ، كما يفعل البعض الآن ، انه لم يربط دراسته للغة والفلسفة باحدث آثار الفكر الحى ، وبلغة المؤلفين الجدد ، فهو بالعكس قد بذل، فى طبعته الخامسة للقاموس ، قصارى جهده ، فتتبع هذه الآثار واقتبس أهم

المصطلحات الجديدة ، وشرحها بعبارات مستعارة من هؤلاء المفكرين أنفسهم ، ولا يمكن ان نعيب عليه عدم تشجيعه لهذه الحركات وما تحدثه من اضطراب فى تصور القيم العقلية . فلم يكن أى قاموس اداة للاضطراب ووسيلة للهدم او لتقلقل الفكر الانسانى .

ويؤمن الاستاذ لالاند ان الفلسفة تقوم على احترام نظم العقل والمحافظة على تراث الماضى ، والعمل على التوفيق بين هذه المحافظة وبين ما يتمتع العقل به من حرية . ولا يعنيه كصاحب قاموس أن يتمشى مع الحركات الثورية الفكرية ، ولن نطالبه بشيء من هذا . إنما نرجو أن يجد أبناء الجيل القادم رجلا مثله يتتبع الحركة الفكرية الناشئة ، ويوفق بين نتائجها وبين الثروة العقلية التى اكتسبها الانسان منذ العصور الاغريقية الزاهرة .

نجيب بلدى

المؤتمرات : أولا التقارير

المقدمة من حضرات الأساتذة الذين مثلوا الجامعة فى المؤتمر الثقافى بلبنان
فى المدة من ٢ الى ١١ سبتمبر ١٩٤٧

التقــــرير

المقدم من الاستاذ عبد الحميد العبادى بك

بعد أن أقر مجلس الجامعــة العربية المعاهدة الثقافية بين البُلدان العربية رؤى أن يكون أول عمل اللجنة الثقافية التى انعقدت بعد ذلك هو معالجة أمر الثقافة العربية . وقد قررت هذه اللجنة فى ٧ مارس سنة ١٩٤٦ عقــد أول مؤتمر ثقافى عربي في لبنان . وقررت أن تكون مهمة هذا المؤتمر البحث فى أمرين : —

الأول: وضع حد أدنى مشترك لمواد الثقافة العربية يعلم لطلاب البـــلاد العربية فى مرحلتى التعليم الابتدائى والثانوى .

الثانى : تحسين طرق تدريس اللغة العربية .

وقد قررت الهيئة الدائمة للجنة الثقـافية لجامعة الدول العربية فى ٢٠ أبريل سنة ١٩٤٦ تأليف لجنة تحضيرية تعد العدة للمؤتمر المذكور .

واجتمعت هذه اللجنة التحضيرية فتفرع عنها أربع لجان فرعية : —

١) لجنة اللغة العربية
٢) لجنة جغرافية البلاد العربية
٣) لجنة التاريخ العربي
٤) لجنة التربية الوطنية

وكان الاستاذ ابراهيم مصطفى رئيس قسم اللغة العربية بكلية الآداب بجامعة فاروق الأول عضوا فى لجنة اللغة العربية ، كما كان الاستاذ عبد الحميد العبادى أستاذ التاريخ الاسلامي بالكلية المذكورة عضوا فى لجنة التاريخ .

ثم قامت اللجان الفرعية الأربع المذكورة بتحضير التقارير والاسئلة ، وقد أقرتها اللجنة التحضيرية العامة .

ثم عرضت هذه التقارير والاسئلة على الشعب المحلية فى الأقطار العربية عن طريق حكوماتها ، وعنيت الشعب المذكورة ببحث هذه التقارير والاسئلة ووزعتها على الاخصائيين والهيئات العلمية والادبية ثم أرسلت ما ورد اليها من البحوث الى اللجنة التحضيرية فى مصر .

وقد نظرت اللجنة التحضيرية فى البحوث والتقارير الواردة من البلاد العربية ، فنظمتها وصاغتها فى صورة مشروع قرارات لتعرض على المؤتمر . وقد وصلت الى جامعة فاروق الاول دعوة من اللجنة الثقافية بجامعة الدول العربية الى أن ترسل الى المؤتمر المذكور ممثلين لها ، فاختارت الجامعة حضرات الاساتذة عبد الحميد العبادى بك عميد كلية الآداب وأستاذ التاريخ الاسلامي بها ، وأحمد محمد العدوى أستاذ الجغرافيه ، ومحمد خلف الله الاستاذ المساعد بقسم الغة العربية فأبحر ثلاثتهم من الاسكندرية فى ٣١ أغسطس فوصلوا الى بيروت فى صبيحة أول سبتمبر ، وابتدأ انعقاد المؤتمر فى الثاني من سبتمبر وانتهى فى الحادى عشر منه . وكان انعقاده فى فندق بيت مري .

* * *

قسم أعضاء المؤتمر الى لجنتين فنيتين عامتين :—

الأولى: لجنة اللغة العربية ، وكان الاستاذ محمد خلف الله من أعضائها .

الثانية : لجنة المواد الاجتماعية

ثم تفرعت كل من اللجنتين المذكورتين الى لجان فرعية كانت بالنسبة للمواد الاجتماعية ثلاثا ١) لجنة التاريخ، وكان الاستاذ عبد الحميد العبادى بك من أعضائها
٢) لجنة الجغرافيه ، وكان من أعضائها الاستاذ أحمد محمد العدوى
٣) لجنة التربية الوطنية

وكانت مهمة اللجان الفرعية دراسة المسائل والتقارير التى تدخل في اختصاصها وتلخص الآراء التي وردت فى التقارير ، ثم تتقدم باقتراحاتها الى اللجنة الفنية العامة التي تدرسها وتتقدم للهيئة العامة للمؤتمر وهذه تنظر فى مقترحات اللجنتين العامتين وتتخذ القرارات النهائية للمؤتمر .

* * *

ناقشت اللجنة الفرعية للتاريخ فى اجتماعاتها الخمسة التقارير والاسئلة الواردة من اللجنة التحضيرية والتى تختص بدراسة التاريخ فى مرحلتي التعليم الابتدائى والثانوي.

ويمكن أن نلخص ما وصل اليه المؤتمر فى هذا الموضوع فيما يأتى :—

أولا — أن تكون دراسة التاريخ العربى في المرحلة الابتدائية منصبة على تاريخ القطر الذي يعيش فيه التلميذ ، مع العناية بصلات هذا القطر بالبلاد العربية المجاورة له قبل الاسلام وبعده . وأن تكون الدراسة قائمة على القصص وسير أبطال التاريخ القومي وأبطال العرب ممن تجاوز أثرهم حدود بلادهم .

ثانيا — أما في مرحلة التعليم الثانوي ، فرؤي أن يدرس التاريخ العربي على أساس الدول العربية التي قامت ، وأن يدمج تاريخ الحضارة العربية فى

التاريخ العربي العام ، وأن يستفاد من التاريخ العربي فى تقوية الروح العربي الحق .

وقد وضعت توجيهات وتوصيات مختلفة تتعلق بالرحلات والمتاحف وكتب الدراسة تحقق الغرض المقصود من دراسة التاريخ العربى .

أما من الناحية العامة للمؤتمر ، فقد بدىء بحفلة افتتاح رسمية شرفها فخامة رئيس الجمهورية اللبنانية وألقى فخامته خطبة الافتتاح ، ثم تكلم بعده رؤساء الوفود العربية الرسمية كلٌ عن حكومته . وقد اعتبرت ادارة المؤتمر صاحب العزة اسماعيل القباني بك المستشار الفنى لوزارة المعارف المصرية وأحد ممثليها فى المؤتمر رئيسا لممثلى مصر الرسميين ، وألقى عزته كلمة فى الحفلة الافتتاحية بهذه الصفة .

وختم المؤتمر بحفلة رسمية رأسها دولة رئيس الوزارة اللبنانية وألقى فيها دولته خطابا مرتجلا ، وألقى الأستاذ عبد الحميد العبادى بك كلمة باسم ممثلى مصر فى هذه الحفلة .

وتخللت أيام المؤتمر حفلات ورحلات وولائم نظمتها الحكومة اللبنانية تكريما لأعضاء المؤتمر ، وكانت غاية في حسن الرواء والبهجة . والخلاصة أن المؤتمر حقق الغرض الذي قصد اليه النجاح كله ، سواء أكان ذلك من حيث الغرض العلمى الذى سبقت الاشارة اليه ، أو الغرض العام وهو اجتماع طائفة ممتازة من كبار رجال العلم والثقافة في العالم العربي وتعارفهم وتبادلهم الرأي والمشورة فى أمر توجيه الثقافة في البلدان العربية .

عميد كلية الآداب

التقـــــــرير

المقدم من حضرة الاستاذ أحمد محمد العدوى

حضرة صاحب العزة عميد كلية الآداب

بعد التحية ، أتشرف بأن أرفع لعزتكم تقريرى عن المؤتمر الثقافى الأول الذى عقد فى بيت مري بلبنان في سبتمبر سنة ١٩٤٧ ، والذى مثلت فيه جامعة فاروق الأول بالاشتراك مع حضرة صاحب العزة عبد الحميد العبادى بك عميد الكلية وأستاذ التاريخ الاسلامى بها ، والاستاذ محمد خلف الله الاستاذ المساعد بقسم اللغة العربية.

قام بأعداد وتنظيم المؤتمر اللجنة الثقافية التابعة لجامعة الأمم العربية ، وكان غرضه الأول وضع خطة مشتركة لتثقيف أبناء البلاد العربية ، وذلك ببحث مناهج وأساليب تعليم اللغة العربية والتربية الوطنية والتاريخ والجغرافيا في مختلف البلاد العربية ، والسعى فى توحيدها بالقدر المستطاع بحيث يكون هناك قدر مشترك يعتبر الحد الأدنى الذى يجب على كل مواطن عربي معرفته فى مرحلتى التعليم الثانوي والابتدائى .

وقبل انعقاد المؤتمر بشهور اتصلت اللجنة الثقافية التابعة لجامعة الأمم العربية بمختلف الهيئات العلمية بالبلاد العربية ومنها قسم الجغرافيا بكلية الآداب بجامعة فاروق وطلبت اليه بحث الموضوع فيما يختص بمادة الجغرافيا مع اقتراح المنهج المثالى للجغرافيا فى البلاد العربية وطرق تطبيقه ووسائل إيضاحه الخ ....

وقد قمت بعقد عدة اجتماعات من هيئة التدريس بالقسم ، وبعد دراسة الموضوع أرسلت مذكرة ضافية برأي القسم الى اللجنة الفنية الجغرافية التابعة للمؤتمر فيما بعد.

سافرت وزملائي من الاسكندرية فى يوم ٣٠ أغسطس سنه ١٩٤٧ على

الباخرة كورنثيا فوصلنا بيروت ، فبيت مرى مقر المؤتمر يوم أول سبتمبر .

وقد بدأ المؤتمر جلساته صباح ٢ سبتمبر وكان يضم ممثلين رسميين لهيئات مختلفة في مصر وسائر البلاد العربية ، كاليمن والمملكة العربية السعودية والمملكة الأردنية الهاشمية وفلسطين والعراق وسوريا ولبنان وليبيا ، وذلك عدا عدد عظيم من الأعضاء غير الرسميين ، بينهم عدد كبير من السيدات ، وقد قوبل أعضاء المؤتمر خير استقبال من رجال الحكومة اللبنانية والشعب اللبناني ، وظهر ذلك في حفلات التكريم التي أقيمت فى مختلف البلدان ، وقد نظمت رحلات علمية واخرى للترفيه في ربوع الجبل لحضرات الأعضاء .

بعد حفلة الافتتاح قسّم أعضاء المؤتمر الرسميين الى لجان فنية فرعية للبدء في العمل ، وكان عددها خمساً : الأولى للأدب العربي والثانية للقواعد واللغة والثالثة للتربية الوطنية والرابعة للتاريخ والخامسة للجغرافيا ، وقد ألفت منهم أيضا لجنتان فنيتان عامتان ، واحدة للغة العربية والأخرى للمواد الاجتماعية ، وذلك لتنسيق قرارات اللجان الفرعية ، ولقد كان نصيبي بطبيعة الحال تمثيل جامعة فاروق فى اللجنة الفنية الفرعية للجغرافيا واللجنة الفنية العامة للمواد الاجتماعية ، وقد عقدت هذه اللجان عدة جلسات ناقشت فيها الاقتراحات التي وردت من الهيئات المختلفة بالبلاد العربية فمحصتها واختارت منها ما يروق لها . وزادت عليها وقدمت توصياتها بعد ذلك للمؤتمر للموافقة عليها

ويمكن تلخيص توصيات اللجنة الفنية الفرعية للجغرافيا فيما يلي :

١ — ضرورة العناية بدراسة جغرافية الاقطار العربية الى جانب جغرافية الوطن الخاص ، وابراز الروابط البشرية والاقتصادية بين هذه الأقطار .

٢ — فى مرحلة التعليم الابتدائي تتدرج دراسة البيئة المحلية الخاصة حتى تمتد

الى دراسة بيئة الأقطار العربية فى موضعها من الأقاليم الطبيعية دراسة عامه ، ثم يُدرس العالم العربى كله بشىء من التفصيل فى إحدى السنوات الأخيرة من التعليم الثانوي من الناحية الطبيعية والبشرية ، وتُدرّس جغرافية الوطن الخاص دراسة مفصلة في المرحلة الأخيرة من التعليم الثانوي .

٣) يجب أن يكون هناك قدر مشترك لمنهج الجغرافيا للبلاد العربيه يعتبر حدا أدنى لما يدرس فى المدارس الابتدائيه والثانوية ، وقدر ينفرد به كل قطر عربي لظروفه الخاصه .

٤) يجب إعداد معلم الجغرافيا في البلاد العربيه إعدادا خاصا يجعله قادرا على تحقيق الغرض من دراسه الجغرافيا ، وذلك بانشاء قسم خاص للجغرافيا فى الجامعات القائمه اليوم أو التي ستنشأ مستقبلا في البلاد العربيه ، وأن تُنظم الدراسه فى مدارس المعلمين والمعلمات بحيث تشتمل على منهاج تغلب فيه الدراسات الجغرافيه للطلاب الذين يرون في أنفسهم ميلا لهذا العلم ، وفضلا عن ذلك يجب تنظيم دراسات صيفية للمعلمين والمعلمات ليزدادوا علما بمادتهم باستمرار .

٥) يجب تخصيص حجرة خاصه للجغرافيا فى معاهد الدراسه تحوى جميع وسائل الايضاح من خرائط ونماذج وصور وأفلام الخ ...

٦) توصى اللجنه الادارة الثقافيه بجامعه الدول العربيه بأن تتخذ ما يلزم من اجراء لأعداد أطالس وخرائط جغرافيه للبلاد العربيه تتناسب مع مراحل التعليم الابتدائي والثانوى والعالي .

٧) تري اللجنه أن تُشجع الدول العربيه الرحلات والمؤتمرات الجغرافيه للطلاب والمدرسين المتخصصين فى الجغرافيا لمشاهدة الظاهرات التى قرأوا عنها .

٨) توصى اللجنه بأن تسهل كل دولة من الدول العربيه لمن يشاء من الباحثين

الجغرافيين زيارة الجهات التي يرغب في دراستها وأن تضع تحت تصرفه ما يعينه على أداء واجبه العلمي .

٩) نظرا إلى أن هناك حاجه ماسه الى مؤلف مفصل يتناول جغرافيه البلاد العربيه جميعا يكون بمثابة مرجع جغرافى يحوي آخر ما وصل اليه العلم ، توصي اللجنه أن تتولى جامعة الأمم العربيه تأليف لجنه فنيه لاتخاذ الوسائل اللازمه لتنفيذ هذا الاقتراح .

ومتابعة لحركة التأليف الجغرافى ، ترى اللجنه ضرورة تبادل عدد كاف من النسخ لأهم الكتب الجغرافيه والنشرات والتقارير بين الأقطار العربيه بعضها وبعض لتزوّد بها المكتبات فى معاهدها .

ومن ذلك نرى أن هذا المؤتمر ثقافى علمي تربوى وقد لاحظت فيما لاحظت :

ا) أن طلاب معظم البلاد العربيه يعرفون عن جغرافية مصر أكثر مما يعرفه الطالب المصري عن جغرافيه البلاد العربيه ، وأن أبناء البلاد العربيه يهتمون بمعرفة شؤون مصر أكثر من اهتمام المصرى بمعرفه شؤون البلاد العربيه .

ب) أن المستوى الثقافى الجامعى فى الجغرافيا أعلى كثيرا في مصر عما هو فى البلاد العربيه الأخرى ، ولكن المستوي الثقافي الثانوى والابتدائى يختلف بين البلاد العربيه بعضها وبعض اختلافا كبيرا ، ففى بعضها قد يضارع ما هو في مصر وفى غيرها ما هو أدنى من ذلك بكثير .

جـ) لقد ظهرت مؤلفات مدرسيه عديدة فى الجغرافيا فى بعض البلاد العربيه قد تضارع ما ظهر فى مصر ، ومعظمها عرضت فى معرض (الكتاب العربى) أثناء انعقاد المؤتمر ، وهذا ما يجهله كثير من معلمى مصر عن التأليف الجغرافى في بعض البلاد العربيه .

والخلاصه أن فكرة انعقاد ذلك المؤتمر الثقافي صائبه ، تجعل رجال الثقافه والعلم والتربيه يتبادلون الآراء ، وتتفتح عيونهم الى حقائق جديدة ، ولا شك أن المؤتمر قد نجح نجاحا عظيما فى مهمته .

وتفضلوا عزتكم بقبول فائق الاحترام ؟

احمد محمد العدوي
رئيس قسم الجغرافيا
وممثل جامعة فاروق فى المؤتمر

ثالثا التقـــرير

المقدم من حضرة الاستاذ محمد خلف الله احمد

١) انعقد هـذا المؤتمر بدعوة من اللجنة الثقـافية لجامعة الدول العربية — في فندق بيت مرى الـكبير بلبنان ، من ٢ الى ١١ سبتمبر سنة ١٩٤٧ .

وكانت مهمته البحث في أمرين:

الأول — وضع حـد أدني مشترك لمواد الثقافة العربية يعلم لطلاب البلاد العربيه في مراحل التعليم الابتدائيه والثانوية .

الثانى — تحسين طرق تدريس اللغه العربيه .

وقد اشتركت في هذا المؤتمر وفود رسمية من دول الجامعه العربيه وفلسـطين وبلاد المغرب. ومثلت «مصر» فيه وفود رسميه من جامعهفاروق الأول وجامعة فؤاد الأول والجامعه الأزهرية والمجمع اللغوى الملكي ووزارة المعارف المصرية، واشترك فى عضويته عدد كبير من المشتغلين بشئون التعليم فى البلاد العربيه .

وقد أحاطت الحكومه اللبنانيه والشعب اللبناني أعضاء المؤتمـر بكل صنوف الاكرام والرعاية ، وهيأت لهم وسـائل الانتقال لزيارة أهم البلاد اللبنانية ومعالمها وآثارها ومظاهر نهضتها .

وتفضل فخامة رئيس الجمهورية اللبنانية فافتتح المؤتمر . وقام معالي وزير التربية الوطنيه اللبنانية برياسته . وناب دولة رئيس وزراء لبنان عن فخامه الرئيس في حضور الحفـلة الختاميه للمؤتمر والخطابة فيها . كما تفضـل هو وبعض حضرات أصحاب المعالى الوزراء وحضرات أعضاء المجالس البلدية لبعض مدن لبنان فأقاموا حفلات لتكريم المؤتمرين .

ونجح المؤتمر فى أن هيأ لرجال التعليم فى البلاد العربية فرصة اللقاء والتعارف وتبادل الآراء فى الاجتماعات والرحلات والحفلات — وكان لذلك أثره فى القرارات التى وصل اليها المؤتمر باجماع أعضائه .

٢) أما من الناحية الفنية فقد شكل للمؤتمر :—

١) مكتب مؤلف من خمسة أعضاء مندوبين من الجامعة العربية وثلاثه مندوبين من الحكومه اللبنانيه ومهمته الاشراف على الأعمال الادارية للمؤتمر .

٢) اللجنة التوجيهية ، وتتكون من مكتب المؤتمر ورؤساء وفود البلاد العربية ومهمتها تنظيم أعمال المؤتمر الفنية .

٣) اللجنتان الفنيتان العامتان ، وهما :

ا — لجنة اللغة العربية .

ب — لجنة المواد الاجتماعية (التاريخ والجغرافيا والتربية الوطنية) .

وتتألف كل لجنه منهما من أعضاء المؤتمر الذين اختاروا تلك اللجنة فى طلب الاشتراك .

٤) اللجان الفنية الفرعية : فتتفرع عن لجنة اللغة العربية ،

ا — لجنة الأدب وما يتصل به

ب — لجنة اللغة والقواعد وما يتصل بها

وتتفرع عن لجنة المواد الاجتماعية :—

ا — لجنة التاريخ

ب — لجنة الجغرافيا

ح — لجنة التربية الوطنية

ومهمة اللجان الفنية الفرعية دراسة المسائل التي تدخل فى اختصاصها دراسة تمهيدية ،وتمحيص الآراء التى وردت فى التقارير وتلخيصها ، والتقدم باقتراحاتها فيها إلى اللجنة الفنية العامة .

٥) الهيئة العامة للمؤتمر ، وتتكون من كل أعضاء المؤتمر ، وتنظر فى مقترحات اللجنتين العامتين ، وتتخذ المقررات النهائية للمؤتمر .

٦) وقد اشتركتُ فى المرحلة التحضيرية لأعمال المؤتمر ، فقدمت بحثين احدهما عن الأدب ، والثاني عن النقد والبلاغة ، ولخص البحثان فى الكتاب الذي حوى ملخص التقارير المقدمه فى موضوعات المؤتمر .

وأتاحت لي عضويتي فى اللجنة المصرية التى ألفها معالى وزير المعارف المصرية لبحث طرق تيسير اللغة العربية أن أشترك فى بحث جميع النقط المتصلة بفروع اللغة العربية وطرق دراستها في جميع مراحل التعليم ، وأن أتقدم فى بعض هذه الفروع ببحوث ناقشتها اللجنة . وقد طبع تقرير اللجنة المصرية فى كتاب وزع على أعضاء المؤتمر ، وكان عاملا فى توجيه مناقشات لجنتي اللغة العربية فى المؤتمر .

واختارنى المؤتمر عضوا فى اللجنة الفرعية للأدب ومقررا لها ، فاشتركت في مناقشات اللجنة وقمت بتنسيق قراراتها وعرضها على اللجنة الفنية العامة لمناقشتها، ثم عرضها على المؤتمر فى جلسته الختامية لاقرارها .

وتضمنت هذه القرارات الأسس والتوجيهات التى وصلت اليها اللجنة في مناهج مواد التثقيف الأدبي فى مرحلة التعليم الابتدائى — وهى المطالعة والقصص والأناشيد والمحفوظات والتعبير - ومناهج الأدب نصوصه وتاريخه والنقد والبلاغة والمطالعة والتعبير في مرحلة التعليم الثانوي .

وتضمنت كذلك طرق استخدام هذه المواد في إثارة شعور المشاركة بين

سكان الأقطار العربية فى الحضارة والتاريخ وفى منزلتهم من النشاط الدولي الحديث.

هذا وقد اشتركتُ في جميع الرحلات التى نظمت لزيارة بيروت وبيت الدين، وصوفر، وضهور الشوير وزحلة وبعلبك والأرز وبشرى واهدن وطرابلس.

وسرني وشرفنى أن ألمس المكانة الممتازة التى تتمتع بها مصر من الوجهة الثقافيه بين البلاد العربيه، وأن أقوم بقسط في الجهود التي بذلها ممثلو مصر في التنظيم والبحث، وان اشترك مع حضرتى زميلى في تمثيل جامعه فاروق الأول فى هذا المؤتمر الثقافى العربي الأول.

محمد خلف الله
أستاذ الأدب العربي
بجامعة فاروق الأول

التقـــرير

المقدم من حضرتي الدكتور عبد المنعم أبوبكر والأستاذ محمد عبد العزيز مرزوق

اللذين مثلا الجامعة فى مؤتمر الآثار بالبلاد العربية

الذى انعقد بدمشق فى سبتمبر سنة ١٩٤٧

حضرة صاحب العزة عميد كلية الآداب .

قمنا برحلتنا إلى دمشق لتمثيل الجامعة في مؤتمر الآثار ، وذلك بناء على اختيار الكلية ومجلس الجامعة لنا .

وقد غادرنا الاسكندرية على السفينة « كيرينيا » التى أبحرت مساء السبت ٦ سبتمبر سنة ١٩٤٧ . ولما كان المؤتمر سيعقد فى دمشق يوم ١٣ سبتمبر سنة ١٩٤٧ ، رأينا الفرصة سانحة لنا لزيارة متحف الآثار ببيروت ومنطقة حفائر جبيل التي تبعد عن بيروت بحوالى نصف ساعة بالسيارة .

ولمتحف بيروت شهرة كبيرة لأنه يحوى آثارا تدل على ما كان بين لبنان القديم فى جميع عصوره من علاقات وثيقة بين الأمم العربية المتاخمة لها ، ونخص بالذكر منها مصر . وهو فى الواقع متحف صغير ، إلا أنه يعد مثلا طيبا يحتذى به فى تنسيق التحف وعرضها .

أما منطقة جبيل فلها أهمية معروفة ، إذ أن هذه المدينة — منذ عصور فجر التاريخ الأولى — كانت على علاقات وثيقة بمصر القديمة وطبعت بطابع مصري فى مدنيتها وحضارتها .

وتوجهنا الى دمشق يوم الخميس الموافق ١١ سبتمبر سنة ١٩٤٧ فوصلناها فى

نفس اليوم . وفى الحقيقة لقد كانت فكرة عقد مؤتمر الآثار فكرة صالحة إذ أتاحت لجميع المشتغلين بالآثار فى الدول العربية فرصة يجتمعون فيها معا في صعيد واحد يتبادلون الرأى ويتشاورون فى شئون الآثار .

ويمكننا أن نجمل أعمال المؤتمر فى النقط الأربعة الآتية :

أولا : القاء محاضرات علمية فى مختلف نواحي الآثار يعقبها مناقشات بين أعضاء المؤتمر . وقد القى الدكتور عبد المنعم أبو بكر محاضرة عن علاقة مصر بشعوب الشرق القديم في عصور فجر التاريخ ، كما ألقى الاستاذ محمد عبد العزيز محاضرة عن طراز الاسكندرية ومع هذا نسخه من المحاضرتين المذكورتين .

ثانيا : لجنه القوانين — وكانت مهمتها توحيد قوانين الآثار في مختلف البلدان العربيه والغرب على أيدى تجار العاديات ، وحماية الآثار من تسربها إلى البلاد الأجنبيه والعناية بها عناية كاملة . ولقد توصل المؤتمر الى الاتفاق على صيغه واحدة لقانون للآثار رفعت الى الادارة الثقافيه بالجامعه العربيه رجاء العمل على ابلاغها الى الحكومات المختلفه للموافقه عليها وتنفيذها .

ثالثا : لجنه الثقافه الأثرية وقد عملت على أن تتبادل الأمم العربيه التحف المختلفه كلما أمكن ذلك ، كما تتبادل الفنيين من أساتذة ومهندسين وغيرهم ، ثم تعمل على رعاية قدماء الصناع الفنيين نظرا لأنهم مهددين بالانقراض ، ثم أوصت بتدريس فن الحفر فى الجامعات العربيه التي تعنى بالدراسات الأثرية حتى يعد الطلاب العرب للقيام بأعباء الحفائر الأثرية بدلا من الأجانب. وأخيرا المحافظه على موقع الأثر وغير ذلك من الأمور المتصلة بالثقافه الأثرية.

رابعا : لجنه الاصطلاحات الفنيه ، وقد استقر الرأي فيها علي وضع معجم

للاصطلاحات الفنيه يشترك فيه كل المشتغلين بالآثار فى الأمم العربيه وذلك لتسهيل التأليف والنشر باللغه العربيه فى هذا المجال .

هذا وقد قام أعضاء المؤتمر برحلة أثرية زاروا فيها معالم حلب والمعرة وحماة وحمص وبعلبك ، أما الرحلة التى كانت مرتبه لزيارة فلسطين فقد اعتذرنا عنها نظرا لبدء امتحانات الكليه وضرورة وجودنا بها فى ذلك الوقت .

ونستطيع أن نختم هذا التقرير المجمل بأن المؤتمر نجح فى مهمته نجاحا باهرا وأن أعضاءه كانوا موضع حفاوة الحكومه السورية ورعايتها .

ولقد اقترح المؤتمر عقد دورته الثانيه فى مصر فى شتاء عام ١٩٤٩ ، وسيعد المؤتمر كتابا يتضمن ما القى فيه من ابحاث ومحاضرات علميه ، وما قررته لجانه المختلفه .

وتفضلوا عزتكم بقبول فائق الاحترام ؟

عبد المنعم أبو بكر　　　　محمد عبد العزيز مرزوق

FARROUK I UNIVERSITY
BULLETIN
OF THE FACULTY OF ARTS.

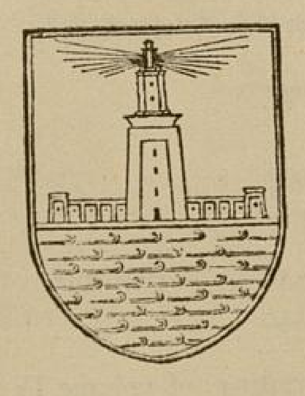


VOL. IV — 1948

For Copies of the Bulletin of the Faculty of Arts, apply to Farouk I University Library, Chatby-les-Bains, Alexandria.

ALEXANDRIE
IMPRIMERIE DU COMMERCE
1948

FAROUK I UNIVERSITY
BULLETIN
OF THE FACULTY OF ARTS.

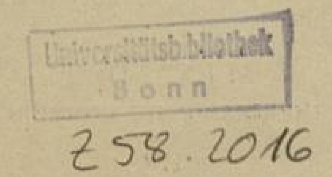


VOL. IV — 1948

For Copies of the Bulletin of the Faculty of Arts, apply to Farouk I University Library, Chatby-les-Bains, Alexandria.

ALEXANDRIE
IMPRIMERIE DU COMMERCE
1948

The printing of volume IV of
this Bulletin has been finished in
the month of November 1948 by
the Imprimerie du Commerce,
Alexandria.



FAROUK I UNIVERSITY

BULLETIN OF THE FACULTY OF ARTS.

Volume IV. 1948

TABLE OF CONTENTS OF THE EUROPEAN SECTION :

THE SARCOPHAGUS
OF
ALEXANDER THE GREAT

This paper is the substance of a lecture delivered before the Faculty of Arts on March 27th. 1947. In preparing it for publication I have benefited much from comments and suggestions made by several friends, notably M. Drioton, Dr. Tarn, Professor Sidney Smith, and Mr. I.E.S. Edwards to whom my best thanks are due. I am also specially indebted to Mr. Alan Rowe who has generously communicated to me from time to time the progress of his important researches into the history and monuments of Pharaonic Rhakotis which will shortly be published in the *Annales du Service des Antiquités*. The present paper is to be regarded as an attempt to reconcile fact and tradition and is here published as a basis for discussion pending the discovery of further archaeological evidence.

Alexander the Great after the capture of Tyre is 332 B.C. and the submission of the rest of Phoenicia and of Cyprus marched on Egypt which was still held by a Persian satrap (1). It was essential for him to secure these countries before he marched eastwards against Darius and the heart of the Persian Empire, because Persia drew its naval strength from those seaboard countries and Alexander could not afford to leave behind him a hostile fleet which might cut his communications with Macedonia and Greece and make his position difficult. In Egypt too he was likely to be well received. Egypt had never submitted tamely to Persian domination and the history of Persian rule in Egypt is a history of revolts and of Persian reconquest. The Greeks in their immemorial feud against Persia had always been ready to lend aid to the Egyptians against their hereditary foes. The successful stand made by the two last native Egyptian dynasties, the XXIXth and XXXth had been strongly supported by Greece. To assist Tachos of the latter dynasty Sparta had sent her aged king Agesilaus to command the land forces and from Athens had come Chabrias one of her best known admirals. It was barely more than nine years since in

341 B.C. Artaxerxes Ochus had succeeded in reducing Egypt once more. Alexander was thus hailed as a deliverer and the Persian garrison caught between his army and the Egyptians in constant unrest surrendered at discretion. Alexander as usual behaved in the most conciliatory manner. He worshipped the Egyptian gods who had been insulted by the Persians. At Memphis, where he paid due reverence to Apis who had been dishonoured by the Persians, he was probably proclaimed king. After descending the river towards Mareotis he paid his famous visit to the shrine and oracle of Ammon, as the Greeks called the Egyptian god Amen-Ra, at Siwah. His motives in doing so are obscure. Greeks, especially the Cyreneans, had long been accustomed to consult the oracle of Ammon and it is possible that Alexander having been hailed as King of Egypt and consequently like all kings of Egypt qualified as son of Amen-Ra (2) wished in order to calm possible Greek objections, to have his title confirmed by an oracle familiar to the Greeks and often consulted by them. Ammon recognised him as his son and thus the legitimacy of Alexander as King of Egypt was divinely acknowledged by a god worshipped both by Egyptians and by Greeks. On his return to Mareotis Alexander laid the foundations of his great new city, Alexandria, on the site of the ancient Pharaonic Rhakotis with its adjacent port Pharos. Like so many Hellenistic and later foundations Alexandria was not an entirely new city built on virgin soil, but an ancient city refounded, enlarged, and magnified, as Pagasae became Demetrias, as Cardia became Lysimacheia, and, best of all perhaps, as Byzantium became Constantinople.

Among the remains of Greak literature which have come down to us is a History of Romance of Alexander the Great (3). This in the form in which we have it is not older than the third century A.D., but most critics are of the opinion that the kernel of this Romance dates back to Ptolemaic times and is in the nature of a popular tale of Alexander's life and exploits composed in Egypt and based on historical facts. It is, we might say, the earliest historical novel. This is the Romance of Alexander which has spread all through the Orient and through Europe and has been translated into almost all the languages of those regions, including for instance Ethiopian and Armenian and it is known from the British Isles to the Malay Peninsula. The romance, which is usually well informed about Egyptian conditions, says that Rhakotis was an important town and the capital of a district which included sixteen towns. This is confirmed by Mr. Rowe's recent

researches into the monuments and history of Rhakotis which indicate that it was the key fort and town of the northwest frontier district towards Libya probably from xviiith dynasty times, certainly from the Ramessid age. The early harbour works observed by M. Jondet (4) off the northeast end of Pharos island are probably also Pharaonic and at any rate suggest that Rhakotis and its port were the main outlet for Egyptian communications with Mediterranean countries. It was perhaps the main port of Egypt for trading with Greek lands in the days of the xxvith, xxixth, and xxxth dynasties. The Samian (5) ship which relieved the Theraean colony about 640 B.C. on the island of Platea was on its way to Egypt and Pharos would be the first Egyptian port to be reached by a ship coasting along eastwards from Platea. Thucydides too knew of Pharos (6). A port in northwestern Egypt would be more suitable for communication with Greek lands than one near Pelusium or Damietta, for these latter were too near Palestine, Syria, and the power of Persia. All the evidence available indicates that Rhakotis was an important town under the later Pharaonic dynasties, and not a wretched village as Hogarth believed (7). The seat of the xxxth dynasty was Sebennytos, but in view of the close contact between the two last dynasties, the xxixth and xxxth, and Greece it is likely that Rhakotis was then almost as important as Sebennytos, for it would have been the port for external communication. These two dynaties depended so much on assistance from Greece. The importance of Rhakotis in late Pharaonic times is another reason in support of Alexander's choice of it as the site of his new city.

Nectanebo II (Nekht-har-heb) (8) the last king of the xxxth dynasty ruled well and successfully for eighteen years. He was also a great builder and restorer of monuments and temples. He apparently achieved a great reputation and was regarded as a magician by Greeks as well as by Egyptians, as is shewn by a Greek papyrus of the second century B.C. from Memphis (9). The Persians is 343-342 B.C. drove him from the Delta and from Memphis, but he succeeded in maintaining himself in Upper Egypt till 341 B.C. He may have made Asswan his capital, for his monuments are conspicuous both there and at the neighbouring Philae. After 341 B.C. he vanishes from history. One tale says he fled to Nubia where he died, but nothing is certain except that the time and place of his death and burial are unknown.

Alexander who like all Egyptian kings since Hatshepsut was qualified as son of Amen-Ra, called by the Greeks Ammon, as

already stated, wished himself to be regarded as the legitimate successor of Nectanebo II and the xxxth dynasty. Thus in the Romance we find two conflicting tales. One was that Alexander was the son of Nectanebo II who had taken refuge in Macedonia at the court of Philip II and had become the father of Alexander by visiting Olympias in the guise of Ammon which he had assumed by his magic. The other tale was that Nectanebo II though he had fled from Egypt would one day return rejuvenated and deliver his country from its Persian oppressors. Either of these tales would serve to justify Alexander's position as King of Egypt. He was given royal titles and cartouches like all Pharaohs, and the Ptolemies, who succeeded him, also had Egyptian royal titles and cartouches. The Ptolemies too we know were crowned kings of Egypt in the Egyptian fashion usually at Memphis, though we know that on one occasion, that of the coronation of Ptolemy XI, Auletes, the ceremony took place in 76 B.C. at Alexandria whither the high priest journeyed specially from Memphis (10). The Ptolemies completed or decorated many temples and monuments which had been begun by Nectanebo II especially in Upper Egypt, as at Karnak, Philae, Asswan, Edfu, Dendereh, and Medamud. In doing so they definitely associated themselves with the last king of the xxxth dynasty. Their object was to conform to Egyptian opinion, custom, and religion and to consolidate their position as kings of Egypt. In this they undoubtedly followed Alexander's broadminded policy of conciliation.

Thus far we have two clear points :-

a) Nectanebo II (Nekht-har-heb) was far from being an unimportant king and it seems certain that he died outside Egypt, at all events outside Lower Egypt. As the last king of the last Pharaonic dynasty he was invested with a halo of romance which was enhanced by his reputation as a great magician in popular legend both among Egyptians and among Greeks.

b) Alexander, on being proclaimed King of Egypt and probably also crowned with due Egyptian rites at Memphis, naturally was acknowledged as the son of Amen-Ra and so was regarded as legitimate king of Egypt and successor of the xxxth dynasty and its last king Nectanebo II. Alexander and his Ptolemaic successors encouraged this by a studied policy of conciliation towards Egyptian religious belief and ceremonial (11).

There was in the Attarin Mosque in Alexandria a large (10 feet 3 1/2 long, 5 feet 3 3/4 wide, 3 feet 10 3/4 high) and fine sarcophagus of breccia which served as a water tank for the ablution

fountain. This was removed by Napoleon's expedition of 1798, (12) but subsequently captured by the British at the same time as the Rosetta Stone and taken to the British Museum as spoil of war (13). The hieroglyphic inscriptions on the sarcophagus, the lid of which is missing, could not then be read. Now that we can decipher the hieroglyphs we know that this sarcophagus was intended for Nectanebo II (Nekht-har-heb) (14). He can never have been buried in it, for he did not die in Egypt, at least not in Lower Egypt. Why then was his sarcophagus in Alexandria? Mr. Rowe's researches have emphasized the importance of Rhakotis in Pharaonic times. Though, as stated, Sebennytos was the capital of the xxxth dynasty, there is evidence that Rhakotis maintained its importance under this dynasty also as is shown by the monuments of this period found in and about Alexandria. Along these monuments there is in the Greco-Roman Museum the sarcophagus of a prominent general of xxxth dynasty date (15). This and other funerary monuments suggest that there may have been in or near Rhakotis a cemetery of this period in which important officials and nobles were buried. Perhaps there were royal tombs of the xxxth dynasty in the same cemetery. This would account for the presence of Nectanebo II's sarcophagus in Alexandria. As is well known an Egyptian king had his tomb and sarcophagus prepared during his life time. If this was done in the case of Nectanebo II and there was a royal cemetery of that date at Rhakotis not only would a tomb have been prepared for him, but a royal sarcophagus also. We do not know the burial place of the kings of the xxxth dynasty and it may be objected that if Sebennytos was their capital why should Rhakotis have been chosen as their burial place. On the other hand we must remember that before Professor Montet's discoveries no one would have ventured to predict that royal tombs of the xxist and xxiind dynasties would be found at Tanis (16). It is therefore not impossible that Nectanebo II was arranging for a tomb and sarcophagus for himself at Rhakotis. The sarcophagus is so large that it is not likely to have been brought from a great distance on account of its size and weight. The builders of the Attarin Mosque would hardly have brought it to Alexandria from some other site in the Delta or Lower Egypt, and Middle and Upper Egypt are further away still. The Attarin Mosque was originally the Church of St. Athanasius (dedicated porbably in the fourth century A.D.) till the Arab conquest in 641 A.D. when it was converted into a mosque. Its foundation inscriptions (17) state it was built in 1084 A.D. and thus the traditions connected with it probably go back at least

to that date. The tradition always connected with the sarcophagus of Nectanebo II which was in the mosque for so many years is that it was the sarcophagus of Alexander the Great. It was much venerated by all, Moslems and Christians alike, as the sarcophagus of the great conqueror. It was owing to this belief that the French and the British contended, so to speak, for possession of it. In those days the hieroglyphs could not be read and when the hieroglyphs were ultimately deciphered through the researches of Young and Champollion, it was believed that this was the sarcophagus of Nectanebo I, because it was then thought that Nekht-nebf was Nectanebo II. Now hewever, we know that Nekht-nebf was Nectanebo I and we realise that Nectanebo II (Nekht-har-heb) for whom the sarcophagus was destined could never have used it, the tradition attached to the sarcophagus assumes another aspect. Is it in fact possible that the tradition that this was really the sarcophagus of Alexander correct? It is possible that it is correct.

If the assumption is right that Nectanebo II was preparing in Rhakotis a royal tomb and a royal sarcophagus for himself there would then have been there on Alexander's coming to Egypt an unused royal tomb and an unused royal sarcophagus waiting for a royal tenant. So when Alexander's body was brought to Alexandria it is possible that the unused tomb and the unused sarcophagus of Nectanebo II were employed for his burial. The burial of Alexander in that tomb and in that sarcophagus would have linked him definitely to the xxxth dynasty. In Alexander's day and in Ptolemaic days the hieroglyphs could be read and if Alexander had been buried in Nectanebo II's tomb and sarcophagus the inscriptions would reveal that fact. Popular belief, as remarked above, recorded in the Romance held that Alexander was either. Nectanebo II returned rejuvenated to deliver his country from the Persians or else the son of Nectanebo II. In either case Alexander's burial in Nectanebo II's sarcophagus would have been appropriate. The son would surely have a right to inherit his father's sarcophagus, if unused. This might have meant a change in the cartouches in the inscription and so far as we know no change is observable, but it is possible that the change might have been made only on the lid which is missing. On the other hand if Alexander were a rejuvenated Nectanebo II the sarcophagus would be undoubtedly his and no change in the cartouches would be necessary, although Alexander has his own cartouches.

When Alexander died he was wrapped in gold (presumably a golden anthropoid sarcophagus or mummy case) and brought by

Ptolemy I in a splendid funeral car to Egypt for burial (18). He was at first entombed at Memphis and later either the first or the second Ptolemy transferred the body to Alexandria where it was entombed in a suitable royal sepulchre. Is it possible that Alexander, and the Ptolemies after him, were buried in an old cemetery of the xxxth dynasty at Rhakotis? If that cemetery were a royal one then the mere fact that Alexander and the Ptolemies were buried in it would make the Macedonian kings still more Egyptian and emphasize their continuity with the Pharaohs. Would the Greeks have objected to the burial of Alexander in an Egyptian sarcophagus and in an Egyptian tomb? The Greeks and Macedonians had already been obliged to accept many of Alexander's ideas about the union of East and West in the adoption of Persian customs and in the marriage of Persian wives. Alexander encouraged too the theory of divine descent or even of actual divinity for kings and royalty. Greek heroic pedigrees however in many cases go back to divine ancestors. It is true that there were some who protested like Callisthenes, but in general apparently there was no violent opposition. We know too that the Ptolemies were crowned with Egyptian ceremonial, and appear in Egyptian guise on Egyptian monuments and statues and Greeks and Macedonians seem to have accepted this. The same would also probably hold true in the Seleucid kingdom which included Babylonia, another country with an immemorial religion and deeprooted religious ceremonies and customs.

Ever since hieroglyphs have been read in the nineteenth century A.D. scholars have unanimously rejected the idea that this sarcophagus from the Attarin Mosque can ever have been Alexander's. This was partly due, no doubt, to the belief that Nekht-har-heb for whom it was made was Nectanebo I and not as we now know Nectanebo II. Since the tradition that it was Alexander's persisted all through the ages when hieroglyphs could not be read it is conceivably possible that the tradition is right.

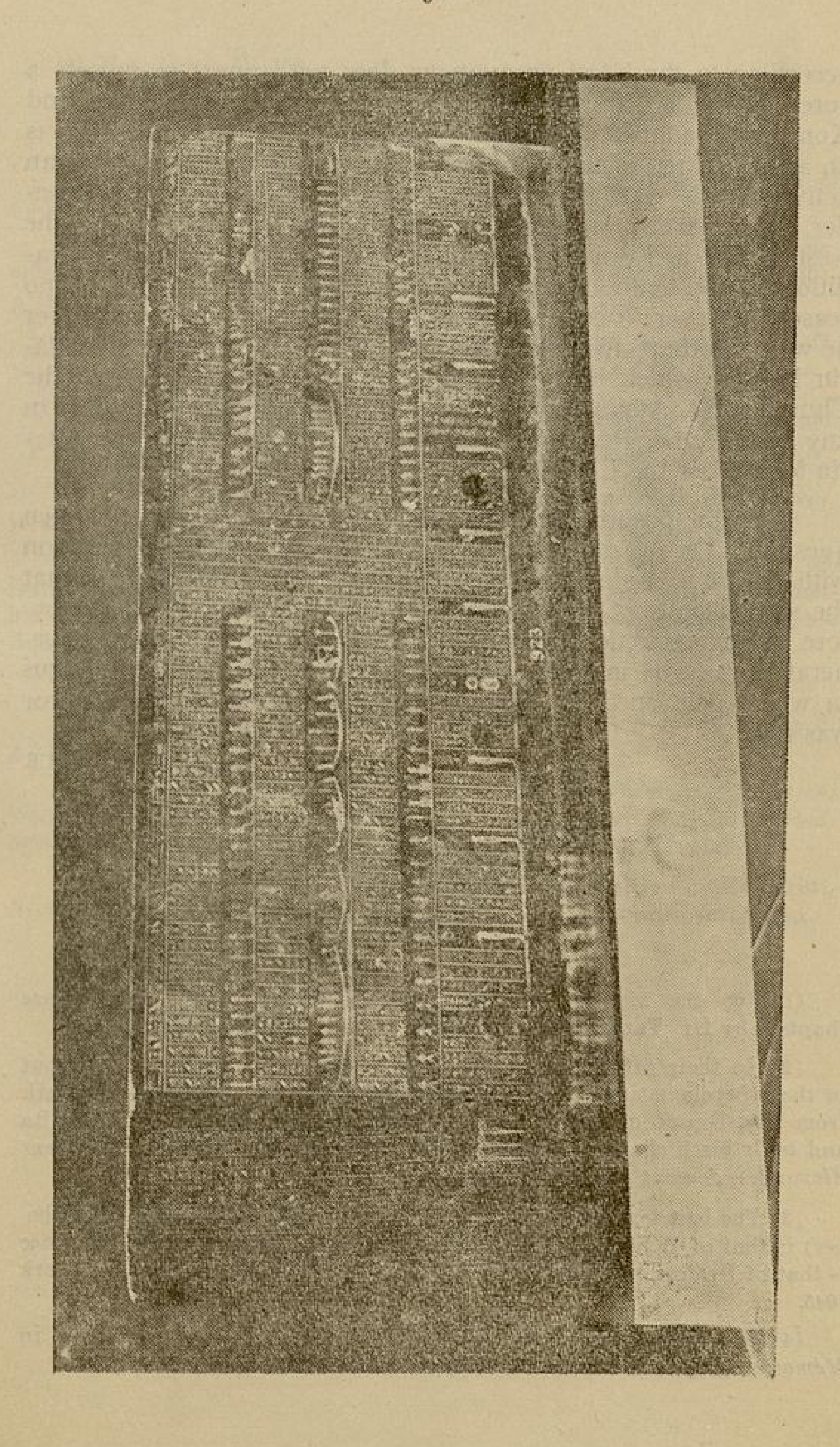
The body of Alexander in its golden wrappings would probably have been laid in a coffin of gold and then placed in the stone sarcophagus of Nectanebo II. The inner gold coffin is reported to have been removed by Ptolemy IX, Alexander I, when in need of funds, and replaced by one of glass. Cleopatra is also said to have taken valuables from the tomb. In the tomb (19) were also some at least of Alexander's royal and military equipment, for Caligula removed the cuirass and we know that the sarcophagus and its contents could be inspected. Octavianus on his

arrival in Egypt in 30 B.C. according to Suetonius inspected the body of Alexander and in doing so, Dio Cassius says, broke the nose. It would seem then that the tomb and sarcophagus with the gold encased body of the great conqueror were always able to be seen by distinguished visitors. Perhaps the *procurator Neaspoleos et Mausolei Alexandriae* of whom we hear in two inscriptions was the custodian of Alexander's Tomb. Septimius Severus is said to have shut up all the sacred books of Egypt in the tomb and Caracalla laid in the tomb his cloak, his belt and other valuable objects. If the tomb were a rock cut royal tomb like other Egyptian royal tombs and if the breccia sarcophagus of Nectanebo II was the outer sarcohpagus such visits would always have been possible.

We thus have two reasons for the burial of Alexander in Alexandria. The first is that it was his own city and the founder of a Greek city was usually when possible buried in its centre, as was Battus at Cyrene and Brasidas at Amphipolis. The second reason is that if he were buried in the sarcophagus of the last king of the xxxth dynasty in a royal tomb in the cemetery of that dynasty that mere fact would strengthen his claim and the claim of his Ptolemaic successors to be legitimate kings of Egypt and true heirs of the xxxth dynasty.

If the possibility of Alexander's burial in the sarcophagus of Nectanebo II can be provisionally accepted one further point arises. Did the legend of Alexander's connection with Nectanebo II, as told in the Romance, derive from his burial in the sarcophagus or did the burial in the sarcophagus take place because of the legend? Possibly the legend arose from Alexander's burial in the sarcophagus. The hieroglyphs could then be read and if the question were asked why Alexander was buried in the sarcophagus of Nectanebo II (Nekht-har-heb) the reply, following the popular belief already mentioned, would be either because he was Nectanebo rejuvenated and returned to Egypt as a triumphant deliverer of his country from the Persians or because he was the son of Nectanebo II. Either explanation would satisfy not too critical an enquirer.

If Alexander was buried in the sarcophagus of Nectanebo II in an old royal cemetery of the xxxth dynasty in Rhakotis where was the cemetery and where was the Tomb of Alexander? This problem remains for further research. The suggestion that Alexander's Tomb lay under Kom ed Dik is possible, but that hill



according to the latest excavations does not appear to possess a core of rock like the hill at the Serapeum (Pompey's Pillar and Kom esh Shuqafa). The greater part of the hill of Kom ed Dik is an accumulation of the Mameluke period being the débris from an active potters' and glassmakers' quarter. The Tomb of Alexander may have lain under the Mosque of Nebi Daniel at the western foot of Kom ed Dik which has attached to it the long tradition of the tomb of the mysterious Nebi Daniel. There is no reason however to connect Alexander with Nebi Daniel whoever he was. Perhaps the tomb may have lain under or near the Attarin Mosque which in its original form was constructed from the Church of St. Athanasius. On the other hand there is nothing in any legend other than the sarcophagus to connect either the Attarin Mosque or the Church of St Athanasius with Alexander.

Thus the position of Alexander's Tomb must remain an open question. On the other hand if this attempt to reconcile tradition with the facts we possess be accepted then we may believe that the sarcophagus of Nectanebo II once in the Attarin Mosque before its reconstruction where it was the object of the greatest veneration may be in spite of all scepticism the actual sarcophagus in which gold encased body of the great Macedonian conqueror was laid.

ALAN J. B. WACE

NOTES

(1) For the history of Alexander the Great see the appropriate chapters by Dr. Tarn in the *Cambridge Ancient History* Vol. VI.

(2) In their official titles Egyptian kings were sons of Ra only, but in their proclamations of their rights and claims to the throne they all, from Hatshepsut onwards, declared themselves to be sons of Amen-Ra and built birth chapels to support this. See also G. Maspero, *Comment Alexandre devient dieu en Egypte.*

(3) The best text of the *Historia Alexandri Magni* (Pseudo-Callisthenes) is that of W. Kroll, Berlin 1926. The latest account of the Romance is that of Professor Haight in *More Essays on Greek Romances*, New York 1945.

(4) See Jondet, *Les Ports submergés de l'ancienne île de Pharos* in *Mémoires présentés à l'Institut Egyptien* Vol. IX, Cairo 1916.

(5) Herodotus, IV 152.

(6) Thucydides, I 104.

(7) Hogarth, *J.E.A.* 1915 (Vol. II), p. 55.

(8) For the history of Nectanebo II see Drioton-Vandrier, *Peuples de l'orient méditerranéen* II, p. 583 ff.

(9) See Wilcken, Mélanges Nicole, p. 579 ff.; *Id., Urkunden d. Ptolemäerzeit*, p. 369 ff.; compare *Annales du Service des Antiquités* XL (1940), p. 13.

(10) Bevan, *History of Egypt under the Ptolemaic Dynasty*, p. 346 ff.

(11) Bevan, *op. cit.*, p. 182 ff.

(12) *Description de l'Egypte, Antiquités, Planches* Vol. V, 38, 39, 40

(13) See Clarke, *Tomb of Alexander*, Cambridge 1805.

(14) British Museum, *Guide to Egyptian Galleries* (*Sculpture*), p. 248, No. 923, Pls. xxxii, xxxiii.

(15) Greco-Roman Museum Alexandria, Room 9, No. 39 (440), see Daressy, *Annales du Service des Antiquités* V, p. 123, no. xxi. It is possible that there were royal tombs of the XXVIth Dynasty at Rhakotis, see Rowe, *Bull. Soc. Arch. Alex.* no. 36, p. 33 ff.

(16) See Montet, *Tanis*.

(17) *Corpus Inscript. Arabic., Egypte* I, No. 518; *Bull. Inst. Egypt.* XXIV, p. 147 ff.

(18) See Kurt Müller, *Der Leichenwagen Alexanders des Grossen*; Wilamowitz, *Jahrb. Deutsch. Arch. Inst.* 1905, p. 103 ff.; Bulle, *ibid.* 1906, p. 52 ff. The description is given by Diodorus, XVIII 26-28.

(19) The references to the Tomb of Alexander are given by Calderini, *Dizionario Topografico Egitto Greco-Romano*, s.v. 'Αλεξάνδρεια, Σῶμα.

THE TEMPLE AND CULT
OF
APHRODITE AT PAPHOS

Of all the twelve Olympian gods and goddesses Aphrodite is probably the most sympathetic and most attractive, for she is the goddess of love and beauty and has been the source of inspiration to both poets and artists throughout the ages. Aphrodite, however, is not a native of Hellas, but, as we shall see, came most probably from Anatolia, where, however, she had other attributes.

According to legend, Aphrodite was born of the sea-foam off Paphos in the Greek Isle of Cyprus. Though this legend of the birth of Aphrodite is an exceedingly familiar one to us, there are not so many passages in the Classics which directly assert this fact. According to Tacitus (1), "the goddess herself was conceived of the sea and borne thither (Paphos)", and Lucian (2) and Pomponius Mela (3) mention the same thing. The name of Aphrodite, that is "foam-given", by which this goddess was known, when she came into Greek mythology, was certainly given to her in remembrance of this legend of her birth from the sea. In this connection, it is interesting to note that a feature of the shore in the neighbourhood of Paphos, is the extraordinary production of foam, due to a disintegration of animal and vegetable marine organisms, and there can be no doubt that this has a bearing on the myth of the birth of the Cyprian goddess from the sea (4).

The legends connected with Paphos are especially important, because of the world-wide fame of the Temple and cult of Aphro-

---

(1) Tacitus, *Hist.* II, 3 Fama recentior tradit, a Cinyra sacratum templum deamque ipsam conceptam mari huc adpulsam.

(2) Lucian, *Phars.* VIII, 456:
Tunc Cilicum liquere solum, Cyproque citatas
Immisere rates, nullas cui praetulit aras
Undae diva memor Paphiae, si numina nasci
Credimus, aut quemquam fas est coepisse deorum.

(3) Pomponius Mela, II, 7 speaking of Paphos «et (quo primum ex mari Venerem egressam accolae affirmant) Palaepaphos».

(4) Sir George Hill, *A History of Cyprus*, vol. I, p. 13.

dite, and also because of the connection which they illustrate between Arcadia in Greece and Cyprus, in harmony with the undoubted connection between the dialects of the two lands. Three or more strains are to be distinguished in the legends of the origin of the cult of the Paphian goddess; and here it is necessary to mention that there are two Paphos: Old Paphos and New Paphos. The former is situated about seven and a half miles from the latter at a place now called Kouklia. In one of these legends, the foundation of the Temple of the goddess at Old Paphos is assigned to Agapenor, king of Tegea in Arcadia (1), who on his return from Troy, after the famous Trojan War, was diverted by a storm to Cyprus. According to Pausanias (2) and Strabo (3), this Agapenor was also the founder of New Paphos, thus supporting the Arcadian connection with Cyprus. According to another line of legends, the cult of Aphrodite was earlier than Agapenor's day. The priest-kings of Paphos traced their origin to Cinyras (4), the beautiful and wealthy king of Paphos, who lived to a fabulous age and whose grave was in the temple of Aphrodite, where also his successors were buried. One tradition made him the son of Amathusa (5), thus connecting him with another Cyprian seat of worship of Aphrodite, namely, that at Amathus, five miles east of the modern Lemesos (Limassol). As the acropolis and city itself of Amathus have not yet been excavated, we know nothing of the temple of Aphrodite there, beyond mention of it in an inscription found by the excavators of the cemeteries of Amathus. Cinyras himself is dated during the time of the Trojan War, for it was he, who, as the Iliad (6) tells us, sent to the famous Agamemnon a notable cuirass. There is also a story that he played the bad joke of promising the Greek king a contingent of fifty ships and then sending only one, with models of the others and of their crews in clay. (7) In return for which Agamemnon conquered Cyprus and drove Cinyras out of his kingdom.

The legends which associate Cinyras with Apollo probably do not belong to the most primitive stratum. According to these, Ci-

(1) Pausanias, VIII, 5, 2, καὶ Πάφου τε Ἀγαπήνωρ ἐγένετο οἰκιστὴς καὶ τῆς Ἀφροδίτης κατεσκευάσατο ἐν Παλαιπάφῳ τὸ ἱερόν.

(2) Cf. preceding note.

(3) Strabo, *Geogr.* XIV. 6, εἶθ' ἡ Πάφος, κτίσμα Ἀγαπήνορος.

(4) Tacitus. *Hist.* II, 3, Fama recentior tradit, a Cinyra sacratum templum.

(5) Cf. Sir George Hill, *op.cit.* p. 68.

(6) *Iliad*, XI, 20.

(7) Apollodorus, *Epitome*, III, 5 Sqq. (Loeb edition, vol. II, pp. 178-179).

nyras was a celebrated lute-player, who was defeated by Apollo in a musical contest, the penalty for defeat being death (1). Other legends claim Cinyras as Apollo's son (2). These Apolline legends may have been inspired by the Greeks to fit Cinyras into their genealogy — they may, however, belong to the Phoenician layer.

The body of tradition which attributed a Phoenician origin to the cult of Aphrodite, though it goes back to Herodotus (3), is part of the general tradition which assigned to the Phoenicians much greater influence in the origin of Greek culture than our knowledge of Mediterranean archaeology permits us to accept. We must, in fact, rule out all claims on behalf of a specifically oriental, *i.e.* Babylonian, Syrian or Phoenician, origin for the cult of Aphrodite, although parallel developments and later influence from such quarters may be freely admitted. Indeed, all the features of this cult can be parallelled in Anatolia or in the Aegean. It should be noted, moreover, that the earliest anthropomorphic representations of the Mother-Goddess in Cyprus are clothed; the nude goddess with whom Babylonian representations have made us familiar, is a comparative late development. In the same way, for the sacred doves (4) of the Paphian goddess we need not seek a parallel or origin in Phoenicia; their association in the Aegean with the Mother-Goddess and with a building of the same type as the Temple at Paphos is proved by the gold bracteates of Mycenae. Even for religious prostitution, such as prevailed at Paphos, we need not seek a Babylonian or Syrian origin, since we have examples from Asia Minor and at Corinth, Eryx and in Etruria, and this custom may have been of native growth. As regards religious prostitution at Paphos, legend has it that the three daughters of Cinyras were driven by the vengeful wrath of Aphrodite to give themselves to strangers, and ended their lives in Egypt (5). It has been suggested that they, perhaps like the Propoetides of Amathus may have also denied the divinity of Aphrodite and have suffered the same fate by way of punishment by the goddess (6). However, this religious prostitution may originally have had nothing to do

(1) *Schol. Hom. Iliad*, XI, 20.

(2) *Schol. Pindar, Pyth.*, II, 15.

(3) Herodotus I, 199.

(4) Martial VIII, 28 mentions «Paphiae columbae», and Athenaeus IX, 51 also speaks of the doves of Aphrodite's temple at Eryx. There is a dove on Paphian coins of the 4th Century. The dove-cult in Cyprus goes back to the Copper Age, cf. Sir George Hill, *op. cit.* p. 58.

(5) Apollodorus, *Biblioth.* III, 14,3.

(6) Ovid, *Met.* X, 221, 238 sqq.

with religion, but may have arisen out of the primitive fear of the risk run by a man who first had intercourse with a virgin, instances of which in African tribes are given by Fraser in his *Golden Bough*. In any case, the form which seems to have been practised at Paphos was not a continual service as at Eryx and at Corinth, but that all women before marriage were obliged to sacrifice their virginity to a stranger.

At the annual festival of Aphrodite, pilgrims walked by road from New Paphos to Old Paphos, a distance of sixty stadia (1), about seven and a half miles, passing through the sacred garden of Aphrodite, a name still preserved in the village of Yeroskipou (ἱερὸς κῆπος) that is to say, "sacred garden". At the mystery performed at the Temple, the initiates received a lump of salt and a phallus, which they acknowledged by payment of a coin to the goddess (2). These symbols doubtless referred to the legend of the birth of Aphrodite from the sea.

The most curious feature of the cult of Aphrodite at Paphos was the aniconic representation of the godhead, *i.e.* the conical or meta-shaped object which stood for Aphrodite, which we see represented in the reproduction of the Temple on ancient coins and gems. The cone of Paphos, however, belongs to a class of primitive "symbols" which were widely distributed over Anatolia, and probably also over the Aegean and its western shores, and it is unnecessary to look for its origin in Phoenicia. Another of these symbols is the pillar which seems to have been more favoured in Crete, though there is no lack of evidence for sacred cones or omphaloi. In Greece, in historical times, such old symbols had been replaced or doubled, at least in important sanctuaries, by statues. At Delphi, however, the omphalos remained as a record of the primitive fashion. In Cyprus the use of such primitive

---

(1) Strabo, *Geogr.*, XIV, 6,3: διέχει δὲ (ἡ Πάφος) πεζῇ σταδίους ἑξήκοντα τῆς Παλαιπάφου· καὶ πανηγυρίζουσι διὰ τῆς ὁδοῦ ταύτης κατ' ἔτος ἐπὶ τὴν Παλαίπαφον ἄνδρες ὁμοῦ γυναιξὶν ἐκ τῶν ἄλλων πόλεων συνιόντες.

(2) Clement of Alexandria, *Protrepticus*, I, pp. 12-13 (ed. Potter)· ὡς ἀσελγῶν ὑμῖν μορίων ἄξιος 'Αφροδίτη γίνεται καρπὸς ἐν ταῖς τελεταῖς. ταύτης τῆς πελαγίας ἡδονῆς, τεκμήριον τῆς γονῆς, ἁλῶν χόνδρος καὶ φαλλὸς τοῖς μυουμένοις τὴν τέχνην τὴν μοιχικὴν ἐπιδίδοται, νόμισμα δὲ εἰσφέρουσιν αὐτῇ οἱ μυουμένοι, ὡς ἑταίρᾳ ἐρασταί.

Arnobius, *Adv. Gentes*, V, ... in quibus sumentes ea certas stipes inferunt ut meretrici, et referunt phallos propitii numinis signa donatos. Julius Firmicus Maternus, *De Errore Profanarum Religionum*, c. 10, Statuisse etiam ut quicumque initiari vellet, secreto Veneris sibi tradito, assem in manum mercedis nomine Deae daret ......Bene amator Cinyras meretriciis legibus servit, consecratae Veneri a sacerdotibus suis stipem dari jussit, ut scorto.

symbols was probably widely distributed, for, besides the chief cone of Paphos, smaller cones were found by the excavators in the surroundings of the Temple.

We now come to the Temple of Aphrodite itself, and at the outset it is necessary to state that at Paphos we depend almost entirely on literary evidence for the nature and history of the cult of Aphrodite, for the archaeolgoical evidence is provided by one object only, which may be of primitive date, *i.e.* the aniconic symbol to which reference will be made again, and by coins and gems of the historical period, since the actual shrine has not yet been found. The site cleared by the British School of Archaeology at Athens in 1887, and supposed by them to be that of a temple on a Phoenician plan, is somewhere in the temenos of the real temple, and there is nothing Phoenician about it. That the real Temple of Aphrodite at Paphos still remains to be found and excavated may, however, be just as well, since the old excavators certainly did not possess the modern technique of excavation, and when work is again resumed on the site, we may expect far more satisfactory results than could have been obtained in 1887. Excavation of the actual site of the temple must therefore be awaited, before a definite reconstruction of the Paphian shrine can be attempted. But so much as follows seems to be probable, on the evidence of coins and engraved gems.

The Temple lay-out consisted of a central shrine, containing the conical stone, with two wings, *i.e.* the tripartite liwan-type of building. Such a type of building consists of a middle room opening on a court, with a smaller room on each side of it — a type of building which is also found especially in Anatolia, and this type of building was also used by the Cyprians, both in sacred and secular building, from the Bronze Age down to Roman times. Such a type of building is also represented by the 5th Century palace at Vouni in Cyprus.

In each of the two wings there was a column, the object which surmounted them is uncertain, perhaps merely a capital, or a lamp or a dove. On the roof of each wing there is a bird, no doubt a sculptured dove. The central portion of the shrine had an upper story, perhaps with windows, and the antae were terminated with what appear to be horns of consecration. The cone itself (1) was

---

(1) Tacitus, *Hist.* II, 3, Simulacrum deae non effigié humana, continuus orbis latiore initio tenuem in ambitum metae modo exsurgens, set ratio in obscuro. Servius, *Ad Aen.* I, 724, Apud Cyprios Venus in modum umbilici — vel, ut quidam volunt, metae — colitur.

surmounted by a double flat cap. The large stone, now in the Museum at Leukosia (Nicosia), which was long *in situ* to the north west of the site, has been thought to be the orginal sacred cone. However, the only ancient author, who gives a description of the stone, Maximus of Tyre (1), says that it was a white pyramid of unidentified stone. The colour of the small cones that have been discovered is indeed white, and they are of limstone or marble, and this would suggest that Maximus of Tyre was right about the colour of the great cone. At the same time, however, it eliminates the cone preserved in the Museum at Leukosia, which is black. In front of the shrine was a paved courtyard with a lattice fence, to which a gate with two wings gave access. This courtyard was semicircular. The details of the objects in this courtyard are too obscure on the coins to allow of identification, but one would expect an altar.

With regard to the altars of the Temple, we have several references :- thus, in the Odyssey we read "But laughter-loving Aphrodite went to Cyprus, to Paphos, where is her precinct and fragrant altars" (2). Eustathius commenting on this passage, says that the Paphian altar was ὑπαίθριος. "in the open air" (3), and it is known that the altar of Aphrodite at Eryx was also in the open (4). According to Pliny (5) and Tacitus (6), rain never fell on the altar of Aphrodite at Paphos. Furthermore, according to Tacitus (7) no blood was shed on the altar which was reserved for the burning of incense (8). The name of the altar according to

---

(1) Maximus Tyrius, *Dissert. VIII*, τὸ δὲ ἄγαλμα οὐκ ἄν εἰκάσαις ἄλλῳ τῷ ἢ πυραμίδι λευκῇ, ἡ δὲ ὕλη ἀγνοεῖται.

(2) Homer, *Od.* VIII, 362: Ἡ δ' ἄρα Κύπρον ἵκανε φιλομμειδὴς Ἀφροδίτη.
Ἐς Πάφου ἔνθα δὲ οἱ τέμενος βωμός τε θυήεις.

(3) Eustathius, *Od.* VIII, 362.

(4) Cf. Tümpel, *R.E.* I, p. 677. Since the position of a Greak altar was invariably in front of the temple, the use of the term ὑπαίθριος for the altar of the Temple of Aphrodite on which incense alone was offered, rather suggests that incense-altars may normally have been inside the temple.

(5) Pliny, *N.H.* II, 210, Celebre fanum habet Veneris Paphos, in cuius quandam aram non impluit.

(6) Tacitus, *Hist.* III, nec ullis imbribus quamquam in aperto madescunt.

(7) Tacitus, *Hist.* III, Sanguinem arae obfundere vetitum: precibus et igne puro altaria adolentur.

(8) Virgil, *Aen.* I, 415:
.....ubi templum illi, centumque Sabaeo,
Ture calent arae, sertisque recentioribus halant.
Statius, *Theb.* V, 61, also mentions the "centum altaria" but this "centum" is probably poetical licence.

Hesychius was κιχητός, (1). Probably this restriction to bloodless sacrifices applied only to the chief altar of the goddess at Paphos, since we know from Tacitus (2) that animals, though only of the male sex, were offered in sacrifice. Kids, according to him, were especially valued for the purpose of divination. That small animals were slain in sacrifice, seems to find some support in a small altar-top, suitable for small victims, which was found by the British excavators in 1887. We know also that wild swine and probably tame pigs were sacrificed to Aphrodite (3). From the text of Johannes Lydes it appears that the priest, when sacrificing a pig, wore a fleece. As regards the subject of sacrifices, it should be noted that there was one which it was customary to offer to Aphrodite with the object of securing the fertility of the crops. This is recorded on an inscription found by the British excavators on the Temple site (4). The priest who presided over the sacrifices was called Ἡγήτωρ (5). Hesychius calls him Ἀγήτωρ and the sacrifice σάπιθος.

The immense importance of the cult of Aphrodite and the wealth of her Temple gave to the high-priest of the goddess at Paphos a position far beyond that involved in his merely religious functions; the priesthood became, in fact, a theocracy exerting its power over the whole island. When in 58 B.C. the Romans took away from Ptolemy, King of Cyprus, his kingdom, Cato offered him in exchange the highpriesthood of Paphos.

The king-priests of Paphos traced their origin to Cinyras whom we have already mentioned, but the service of the Temple was originally shared with priests of the family of the Tamiradae. These, however, were ultimately ousted from the Temple service by the priests of the family of the Cinyradae. It was agreed formally that the Cinyradae and the Tamiradae should preside over the Temple worship at Paphos, but, in the course of time, it was thought wrong that the *regium genus* should have no superior dignity to the foreign race, and the latter accordingly withdrew, or possibly was ousted from the practice of the art of divination which they themselves had introduced, and thereafter only the Cinyrad priests held office, such, at least, is the account given by

---

(1) Hesychius, κιχητός· εἰς ὃ ἐμβάλλεται λιβανωτός.

(2) Tacitus, *Hist.* III, Hostiae, ut quisque vovet, sed mares deliguntur: certissima fides haedorum fibris.

(3) Antiphanes and Callimachus, in *Athenaeus*, III, 95f, 96a.

(4) This inscription is in honour of Nicocles (died 360 B.C.), cf *J.H.S.*, IX, p. 165.

(5) Cf. Inscription 105 in *J.H.S.*, IX, p. 250.

Tacitus (1). From the same author we learn that the art of divination from the entrails of kids which was practised by the Cinyradae, had been originally brought to Paphos by the Cilician Tamiras (2). Hesychius is the only other author who mentions the Tamiradae whom he terms certain priests in Cyprus: Ταμιραδαί· ερεῖς τινὲς ἐν Κύπρῳ· Of the Cinyradae he says that they were priests of Aphrodite: Κινυραδαί· ἱερεῖς 'Αφροδίτης.

In 15 B.C. a severe earthquake laid Paphos in ruins. Augustus, however, came to the rescue with a gift of money and decreed that the city should bear the name of Augusta (3). It is true that there is no proof that Old Paphos, and therefore the Temple of Aphrodite, is meant in the statement of this earthquake made by Dio Cassius and Seneca, — a simple reference to Paphos usually means New Paphos — but, on the other hand, the Roman work of restoration brought to light by the excavators, and to which we shall have occasion to refer again later, is a proof that considerable rebuilding of the Temple was necessitated at this period.

When Titus visited the shrine, on his way to Syria in 69 A.D., he enquired of the goddess first concerning his voyage by sea, and then in ambiguous phrases, *per ambages,* about his own destinies — sacrificing at the same time a large number of victims. This is according to Tacitus (4). Suetonius also mentions this incident and says that Titus consulted the oracle of Aphrodite at Paphos (5), but by the term "oraculum" we must understand "extispicium" *i.e.* the divination as practised by the Cinyradae, and not a real oracle.

What seems to be a last reference to the priesthood of the Temple of Aphrodite at Paphos, occurs in the *Acta Barnabae,* a 4th or 5th Century Cypriot work recording the deeds of the Apostle

---

(1) Tacitus, *Hist.* II, 3, atque ita pactum, ut familiae utriusque posteri caerimoniis praesiderent. Mox, ne honore nullo regium genus peregrinam stirpem antecelleret, ipsa quam intulerant scientia hospites cessere: tantum Cinyrades sacerdos consulitur.

(2) Tacitus, *Hist.* II, 3, set scientiam artemque haruspicium accitam et Cilicem Tamiram intulisse.

(3) Dio Cassius, LIV, 23, Παφίοις σεισμῷ πονήσασι καὶ χρήματα ἐχαρίσατο καὶ πόλιν Αὔγουσταν καλεῖν κατὰ δόγμα ἐπέτεψε. Seneca, *Nat. Qu.* VI, 26, Sic Paphos non semel corruit.

(4) Tacitus, *Hist.* II, 4, de navigatione primum consulit: postquam .....de se per ambages interrogat caesis compluribus hostiis.

(5) Suetonius, *Tit.* 5, aditoque Paphiae Veneris oraculo, dum de navigatione consulit, etiam de imperii spe confirmatus est.

Barnabas. According to this, the Apostle Barnabas in his travels through the island of Cyprus, came to Old Paphos, where "we found Rhodôn, a minister (ἱερόδουλος) who, having believed, also followed us" (1).

Although the aniconic symbol to which we have already referred was the main representation of the goddess Aphrodite at Paphos, statues and statuettes of her and possibly of Eros, also existed, since fragments of these were found by the British excavators. Such statuettes, it seems, were sold to worshippers at the Paphian shrine, and in connection with this there is a charming little story told by Polycharmus of Naucratis, the Greek settlement established in Egypt in the reign of Amasis, about a fellow townsman of his, Herostratus. This latter, a much travelled merchant, visited Paphos and bought a statuette of Aphrodite, a span high, and of an archaic style of art. He was carrying it home, when his ship was caught in a storm. In their distress the passengers addressed their prayers to the image of the goddess. Immediately, the ship was filled with green myrtle boughs and a sweet savour. When it came safely to land, Herostratus lost no time in offering sacrifice to Aphrodite and in dedicating the figure in her temple (2). The details are particularly interesting, as parallels can also be found in Christian miracles. The date of this incident was roughly 688 to 685 B.C.

A gymnasium was attached to the Temple, as we learn from an inscription found there recording the names of subscribers to the Ἐλαιοχρίστιον, the place where the athletes oiled themselves (3). The Temple of Aphrodite at Paphos, as well as that at Amathus possessed the right of asylum, which was established by the Roman Senate in 22 A.D. (4).

At some time between 21 and 12 B.C., possibly in 15 B.C., a calendar was introduced in which the names of the months referred to Rome, and more particularly to the Julian family. Aphrodite opens the year, not merely as the Paphian goddess, but as ancestress of the Julian family. This month which correspond-

---

(1) Tischendorf, *Act. Apost.*, p. 70, κατηντήσαμεν ἐν παλαιᾷ Πάφῳ, κἀκει ηὕραμεν Ῥόδωνα ἱερόδουλον ὃς καὶ αὐτὸς πιστεύσας συνηκολούθησεν ἡμῖν.

(2) *Athenaeus*, XV, 10, p. 675f : προσσχὼν ποτε καὶ Πάφῳ τῆς Κύπρου, ἀγαλμάτιον Ἀφροδίτης σπιθαμιαῖον ἀρχαῖον τῇ τέχνῃ ὠνησάμενος.

(3) Cf. *J.H.S.*, IX, p. 188 and 231 and Sir George Hill, *op.cit.* vol. I, p. 62, note 3.

(4) Tacitus, *Ann.* III, 62-63.

ed to May, was called Aphrodisios. However, by the year 2 B.C. this calendar had to be revised on account of Julia disgracing her name, Tiberius being sent into exile, and other members of the Julian family being dead. The new months more definitely referred to Augustus himself. The month Aphrodisios still opens the year, but the opening date is changed to September the 23rd, the birthday of Augustus.

As regards the epithets of Aphrodite, *Aëria* and *Urania*, these may possibly be connected with the fact that her altar was in the open air (1), on the other hand, in Cyprian inscriptions Aphrodite is always called *Anassa, i.e.* the lady or goddess, but in late inscriptions she bears simply the title "Paphia".

Two late authorities, namely the Pseudo-Clements Romanos (2) and the author of the Vita of St. Spyridon (3) state that the tomb of Aphrodite was shewn at Paphos.

In the 4th Century a disastrous series of earthquakes knocked Paphos about very badly, and this together with the Edict of the Emperor Theodosius in 382 A.D. issued against the Pagans, gave the death blow to the Temple of Aphrodite.

We now come to a study of the results of the excavations made on the site of the Temple of Aphrodite by the British School of Archaeology at Athens in 1887 (4). As has been already stated the actual shrine was not found, and it is hoped that it may be brought to light, when excavations are resumed on the site.

The parts of the Temple of Aphrodite at Old Paphos actually excavated may be divided into two sections. The First Section consists of a great quadrilateral enclosure whose sides are about 210 ft. long. This enclosure is flanked on the north by a wide stoa (5) extending along its whole width, and probably originally by a similar stoa extending along the south front. It seems that originally there was a range of buildings extending along the whole of the eastern side. Whether there was ever a wall extending along the western side of the enclosure, it is impossible to say, at present, since no traces of it were found *in situ* except at the west

---

(1) Tacitus, *Hist* II, 3, Conditorem templi regem Aëriam vetus memoria, quidam ipsius deae nomen id perhibent. Pausanias I, 14,7: Πλησίον δὲ ἱερόν ἐστιν Ἀφροδίτης Οὐρανίας.

(2) Pseudo-Clemens Romanus, *Hom.* V, 23, Ἀφροδίτης ἐν Κύπρῳ (θεωρεῖται τάφος).

(3) Vita S. Spyridonis (ed. Delehaye) in *Anal. Boll.* XXVI, p. 230, ἔνθα λέγει τὴν Ἀφροδίτην ἐν Πάφῳ τῆς Κύπρου ταφῆναι.

(4) A full report of the excavations is given in the *J.H.S.*, Vol. IX.

(5) Stoa in the Plan is termed Portico.

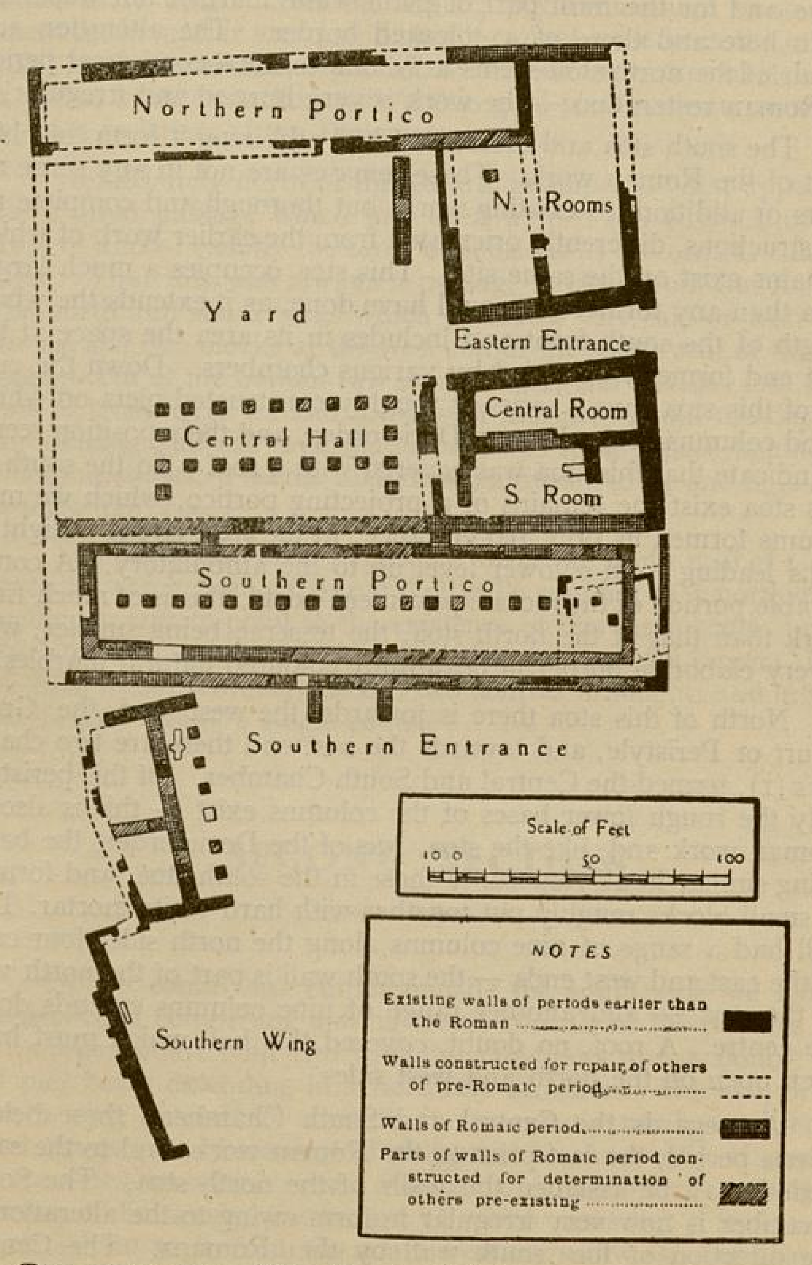
end of the north and south stoas, but it seems probable that such a wall existed. The Second Section is situated south of the south stoa on the west side. It consists of the remains of a large open court with two irregular chambers and a double row of pier bases extending in a northerly direction.



View of the Temple of Aphrodite at Old Paphos

FIRST SECTION

In the great quadrangle the north wall of the north stoa from its junction with the west wall is tolerably perfect for a distance of over 40 ft., but is only one course high; it is similar, however, to the other early walls of the quadrangle. On this wall are a few very much broken blocks of an upper course still standing. Where this wall recommences, its character is very uncertain; its direction, however, points to its being an early wall. The eastern portion is undoubtedly Roman and extends nearly 60 ft. in an unbroken line. The south wall of this stoa is very fragmentary, and the west wall is very imperfect, though traceable throughout its length, but it is much narrower than the north or south walls. This stoa was paved with a coarse Roman mosaic formed of large tes-



Plan of the parts of the Temple of Aphrodite excavated 1887

serae and for the most part of plain white marble, but traces remain here and there of a coloured border. The alteration and repair of the north stoa seems to belong to the second great period of Roman restoration — the work is very hurried and irregular.

The south stoa and the central hall adjoining it form the chief part of the Roman work. These remains are not in any sense repairs or additions to existing work, but thorough and complete reconstructions, differently orientated from the earlier work of which remains exist on the same site. This stoa occupies a much larger area than any former one could have done, as it extends the whole length of the south front and includes in its area the space at the east end formerly occupied by various chambers. Down the centre of this stoa runs a series of roughly constructed piers on which stood columns of the Roman Doric order, and their position seems to indicate that this stoa was covered with a roof. To the south of this stoa exist the remains of a projecting portico, which we may assume formed its principal entrance; at the west end is a flight of steps leading from a lower level up to the ambulatory. A considerable portion of the mosaic pavement exists; this is of much finer work than that of the north stoa, the tesserae being smaller, with a very elaborate border in beautifully coloured natural marbles.

North of this stoa there is towards the west end the Great Court or Peristyle, and towards the east end there are two chambers (1), termed the Central and South Chamber. Of this peristyle only the rough lower bases of the columns exist — this is also of Roman work and, like the stoa, was of the Doric order, the bases being similar in all respects to those in the south stoa, and formed of small blocks roughly put together with hard white mortar. This hall had a range of nine columns along the north side, four each at the east and west ends — the south wall is part of the north wall of the stoa — and another range of nine columns extends down the centre. A roof, no doubt, covered this hall which must have been open on the north and west sides.

As regards the Central and South Chambers, these belong to one period, the last prior to the Roman work, and to the same period may be assigned the walls of the north stoa. The South Chamber is now very irregular in form owing to the alteration of the direction of the south wall by the Romans. The Central Chamber is the most perfect of all, the north and south walls being throughout of the same period and style of construction as the

(1) Chamber in the Plan is termed Room.

other early walls. Over the western portion a rough stone pavement set in mortar was found, but it cannot have been the original one, for underneath it were discovered certain earlier objects, *e.g.* a pin of bronze overlaid with a thin gold plate with an inscription written in letters of the Ptolemaic age.

Immediately north of this central chamber is what appears to be a great passage which has been termed the Great Entrance. It is of almost exactly the same dimensions as the central chamber itself. That this was always a passage is clear from the finish of the north and south walls which precludes any east or west wall. In the last two blocks at the west end of the south wall of this passage, occur at the bottom two small rectangular cavities into which bits of stone were let and fixed with mortar. From the depth of the sinking and the fact that there was some space behind the filling-in stones, it seems that these cavities had at one time some definite purpose.

The north wall of this entrance forms the south wall of a construction which from three parallel walls running in a northern direction, seems to point to the existence of two large rooms termed the North Chambers, of which the eastern one is the larger. None of these walls, however, exceed two courses in height, and in some places are of only a single course.

SECOND SECTION

In the south-west corner outside the south stoa we have a construction comprising a wing which consists of the remains of a large open court with two irregular chambers and a double row of pier bases extending in a northerly direction. The wall of this south wing extends for some 85 ft. in a nearly northerly direction and consists of a basement of polygonal blocks mostly of massive proportions on which rests a series of magnificent rectangular blocks of limestone, the largest of which measures 7 ft. by over 15 ft. About 50 ft. from the south-west corner two socket-holes for door-posts are cut in the basement stones, and two steps lead down from them : this is the only remains or distinct evidence of the position of a doorway on the whole site. These walls appear to have belonged to a large rectangular enclosure and to be the

earliest walls on the site, belonging to the first period of early work. There are no remains of any east wall to this enclosure. In the northern part of the south wing there is, between two rows of bases, a sinking cut in the rock 11 ft. 6 in. long, some 4 ft. 6 in. wide and about 2 ft. deep, in the bottom of which is a circular sinking 9 1/2 in. deep, and in the sides there are two grooves. Its exact purpose seems uncertain, but it may have formed part of a bath used for ceremonial purification.

It has been suggested that the Great Entrance on the east side of the Great Quadrangle, leading as it does directly into the Inner Court, was used for great processions or important occasions. It is, however, probable that the general body of worshippers would approach the Temple from the south — or sea-side, where the road of communication between the port of New Paphos and the districts along the sea coast runs. They would then enter by the portico already mentioned into the South Stoa from which a flight of steps probably led up to the Central Hall, and from this point there would be access to the Inner Court and various chambers.

Such then is a description of the excavations made at the Temple of Aphrodite, as they exist to-day. As they stand, it is practically impossible to identify from them any of the structures portrayed on contemporary coins and engraved gems, but as we have already stated, the shrine itself has not yet been found, and it is this shrine with its famous aniconic symbol of the goddess that appears on the coins and gems.

Though the Temple of the goddess Aphrodite has long vanished, her memory still lingers on among the population of Cyprus, and one can, even now, occasionally hear the expression *Panagia Aphroditissa* as an epithet now applied to the Panagia Theotokos.

O.H.E. Khs. Burmester.

1) DE QUELQUES PIÈCES NOIRES

Si *classique*, dans les écoles, a un sens favorable (mais qui décourage les enfants de lire nos grandes oeuvres), *moderne*, qui est employé dans la presse avec un sens parfois péjoratif, encourage les adultes à fréquenter certains de nos auteurs. Pourtant, le classicisme n'est pas une chose morte, c'est une littérature bien vivante, et sous tous les climats, et qu'il s'agit seulement de savoir découvrir et réveiller : la belle au bois dormant. Parmi les écrivains français d'aujourd'hui, il est en effet un certain nombre d'artistes que les petits enfants de l'an 2400 (s'il en est encore à cette époque) appeleront des écrivains *classiques.*

La critique de droite et de gauche continue, néanmoins, à accabler les lettres françaises contemporaines, et notamment ce qu'on appelle *misérabilisme,* romans noirs, ou pièces noires. Mais il est une façon de défendre les bonnes moeurs qui dégoûte de la morale. La critique peut toujours s'offrir un succès facile en présentant une oeuvre, si haute qu'en soit l'inspiration, de façon à prévenir l'esprit du bon public. C'est ainsi qu'en Alexandrie on a vu récemment quelqu'un s'en prendre au *Malentendu* de Camus, et, sous prétexte qu'il s'agit là d'une pièce ou une mère et sa fille assassinent (sans le savoir, d'ailleurs) un homme qui se trouvait être le fils de l'une et le frère de l'autre, accuser Albert Camus de se «délecter dans la pourriture», de faire un dangereux «étalage de criminalité». Je cite textuellement. Tandis que les drames de Corneille, ceux de Racine, élevaient le coeur, nous voyons chez Camus «punie et non récompensée» la vertu d'un fils qui vient aider sa famille. Je voudrais savoir quelle œuvre des «classiques» résisterait à une présentation faite selon les principes de ceux qui interprètent *Le Malentendu* avec ce peu de bonne foi. Tout le monde connaît ces deux vers de la *Négresse Blonde :*

> *Dieu! soupire à part soi la plaintive Chimère,*
> *Qu'il est joli garçon, l'assassin de papa!*

Voilà donc à quoi se ramènerait *le Cid?* Ainsi présentée, l'anecdote en effet n'est pas des plus morales ! «Qu'il est joli gar-

çon, l'assassin de papa», c'est bien le dernier mot de la pièce mais en d'autres termes, qui font la différence, car le grand théâtre, comme dit Louis Jouvet, c'est d'abord *un beau langage*. «Laisse faire le temps, ta valeur et ton roi». Nous savons que Chimène épousera bientôt l'assassin de son cher papa.

Et voici comment le même Fourest résume une autre pièce, du même Corneille :

Et puis, voici Camille
(Seigneur, quelle famille)
Qui se met en fureur
Y a pas d'erreur.

Elle commence à braire,
Asticote son frère,
Et le frère en douceur
Occit la sœur.

Elle commence à braire, dit Fourest. Ses braiements, nous les connaissons par cœur. Ce sont les imprécations de Camille :

Rome, l'unique objet de mon ressentiment,
Rome, à qui vient ton bras d'immoler mon amant,
Rome, qui t'a vu naître et que ton cœur adore,
Rome, enfin, que je hais parce qu'elle t'honore.
Puissent tous ses voisins ensemble conjurés,
Saper ses fondements encore mal assurés.

Imprécations qui s'achèvent lorsque le jeune Horace dégaîne et tue sa sœur :

C'est trop, ma patience à la raison fait place,
Va dedans les enfers plaindre ton Curiace.

Comme dit Fourest : «elle commence à braire et le frère en douceur occit la sœur».

Je ne pousserai pas plus loin ce petit jeu qu'il fallait pourtant mener jusqu'ici pour montrer à quel point il est injuste d'accuser un écrivain tel que Camus de se complaire à la saleté sous prétexte qu'il met en scène des meurtriers.

Qu'ont fait d'autre Shakespeare et Sophocle et Corneille ? Ah, bien sûr, quand on ignore tout de la littérature, qu'on en reste aux clichés appris, on peut conserver quelques illusions sur le moralisme bébête des grands écrivains, qu'on oppose alors à l'immora-

lisme des écrivains contemporains. Mais voici quelqu'un qu'aucun bien-pensant ne suspecte (à tort d'ailleurs) de complaisance pour la littérature que l'on appelle selon les cas, ou *noire* ou *décadente*. Dans le *Père Goriot*, écrit François Mauriac (je cite la préface qu'il écrivit pour le livre de son fils Claude, *Aimer Balzac*), dans *Le Père Goriot*, le lecteur néophyte baigne dans un immoralisme à côté duquel celui qu'on reproche aux écrivains d'aujourd'hui relève de la Bibliothèque Rose. Ce n'est pas moi qui le dis, c'est M. François Mauriac, écrivain catholique, éditorialiste du *Figaro*, membre de l'Académie Française. Il serait évidemment absurde, pour défendre Camus, qu'on accuse injustement, de noircir à leur tour les écrivains français du XVIIe siècle. L'on pourrait même trouver des pièces, dont le sens général est moral, voire moralisant, et qui furent écrites par des écrivains que l'on nomme *classiques*. Ainsi *Bérénice*, où le devoir du politique l'emporte sur la passion de l'amour (mais on pourrait dire aussi bien que Titus était plus ambitieux encore q'amoureux).

Quand on parle aujourd'hui des écrivains classiques pour les opposer aux écrivains contemporains, on oublie trop souvent que les classiques n'ont pas écrit les seuls morceaux choisis à l'usage des lycéens; ils ont écrit des pièces en cinq actes. Si nos critiques moralisants font la petite bouche devant le Créon d'Anouilh ou la Martha de Camus, qu'auraient-ils dit de Marcelle, l'ignoble et puissant personage de *Théodore*, celle qui mène tout le jeu? Ambitieuse, menteuse, perfide et meurtrière, elle tue de sa main Théodore et Didyme, acculant ainsi au suicide son propre fils. Nombreuses sont les pièces de Corneille, à juste titre honoré en qualité de moraliste, qui seraient aujourd'hui, si seulement on les lisait, condamnées comme décadentes ou « existentialistes ». Témoin : *Rodogune*.

Voici comment, dans *Rodogune*, parle Cléopâtre, celle qui a déjà tué son mari, l'un de ses fils, et qui se prépare à empoisonner l'autre, Antiochus :

> *Allons chercher le temps d'immoler mes victimes,*
> *Et de me rendre heureuse à force de grands crimes.*

C'est le même personnage qui, quelques vers plus haut, a dit sans héster :

> *Sors de mon cœur, nature!*

Pour parler le langage d'aujourd'hui, c'est le même personnage qui s'incite et s'excite à devenir une mère dénaturée. *Déna-*

turée, en effet et pourtant si *naturelle,* elle le sera jusqu'au bout, puisque, moribonde, elle trouve encore la force de maudire le fils qu'elle n'a pu assassiner :

> *Puisse le ciel tous deux vous prendre pour victime*

s'écrie-t-elle,

> *Et laisser choir sur vous les peines de mes crimes.*
> *Puissiez-vous ne trouver dedans votre union*
> *Qu'horreurs, que jalousies et que confusions*
> *Et, pour vous souhaiter tous les malheurs ensemble,*
> *Puisse naître de vous un fils qui me ressemble!*

Voilà comment Corneille ose faire parler une mère. J'entends bien qu'il est dans *Rodogune* des personnages vertueux. Il arrive même que par un étrange hasard, par un malentendu, dirai-je, le personnage vertueux, Antiochus, survit à la mère dénaturée. Mais dans *Le Malentendu* n'y a-t-il pas des personnages vertueux? Le fils, par exemple et la femme de ce fils, celle qui aime si simplement, si purement. Nos petites zoiles ne veulent pas voir l'évidence. Il leur faut toujours opposer la sagesse des anciens à la corruption des modernes. Seulement, ceux qu'aujourd'hui nous appelons *les anciens* étaient en leur temps ceux qu'aujourd'hui nous appelerions des modernes. A ce titre, on les opposait toujours, eux aussi, aux vertueux anciens, à Eschyle, à Sophocle, voire à Sénèque le Tragique.

Dans l'examen d'Attila, Corneille avoue qu'il n'a fait cette pièce que pour répondre «par occasion aux invectives qu'on a publiées depuis peu contre la comédie» (c'est-à-dire contre ce que nous appelons, nous autres, la tragédie). Plus précisément : irrité des mauvaises querelles qu'on cherchait alors à la grandeur qu'il sentait être la sienne, Corneille, dans le même examen, affirme avec sérénité qu'«on peut innocemment mettre sur la scène des filles engrossées par leurs amants et des marchands d'esclaves à prostituer».

Il se peut que de tels morceaux doivent disparaître des Corneille destinés aux héritiers de la bonne bourgeoisie. Mais enfin, nous savons, nous, que ces textes existent. Et peut-être même savons-nous que le théâtre classique est souvent *à devenir fou.* Voyez Oreste :

> *Mais quelle épaisse nuit tout à coup m'environne?*
> *De quel côté sortir? D'où vient que je frissonne?*

Quelle horreur me saisit? Grâce au ciel j'entrevoi!
Dieux! quels ruisseaux de sang coulent autour de moi!

Je pourrais aussi bien me réclamer de Corneille. Dans une de ses comédies, dans *Mélite*, Eraste devient fou. Non, les grands écrivains classiques ne ressemblent jamais à Delly, ou à Max du Veuzit.

Ce sont des écrivains qui dans l'homme acceptent tout l'homme, et dans l'espèce humaine, tous les hommes. Comme nous, ils sont engagés dans un monde qui les blesse; comme nous ils sont engagés dans un monde où il faut prendre parti; comme nous, ils sont censurés. Lorsqu'au début pacifique du règne de Louis XIV Corneille écrit contre l'esprit de conquête (c'est la France qui parle) :

A vaincre tant de fois mes forces s'affaiblissent.
L'état est florissant mais les peuples gémissent.
Leurs membres décharnés courbent sous mes hauts faits
Et la gloire du trône accable les sujets.

on n'y trouve pas à redire. Voltaire pourtant remarquait qu'à la fin belliqueuse du règne de Louis XIV, quand cette pièce (*La Toison d'Or*) n'était plus jouée, les mêmes vers, à peine transposés dans le *Tiridate* de Campistron, furent interdits par la police. Non, les écrivains classiques ne sont pas de tout repos. Ce ne sont pas des écrivains soporifiques, ce ne sont pas des écrivains anesthésiants. Encore faut-il les lire. Ce qu'on se garde bien de faire, pour mieux condamner ceux qui, aujourd'hui, sont déjà les futurs *classiques*.

*
* *

2) PHOTOGRAPHIE ET CLASSICISME

En considérant les photographies d'André Gide, qui annoncent (et peut-être résument) chacun des tomes de ses *Oeuvres Complètes*, comme si tout à coup l'évidence effaçait en moi les préjugés, je crois que j'ai compris Molière (et Corneille) un peu moins mal.

Les écrivains du XVIe et du XVIIe siècles sont souvent pour

nous sans visage ; s'ils nous en lèguent un, il se peut que ce soit un «portrait de Dorian Gray», à la surface duquel le peintre a voulu étaler la secrète alliance de son modèle avec l'humain : sournois, têtu, bêta, proche de nous tous enfin, tel nous apparaît alors celui qui, le plus honnêtement du monde, nous entretient de ses urines, l'homme du *que sais-je?,* Montaigne l'intelligent. Si maintenant j'interroge Racine et sa perruque, c'est vainement que sur ce front serein, ces lignes harmonieuses, je cherche les perfidies qu'il faut concéder à ce poète suave.

Comme le portraitiste, pour accomplir une œuvre qui signifie, est contraint de condenser et concentrer (de figer aussi) en une image unique les instants divers de son modèle, n'obtenant ainsi — d'ordinaire — qu'une synthèse du banal, ou l'agrandissement d'un vice, d'une vertu, de même l'écrivain du XVIIème, lorsqu'il construit «un caractère», ne prétend qu'à isoler, puis fixer, *un trait permanent du caractère* humain. Il ignorait le cinéma et que, pour révéler l'unité d'un vivant, ou ce qu'il a d'unique, cent images valent mieux qu'une.

Nous avons tous fouillé les albums de famille : bébé nu aux orteils crispés sur sa peau de mouton, écolier en sarrau noir, tout regard tendu vers le petit zoizeau, communiant plus bichonné que chien de luxe, hirsute foutebôleur faraud de ses genouillères, troufion soutaché, bariolé d'épaulettes, criminel aux yeux de Michel Strogoff, brûlés par l'éclairage de quelque Photomaton, comment récompenser mon père, ou moi ? Et ce sylphe, pourtant, non : ce notaire, ce voyou, ce sportif, ce bellâtre, ce dadais, cet assassin, cet archevêque, c'est bien moi.

Nous savons aujourd'hui que nous avons plus d'un visage : qui n'a pas trois hommes en soi est un peu moins qu'une bête. Cet adolescent glabre, aux longs cheveux de romantique, comment oserait-il condamner tout romantisme ? André Walter l'a pourtant fait. Quoi ? que dites-vous ? ce Christ espagnol à collier noir, lui Corydon ? Oui, car *Numquid et tu* avait besoin de ce corp-là. Sinon celui du crayon de Bataille, si rêveusement ironique, quel Gide aurait écrit *Paludes,* ou *Prométhée?* Mais sans la netteté de ces dures mâchoires, que découpe encore l'ombre portée d'un casque colonial, nous n'aurions pas de Voyage au Congo. Jeune homme à la balustrade, puis savant lettré savamment adossé à sa bibliothèque, hier engoncé dans sa jaquette, son gilet, sa lavallière, ses faux-cols empesés, aujourd'hui chemise ouverte dans le vent, point d'yeux ici, tout yeux ailleurs, affecté, naturel, naturel jusqu'en l'affecté, affecté parfois dans l'excès de son naturel — et ces mains

que j'oubliais, plus secrètes (s'il se peut) que chacun des visages nus — tous ces traits, d'autres encore, s'enchevêtrent et s'épurent pour ormer un André Gide. Je ne dis pas : André Gide.

Lui aura-t-on reproché ses visages? Il défait l'homme, paraît-il, le délite, le décompose, le pourrit. Lui a-t-on opposé l'Avare, le Misanthrope, le Menteur? *Le Menteur* peut vous amuser; mais un vrai menteur dit souvent la vérité : presque toujours. Autrement, c'est un mythomane. L'unité de l'homme, certes je sais la voir, irrémédiable et parfaite : dans les asiles d'aliénés. On ne m'avait jamais dit que nos écrivains du «grand» siècle ont peint surtuot des névrosés. Obsédés par leur vice, leur passion, leur vertu, l'Avare, Phèdre et Polyeucte appartiennent au psychiatre. C'est à qui fera le délire le plus systématique. Ah, s'ils étaient de tout repos, qu'ils nous ennuieraient tous nos grands écrivains ! Mais ce sont montreurs de monstres, dompteurs de forsenés.

Il serait donc temps de comprendre que Marcel Proust et André Gide, quoi qu'ils laissent entendre, et malgré qu'ils en aient, sont plus *équilibrés* que Racine, ou Molière (lesquels toutefois restent *équilibrants* dans la mesure où nous voyons à quels malheurs sont pré-destinés leurs beaux monstres). Celui qui reconnaît l'ambivalence irrépressible des instincts et qui, récitant l'homme, v énumère plusieurs homme (homme singulier, dit-on; homme-pluriel conviendrait mieux), celui-là est plus près de la médecine, de la photographie, qu'Henri Bordeaux ou Paul Bourget. Or la morale se déduit de la médecine et de la photographie, ou du moins : des photographies. Oui, j'ai bien peur qu'avec son air d'immoraliste, et jusqu'en son acte gratuit, André Gide ne soit aujourd'hui un des rares hommes qui pensent *bien :* un authentique mal-pensant. (Toute morale future voudra légiférer pour tous ceux que nous recélons : elle sera gidienne en quelque sorte).

«*Le romantisme*, écrit Stendhal, est l'art de présenter aux peuples des œuvres littéraires qui, dans l'état actuel de leurs habitudes et de leurs croyances, sont susceptibles de leur donner le plus de plaisir possible; le *classicisme*, au contraire, leur présente la littérature qui donnait le plus grand plaisir possible à leurs arrière-grands-pères». Il faut donc avouer que Gide est *romanticiste*. Mais à condition de lui donner, pour compagnons d'étiquette, Montaigne, Descartes et Molière. Aussi bien dirait-on *classique* celui qui vit avec son temps et, ce faisant, prépare l'avenir, *académique* étant celui là seul que Stendhal disait *classiciste*.

Querelle d'historiens, sans valeur pour nos lettres. Stendhal

combattait les classicistes; mais ses œuvres condamnaient les romantiques. Il est classique, au seul sens qui vaille du mot langagier. Quelque idée qu'il se fasse de l'homme (ou un multiple) ondoyant ou sclérosé, classique est celui qui accepte la rhétorique, la litote, et le cliché.

Christ espagnol, enfant prodigue et dieu Protée, Gide est classique.

ETIEMBLE

DEUX ENTRETIENS SUR L'EXISTENTIALISME

Ces deux causeries ont été faites sur l'initiative du Prof. Dr. Afifi. *Leur seul but était de présenter un aperçu de l'existentialisme* en général *et des critiques qui lui ont été adressées. En voici le sommaire.*

Jean Grenier.

I.

LES THÈMES DE L'EXISTENTIALISME

1° *L'existence précède l'essence*, dans la réalité humaine qui est la seule que je connaisse du dedans. Dans le monde des choses l'essence précède l'existence : le menuisier imagine la table avant de la fabriquer, le géomètre conçoit la circonférnce avant de la tracer. L'essence alors peut rester une simple aptitude à l'existence et être étudiée rationnellement. C'est elle qui intéressait les philosophes exclusivement, le passage de l'essence à l'existence étant considéré comme un accident et une dégradation.

Or l'existence est connue intérieurement et immédiatement, avant toute définition, et elle déborderait en tous cas une définition.

Des philosophes rationalistes, comme Socrate quand il était dans sa prison et Descartes quand il était dans son poêle, ont pourtant bien eu le sentiment d'abord de l'existence personnelle dans ce qu'elle a de singulier, mais ils l'ont ensuite rattachée à des essences.

Ils ont constitué une ontologie ou explication de l'être; les

existentialistes emploient une phénoménologie ou description de l'existence.

2° *Exister, c'est être un sujet.*

Il n'y a pas d'existence sans intériorité, — ni individualité. Ce qui est extérieur appartient à l'objet qui est en deçà de l'existence;

Ce qui est universel appartient au transcendant, qui est au-delà de l'existence.

L'objet peut être connu, mais sa connaissance ne nous apprend rien sur l'*Etre;* il nous renseigne seulement sur l'*Avoir*. Avoir, c'est être ce qu'on n'est pas réellement (le monde des corps).

Une explication objective est à la fois inexacte et inutile.

Le transcendant est ce vers quoi est tendue l'existence.

L'existence a nécessairement pour but le transcendant, mais elle ne dure qu'à condition de n'être pas absorbée par lui.

Ce transcendant qui est un *projet*, est: la présence à soi, la présence à autrui, la présence au Sujet infini.

3° *Mon existence se révèle par l'angoisse.*

Alors que pour les philosophes rationalistes l'existence est d'abord un fait de connaissance, et se borne à la connaissance de soi en tant qu'être pensant.

Ici l'existence apparaît comme un mystère à percer plutôt que comme un problème à résoudre; le philosophe est acteur plus que spectateur.

L'angoisse est le vertige causé par le sentiment de *liberté* (qui a pris la place du cogito), c'est un «désir dirigé vers ce qu'on craint, une antipathie sympathique».

Elle est aussi la figuration de l'avenir et donne naissance à l'idée de *temps*, dont l'avenir est la forme primordiale.

Enfin elle révèle le néant à la conscience et lui découvre le caractère tragique de l'existence. L'angoisse découvre à l'homme son *«délaissement»*; il se voit seul en face de la mort à laquelle il est destiné, et, prenant conscience de son abandon, tombe dans le *désespoir*.

4° *L'existence des autres se révèle par le sentiment de transcendance* mais non par une connaissance objective: négation nécessaire et de double intériorité.

La phénoménologie existentialiste étudie les rapports du *Je* et du *Tu*.

Le *Il*, le *Cela* font partie des objets.

Elle montre les moyens de communication entre existants par la honte, la sympathie, le ressentiment, le mensonge, le regard, etc., sentiments qui ne s'expriment pas rationnellement.

L'existence dispersée devient banale (le «On»), concentrée devient singulière (le «Je»).

Il faut se choisir plus encore que se connaître. C'est pourquoi la liberté joue un rôle capital.

5° *L'existence trouve sa condition première et sa fin dernière dans la liberté.*

L'existence, d'abord, résulte dans la réalité humaine, d'un acte de liberté. Esse sequitur Fieri. Faire, et, en faisant, se faire. Il n'y a pas de nature originelle, mais une action originelle (qui peut être une faute).

A chaque instant l'homme se trouve dans une *situation* qui l'oblige à un *choix* défini; les *situations-limites* (ex, la perspective de mourir) renfoncent le sentiment de l'étroitesse et de la profondeur de l'existence. La situation rend nécessaire l'*engagement*. L'abstention est impossible : l'homme doit user nécessairement de sa liberté.

Enfin le monde des choses subit la trace de la transformation opérée par l'homme et devient l'œuvre de la liberté humaine. L'homme est ou une maladie de la nature par laquelle la nature se dépasse elle-même (en cas de négation de l'Etre transcendant) ou un être créé et créateur lui-même (en cas d'affirmation).

II.

EXAMEN DE L'EXISTENTIALISME

L'Existentialisme possède des caractères qui ont assuré son succès et attiré la critique. Ces caractères sont les mêmes dans les deux cas. Passons sur les moins importants. Par ex. La *nouveauté* a été à la fois objet de blame et d'éloge pour l'Existentialisme, comme elle l'avait été pour Descartes, et aussi pour St Thomas d'Aquin. Toute doctrine nouvelle, quelqu'elle soit, doit combattre l'esprit de routine et se défendre de l'esprit de snobisme.

La «*littérature*» a repoussé et attiré chez les existentialistes. De brillantes analyses ont séduit les gens du monde et ont mis en garde les philosophes de profession. Mais quels sont les philosophes auxquels depuis Platon il ne serait pas possible de reprocher «la littérature»? Le dernier en date fut Bergson. Or la littérature étant l'expression particulière de l'existence il serait étonnant qu'on interdit à une théorie de l'existence d'y recourir. Ce qu'on pourrait plutôt leur reprocher, c'est de faire de la littérature pédantesque ou faisandée.

Voyons ce qui caractérise l'Existentialisme par rapport à d'autres doctrines contemporaines.

1° L'Existentialisme est orienté vers le *spiritualisme* par suite de ses origines religieuses (chez Kierkegaard) et du fait qu'il se pose des problèmes qui n'ont de sens que dans un monde où le sujet est soi. Ce caractère religieux se retrouve chez Gabriel Marcel, Léon Chestov, Nicolas Berdiaeff, Benjamin Fondane etc. et il est commun à des penseurs de religions différentes, qui tous éprouvent le besoin de poser comme existant le Dieu qui s'est défini lui-même ainsi à Abraham (Ego sum qui sum). L'Existentialisme prétend se passer de toute théologie et même de toute philosophie à ce point de vue. Il va directement à Dieu. Entre l'individu et l'Absolu, pas de moyen terme.

Or pour le Marxisme cette attitude est celle des premiers âges de l'humanité, lorsque celle-ci avait une «pensée magique». L'homme croit que les mots sont des choses dotées d'une sorte de pouvoir, et il s'imagine agir directement sur les choses elles-mêmes grâce à eux. A un stade ultérieur, l'homme arrive à la rligion, c'est-à-dire qu'il fait un effort d'imagination pour se représenter l'histoire et la société; ce n'est pas encore le stade de la philosophie, mais c'en est une amorce. L'existentialiste, lui, n'est même pas arrivé au stade de l'imagination religieuse; il en est encore à celui de l'attitude magique. Dieu ne lui est qu'un instrument pour parvenir à ses fins (1).

Une vue aussi irrationaliste est condamnée par les incroyants,

---

(1) Ainsi pour Kierkegaard Dieu est avant tout l'Etre subjectif par excellence Celui qui commande à Abraham de sacrifier son fils sans raison, et qui sans raison aussi sauve cet Abraham; qui abandonne Job au Démon et qui lui rend la santé et ses biens aussitôt après; qui enfin, serait capable, s'il le voulait, de restituer Régine à Sören.

Ce monde là est celui de la *répétition*, c'est-à-dire du retour de l'individuel, par opposition à celui de la *réminiscence* qui est la reviviscence du général, caractéristique du monde antique.

à qui elle paraît une folie (credo quia absurdum); et aussi par ceux des croyants, les catholiques, par ex., pour lesquels la foi, loin d'exclure la raison se greffe sur elle.

2° Tous les existentialistes ne sont pas croyants, loin de là, mais ils admettent tous la *primauté du subjectif*, et, par conséquent s'il faut les classer dans les cadres de l'ancienne métaphysique, ils seraient plutôt spiritualistes que matérialistes. Même si l'esprit, pour eux, est inséparable du corps et qu'il en partage le sort mortel, cet esprit n'en est pas moins l'organe de la révélation : c'est lui qui ressent l'angoisse, qui souffre du vertige de la liberté, car cette angoisse n'a rien de commun avec la peur vulgaire toujours causée par un objet, ce vertige n'a rien de commun avec le vertige causé par les troubles des canaux semi-circulaires.

L'Existentialisme est en somme un subjectivisme éperdu. Il ne peut donc agréer à une doctrine qui admet le primat de l'objet, qui fait dépendre la connaissance de sa condition extérieure et considère l'histoire comme mue par un processus économique. L'Existentialisme au contraire se place au cœur même du sujet, et c'est par irradiations successives qu'il retrouve l'objet, toujours pour lui moyen au service d'une fin. L'emploi récent des mots «factice» et «ustensile» pour désigner la part d'objectif et de tout fait le montre suffisamment.

Ce n'est pas que l'Existentialisme se présente comme un idéalisme, loin de là, puisqu'il ne part pas de la pensée comme fait primitif mais de la totalité du sujet angoissé et cherchant la libération; ce n'est pas non plus que le Marxisme se donne comme un matérialisme au sens ancien du mot, puisqu'il admte fort bien l'existence des faits de conscience à titre de phénomènes secondaires, et que le mot «matière» a fini par désigner quelque chose qui n'est pas tout-à-fait l'esprit, de même que le mot «esprit», quelque chose qui n'est pas tout à fait la matière.

Il n'empêche que l'orientation des deux doctrines soit absolument différente et que le malentendu à partir de la notion d'esprit et de matière réside plutôt dans la direction que l'on assigne à la vie humaine. Le marxisme reproche précisément à l'Existentialisme de donner une idée abstraite de l'existence, de parler de la vie sans penser aux conditions matérielles de la vie, de l'amour sans penser aux circonstances sociales de l'amour etc. bref de faire du sujet étudié ainsi isolément une abstraction. En effet il n'y a pas de sujet qui ne soit plongé dans un milieu social et naturel avec lequel il s'accorde ou entre en conflit.

En un certain sens l'Existentialisme serait plus proche du Christianisme. Pour ce dernier l'homme est une âme et un corps, mais plus encore une âme. Mais cette âme est crée par Dieu, elle désobéit chez le premier homme, elle est relevée grâce à l'Incarnation, bref elle a une histoire de même qu'elle a une société, par la communion, la réversibilité, etc. Elle n'est pas un sujet.

3° Ceci nous amène à un autre problème, celui de *l'action*. Pour le Marxisme l'action est commandée par les conditions sociales; pour l'Existentialisme, par la condition humaine. Ces deux théories ont ceci de commun qu'elles visent à l'action. Ce sont des pragmatismes. (Leur premier trait commun était de répudier la métaphysique, leur second de répudier le dualisme esprit-corps). Marx écrivait il y a cent ans que le problème n'était plus de savoir comment expliquer le monde, mais de savoir comment le changer. Malgré tout il s'appuyait, et ses disciples encore plus que lui, sur une interprétation de l'histoire (qui impliquait une grande confiance en la raison).

L'Existentialisme est anti-historique en ce sens qu'il est individualiste, qu'il nie la valeur de l'histoire, que ce qui l'intéresse ce n'est pas la réminiscence mais la répétition et le paradoxe. De plus la liberté pour l'Existentialisme est une sorte de création ex nihilo de l'homme par lui-même.

Or le Marxisme comme le Christianisme traditionnel admettra une détermination de la nature humaine (qu'elle soit créée par Dieu ou formée par l'histoire). Il ne pense pas que l'homme devienne uniquement ce qu'il se fait; ils prétendent que l'homme est aussi ce qu'il a été fait. Bref, en termes sartriens, il tient encore plus compte du factice que du transcendant. Au contraire c'est un trait assez commun aux existentialistes de mettre l'accent sur le transcendant.

Il y a dans l'Existentialisme une apothéose de la liberté qui pourrait, qui devrait se retrouver dans une doctrine révolutionnaire, mais qui ne s'y retrouve pas en fait. Le prolétaire en effet ne se révolte pas par suite d'une décision propre et autonome, en prenant la responsabilité entière de cette révolte; c'est le moment même de l'histoire économique qui l'y contraint. Il y a un déterminisme intégral. Pour l'existentialisme, non : l'ambiguité persiste : le prolétaire se trouve placé en face de conditions de vie inacceptables d'un côté, de l'autre il choisit de se révolter. C'est dans la possibilité de ce choix que réside la grandeur de l'homme.

Donc voilà deux doctrines qui sont des appels à l'action; mais combien différentes ! Le Christianisme aussi est une doctrine

d'action et de liberté; mais il suppose qu'il y a une nature humaine et que la liberté est greffée sur cette nature. De plus la grâce est nécessaire; elle joue le rôle de l'histoire dans le Marxisme plus tard. Il y a dans ces deux doctrines une *condition* et une *fin* de l'action libre, tandis que pour l'Existentialisme le factice n'existe qu'en vue du transcendant.

4° Finalement que l'on étudie dans l'Existentialisme Dieu, le moi ou l'action, en le confrontant avec le Marxisme et le Christianiems, on s'aperçoit que l'Existentialisme combat pour la foi, pour l'individu, pour la liberté — mais pour une foi sans révélation faite à une Eglise, pour un individu sans attachement à une société, pour une liberté sans un but défini.

Par son dégagement de la tradition, de l'histoire, du milieu l'Existentialisme est donc un subjectivisme. Mais il est encore plus un irrationnalisme. Car le subjectivisme peut se concilier avec le rationalisme, la croyance à l'âme avec la confiance en la raison. Voyez Descartes qui est si dégagé de la théologie et de la sociologie, qui n'est ni un scolastique ni un révolutionnaire et qui avec cela croit à une vérité indépendante du sujet.

Or la nouveauté importante introduite en philosophie par Kierkegaard c'est que non seulement il n'y a pas de vérité, sans un sujet qui la conçoive mais encore pas de vérité sans un sujet qui la crée. Les hommes qui pensent avaient toujours cru que leur pensée dépendait d'autre chose que d'eux-mêmes, y compris Kant qui constate l'existence de catégorie mentales, d'impératif catégorique, de principes régulateurs etc. dont il légifère le fonctionnement. Qu'est-ce à dire sinon que pour la première fois le *Cogito* a cédé la place au *Volo?* L'Existentialisme est l'ennemi du rationalisme autant et plus que des philosophies de la tradition et de la révolution, avec qui il peut s'accorder en tant qu'elles formulent non des vérités mais des désirs.

Ce que je pense de l'Existentialisme?

Je l'approuve d'avoir dénoncé les soi-disant a priori dans lesquels notre existence est emprisonnée, d'avoir dégagé une vérité première qui est l'existence de ma propre réalité, d'avoir montré que les conditions de connaissance étaient secondaires par rapport aux raisons d'être, et qu'il n'y a pas de valeur sans évaluation, de vérité sans vérification.

Je lui reproche d'avoir cru qu'en dehors de la raison il pou-

vait y avoir un criterium possible en l'absence d'un Etre transcendant. La métaphysique reste nécessaire; la constatatiion ne doit pas se faire passer pour une explication - de placer en l'homme une confiance exagérée et de croire que les puissances obscures peuvent le conduire plus loin que ses puissances claires. L'irrationalisme (existentialiste) ne peut pas compenser l'échec du rationalisme.

Jean GRENIER

HISTORY AND THE HISTORIAN

A Public Lecture delivered in the Hall of the Faculty on Thursday, March 4, 1948, by Dr. James J. Auchmuty, *Member of the Royal Irish Academy and Fellow of the Royal Historical Society; Assistant Professor of Modern History at the Faculty.*

In a recent issue of the *English Historical Review* a distinguished British historian, in a pleasantly favourable note on my recent biographical and critical essay on Lecky, greatest of Irish historians, so closely connected with my own university of Dublin, somewhat startled me with his comments on my attitude to history and historiography :- "From one side and another, over and over again the reader is sure to find himself in amicable disagreement with opinions implied or expressed in this book. One might conjecture that it would even take a considerable essay or a long debate going to the roots of historiography to decide whether the author is right in disparaging so completely... (a) paradoxical judgement of Acton..." I was the more surprised in that on the judgement referred to I had felt that today there could be no two opinions. Accordingly I was compelled, as every student of history must be compelled at some time or another, to examine the basic principles of historical study. A whole series of correlated and relevant questions had to be passed in review and an attempt made to come to some firm decision on an attitude towards the subject and towards historical research. Such an enquiry has not shaken my opinion on the particular point at issue and it is not my present intention to enter on any detailed defence but rather to outline the results of my personal investigation and then to discuss certain aspects of historiography which have only come to the fore with the present generation.

Man has always held the past in high esteem; otherwise the knowledge of his environment would be limited to the experience of his own generation, and each would have to start anew his voyage of discovery through the complexities of nature. Nothing

in this World can be known or understood intelligently without some ideas as to its origin. Even a new machine is but imperfectly explicable apart from its history. Since man is more important than the machine more time must be devoted to the study of man than to the study of the machine, but it is essential to recognize that the present is, in its entirety, the outcome of the past, and from that recognition should come a more lively and intelligent interest in the world around us. To many it seems clear that for thousands of years civilization has been persistently advancing along certain definite lines, though the rate of advance varies incessantly both from place to place and from time to time. Such an opinion disagrees with that of Fisher, who failed to find any constant rhythm in history but agrees with that of Toynbee who not only asserts a unity of history but argues that any theory of progress in cycles would be an everlasting cosmic joke. History, as we conceive it is the record of the orderly progress of all that makes up our environment; and it is not merely a study in causation or a branch of criticism but also a great time drama possessing all the qualities of a science and of an art. In so far as it is a systematized and organized body of knowledge it is a science and we are in full agreement with BURY that there is such a thing as a Science of History but the terms of his challenge were too extreme: "History is a Science; nothing less and nothing more." History "knowledge gained by a process of enquiry" must be fused into the form of art if it is to meet with any kind of acceptance. Even Bury admitted this in a different context: "History is, in the last resort, somebody's image of the past and the image is conditioned by the mind and experience of the person who forms it." The presentation of this image is an act of artistic creation and of literary composition. Historical narratives can never survive, except as a source of material for experts, unless they are works of art, and no historian has risen to true greatness who is not an artist as well as a scientist, who does not follow in the steps of Gibbon, Macaulay, Buckle or Froude.

It is only in modern times that generations have grown up willing on the one hand to spend whole life-times in the pursuit of historical knowledge or on the other prepared to devote large periods of leisure to the reading of other people's opinions on matters of historical importance. "The reading of Histories only for delight, talk and ostentation, is a prodigal consumption of precious time" wrote George Snell in 1649 only a few years after BACON had declared: "Histories make men wise"; but in our modern western world so many have their lives deadened by rou-

tine occupations that some turn to history as others to detective stories for a literature of escape and of imagination. Obviously it is not the prime function of the historian or of the university school of history to provide a literature of escape but we do not sneer at gas the bye-product of coal so long as our supply of coal is not interfered with. So long as historical novels and biographies turn the attention of some to the pursuit of historical truth so long do they have a value even in the circle of the expert. It is the general opinion that the novels of Sir Walter Scott gave a wholly new direction to English historiography, and they certainly inspired many to their first interest in a branch of learning deserving of study for its own sake which is also a kind of knowledge useful in daily life. Nevertheless for most of us gifted with a mind for historical enquiry the "temperate curiosity" recommended by Lord Bolingbroke remains sound advice: "Some (histories) are to be read, some are to be studied, and some may be neglected entirely not only without detriment, but with advantage. Some are the proper object of one man's curiosity, some of another's, and some of all men's; but all history is not an object of curiosity for any man. He who improperly, wantonly and absurdly makes it so indulges in a kind of canine appetite; the curiosity of the one like the hunger of the other devours ravenously and without distinction whatever falls in its way." It is not given to mankind to produce a Toynbee, any more than a Gibbon, in every generation, and increasing specialization makes it progressively more improbable.

"The end and scope of all history being to teach us by example of times past such wisdom as may guide our desires and actions" wrote Sir Walter Raleigh in his prison cell as he attempted a History of the World. He had but little improved on the great definition of Thucydides, hopefully propounded centuries before our era, "History is philosophy teaching by example." How much nobler is this outlook than that of Gibbon! "History is little more than the register of the crimes, follies and misfortunes of mankind"; or of Oscar Wilde "That dreadful record of crime known as history". But both Gibbon and Wilde lived at a period when the study of history still meant the study of the distant past, and the notion of recent history as a school for statesmen or as supplying a general background of culture for the many had not yet arisen. History as a subject of other than dilettante research has but recently come to the fore. No one but the expert feels called upon to read much that was written more than two centuries ago, and the nineteenth century saw a complete transformation in the

purpose and outlook of influential historians. Historical enquiry must always be undertaken in accordance with the ideas and interests dominant at the moment of investigation and no historian can abstract himself from his environment. He must therefore strive to understand both his environment and himself, and this generally requires more than mere passive acquaintance. Professor Brogan has well said: "It is a man's right not as a Professor but as a citizen, to have views, to get them expressed as best he can and to convert his fellow-citizens, learned and unlearned, not merely to assent but to action. A Professor who is a socialist in his chair but never from a soap box is merely a more sophisticated form of an idiot." It is certainly no essential part of a teacher's duty to influence the pupils under his care by a one-sided presentation of the facts and he is an unworthy teacher who does not present as best he can the various sides of every question not merely because of one's duty in the pursuit of truth but also, at the lower level since in any democratic state all types and classes of political opinion may be represented among the pupils, and all are equally deserving of consideration. Still it is no accident that all the great historians before the present day were persons whose full-time activity was not devoted to the study and teaching of any kind of history. The "academic historian", the "professor of history" is a recent figure. The noble line which stems from the Greek writers Thucydides, Herodotus and Xenophon and ends in English with Gibbon and Macaulay, Buckle, Lecky, Acton and Froude is a line of great men who brought to their historical outlook the wisdom acquired in military, political or even commercial life. The precision and accuracy of modern research workers is superior to that of their predecessors but no one can claim for them the same breadth of learning and imaginative sweep. It is no historical accident that Gibbon's *Decline and Fall* appeared in the eighteenth century, or that the same epic story would today be comprised in a dozen or so special studies, each authoritative but few readable. Specialization is essential in face of the tremendous expansion of human knowledge but it exacts a heavy price in destroying the essential unity of the human mind.

"It is given only to God and to angels to be lookers on" wrote Francis Bacon, possessor of one of the most remarkable intellects in the whole of British history, essayist, scientist, historian but also statesman and Lord Chancellor. The Victorian liberal believed neutrality in thought to be possible and yet it was of those same liberal historians that Emerson, the American philosopher, could write: "the history of Rome and of Greece when written by their

scholars degenerated into English party pamphlets". We knowing more about the emotions and also about human failings realise that it is not. But the reader who fails to grasp a historian's bias is generally lacking in intelligence and even the lecturer will soon be queried by the variegated members of his class. The Whig school of historians have dominated English historiography not because they were always right but because they were always readable. And just as the reader must note the author's bias he must also examine closely his choice of subject. In modern western historical research as in modern western industry, Toynbee has pointed out that, the quantity and location of raw materials is threatening to govern the activities and lives of human beings; the potter is becoming the slave of his clay. To the preservative qualities of the Egyptian desert we owe our great knowledge of the Ancient Egyptian Empire, how little do we know of the Seleucid which was probably of equal importance!

Since every author is the child of his time all historical works have to be understood in their context and a dead author's context has to be discovered historically. From the informed writings of HERODOTUS, the father of history, THUCYDIDES and XENOPHON it is a sad declension to the chroniclers of mediaeval Europe whose pages are filled with facts, often fanciful, presented without any pretensions to literary charm, perhaps destined for edification rather than the service of truth. A new spirit is dawning in the thirteenth century when Mathew Paris could write: "The way of the historical writers is hard for if they tell the truth they provoke men and if they write what is false they offend God." In the history of European thought there have been few greater sensations than that caused during the renaissance when Lorenzo Valla (1406-1457) demonstrated the Donation of Constantine to be a clumsy forgery, made some five centuries later than its presumed date. In their context the original forgers had not felt themselves dishonest. They probably believed in their grant, they felt the proof would be useful. They can be compared with the English monk, who, on being asked to write the biography of the Patron Saint of a neighbouring foundation, asked for materials, and when told there were none replied: "So much the better! I shall prepare you a story after the manner of St. Thomas a Beckett". That monk felt no moral compunction. He was like a modern novelist writing for his public. This is a far cry from the notion, slowly gaining strength since the time of the Renaissance, that history should be studied for its own sake, for the mere purpose of getting

at the truth respecting the causes, the facts and the consequences of the great movements of the past.

In the medieval world it was an Arabic historian who set out the highest ideals of historical research; though like so many westerners of later date he proved a voice crying in the wilderness. The weakness of the great majority of Arab historians is the compilation of vast quantities of undigested material. Every source is tapped, every reference quoted, but too often there is neither synthesis nor evaluation. Their general inferiority to the best of the west is shown by the comparisons that are made. AT-TABARI who died in 923 was by Gibbon called the Arab Livy; AL-MASOUDI who died in 956 has been called the Herodotus of the Arabs; but IBN-KHALDUN (1332-1406) stands on his own feet incomparably alone, the greatest historian to write in Arabic at any period in the history of the language, with a scientific attitude far in advance of the western world of his day. In his Prologomena, which would be better called Introduction, to History, of which a good English translation is much to be desired, he sets out at length his principles of historical study and research. "...history includes reflection and examination and the subtle tracing of causes and origins. And it is worthy to be considered one of the sciences of wisdom." Ibn-Khaldun identified the Science of History with the Science of Civilisation — "a vast and infinite science in which all particular arts and sciences may be included." In history he recognized an endless cycle of progress and retrogression analogous to the phenomena of human life. Kingdoms are born, attain maturity and die, and, since he was chiefly thinking of the shifting kingdoms of the desert, their brief life he estimated at not more than three generations or 120 years, reminding the English-speaking of the Lancashire proverb about success in commerce: Clogs to clogs, three generations.

Ibn-Khaldun was very severe on the errors and the non-scientific attitude of his predecessors. Pointing out that even in the fourteenth century the historically minded public was growing he deprecated the over-emphasis on political history and recommended less genealogical and legal detail since others than ministers and members of ruling families were now prepared to read historical works. He enunciated seven causes of error in the writing of history :- i. Prejudice; ii. Undue confidence in authorities; iii. Ignorance of the aim of those who took part in historical events; iv. Readiness to believe that truth has already been obtained; v. Ignorance of the circumstances surrounding events;

vi. Desire to win the favour of great personages; vii. Ignorance of the nature of things from which civilization arises. Unfortunately Ibn-Khaldun is a great light shining in a sea of darkness. No other historian of comparable talents followed in his footsteps and he is a lone figure in the intellectual world of his day. He had a strangely chequered career, in turn civil-servant, diplomat, lawyer, judge, theologian — he was at all times a prolific writer — on philosophy, logic, arithmetic and law as well as history. Four times he was Secretary or Prime Minister to one of the petty Sultans of North Africa; three times he was dismissed or imprisoned. Three times he was Grand Cadi of the Malakite Rite at Cairo and twice dismissed. Yet in all his misadventures he was treated with the respect due to his remarkable learning even when captured by the great Tamurlane during the Sultan of Egypt's invasion of Syria in 1400. He certainly belongs to that noble line already referred to who brought to their historical outlook the wisdom acquired in military and political life.

Ibn-Khaldun left no school. He was a genius born out of due time, and Professor Flint can hardly be justified in calling him the founder of the Science of History. That Science is the child of the eighteenth century, for History as an exact science is a late invention. In the sense parallel to that in which Euclid, Aristotle and Archimedes were scientists the ancients had no historians. In the social sciences Aristotle, as a writer on Politics, is the first scientific thinker. As the Babylonians and the Egyptians seem to have collected observations and made measurements without really achieving a scientific outlook upon astronomy and mathematics, so Thucydides and Tacitus recorded with industry and imagination what they had seen and heard; but observation and measurement are not science, and memoirs and legends are only of the stuff of history. Observation and measurement become science when they are synthesised or generalized or when the notion of the concept emerges and this first happened with the Greeks. Memoir and legend become history when they are lifted out of the region of authority by the birth of historical criticism; and this is the discovery of our modern world, its contribution to the advancement of human knowledge. Critical history, foreshadowed by Ibn-Khaldun, began in the hands of men like Vico and Hume; Gibbon and Montesquieu; Niebuhr and Herder; and ripened into the nineteenth century when in the words of Collingwood: "history stood forth the unmistakable Queen of the Sciences and biologists like Darwin and Huxley, philosophers like Hegel, theologians like Baur and Newman, and economists like Marx ex-

plicitly resolved the problems of their special sciences into historical problems, and all the waters of religion and science went to swell the great river of historical thought. So gigantic has been the effect of this revolution that as yet people hardly appreciate it. They talk of evolution, of progress, of the metaphysical reality of time, as if those were notions of the first importance and grand discoveries of modern science. But they are the only half understood and mythological expressions of the concept of history".

Throughout this paper you will note that the word *History* is being used in what the philosophers might call its common-sense meaning, and that, of course, is the way most of us personally use it. The word, however, possesses certain ambiguities. The majority use it improperly, as I have used it, to denote the actual course of events, whereas the true definition makes of history merely a mode of enquiry, or of learning by enquiry. I am not, however, approaching the subject as a philosopher, in the technical sense, and I merely want you to realize that if we refer to Alexander and to Mussolini as Makers of History we should, were we exact, be asserting that these leaders were distinguished writers of historical narratives. To call Julius Caesar a Maker of History would be, in every sense, correct. Accepting the common usage there is one further point which modern philosophers are always calling to our attention. What is the actual course of events we aim at describing? History is not a science of direct observation, or of experiment but of criticism. The object of the historian, according to such philosophers as Croce and Collingwood, is to relive the experiences of the past, to concern himself not so much with action which is the result of thought as with the act of thinking itself. As Collingwood has asserted :- "Historical knowledge is the knowledge of what mind has done in the past, and at the same time it is the redoing of this, the perpetuation of past acts in the present." In contradistinction to the Marxian interpretation of history the predominant western school of historiography stresses the domination of the human mind in its relation with the external world. Pressed to extremes the doctrine of the supremacy of thought over action can be nonsensical. Prior to the 1945 British general election someone invited G.M. Trevelyan, the most distinguished living British historian, to express a political forecast as to the result. He replied that he took no part in politics but that he hoped Mr. Churchill would be defeated because: "He is a great historian." This opinion can, of course, be looked at from several points of view. If Trevelyan meant that Churchill had reached an age when he must have leisure to continue the histo-

rical work which would give him one type of lasting fame he was giving a sound judgement. On the other hand Churchill's genius as a historian has been, in great measure, due to his participation in great events, and if therefore Trevelyan's remark was in any sense a criticism of the value of Churchill's eventful career it was, from my point of view, wrong. The dichotomy which these philosophical historians set up between thought and action seems to me too sharp, one is impossible without the other, the interpenetration is so close for me as to make them inseperable. I therefore query the extreme interpretation of COLLINGWOOD's line of arguement that anybody can shape events only a great man can write about them. "There is no mode of action, no form of emotion, that we do not share with the lower animals. It is only in language that we rise above them, by language which is the parent and not the child of thought." Elsewhere he writes: "the cause (of a historical event) for (the historian) means the thought in the mind of the person by whose agency the event came about: and this is not something other than the event, it is the inside of the event... By an effort of active critical thinking the historian rethinks these thoughts in his own mind. He constructs a picture which is partly a narrative of events, partly a description of situations, exhibition of motives, analysis of characters. He aims at making his picture a coherent whole, whose every character and every situation is so bound up with the rest that the character in this situation cannot but act in this way."

It is, of course, necessary that we should enquire at times into the validity of our modes of thought and experience but most of us will go on in the old way expressing perhaps the countryman's pleasure when he learned that he had been talking prose all his life. In any case in our generation philosophy has stepped down from its former pedestal on which it attempted to explain the universe and has now reduced itself to the much humbler task of analysing the structure within its reach. It has become concerned with the skeleton rather than with the spirit just when historical enquiry has widened its scope from a study of purely political history to a situation in which the sphere of history is as wide as the sphere of human interest.

We have come to realise that political history is but an infinitesimal portion of the great panorama which true history lays before us. In all ages and in all generations the life of the common man has pursued the even tenour of its way unheeding of and unhindered by the changes and chances of the political stiutation.

An over emphasis on political history, such as still obtains in France, is what this generation must attempt to avoid at the same time also escaping the error of falling into the other extreme and explaining all history in terms of economics. The historians to whom I am personally most attracted are those who associate historical progress with the evolution of human thought. They were dominant for a short period in the nineteenth century but they accomplished a lasting work among the most distinguished of our historians even if they had little effect on school text-books. In that century, for a moment in our intellectual history, great minds attempted not merely to synthesise knowledge but also to lay new foundations for our systems of thought. The vulgar notion of the English Victorian age as one of unqualified commercial expansion dominated by rigorous conceptions of middle-class morality is a democratic conception in the sense that it is obtained by the mere counting of heads but it takes no account of the intellectual ferment going on in the educated classes of society as the result of the outpourings of scholars and scientists of very divergent opinions. The representative Victorian writers may have been coloured by the spirit of their age but they were setting light to revolutionary fires which undermined all prevailing systems of thought.

With the possible exceptions of G.M. Trevelyan or of Arnold Toynbee, no modern historian possesses or deserves, among the English-speaking public, that influence which was attained with such masterly sucess by Macaulay, Buckle, Carlyle, Lecky, Froude, to a lesser degree Acton, and by the Americans, Prescott, Motley and Lea. Not only did these men have something to say, but, in a manner different from the vast majority of historians, that had each a philosophy to express, and these philosophies deliberately sapped the foundations of much current belief. In effect these authors laid down the intellectual foundations of our time, and the varied attempts to overthrow their philosophic edifices have so far produced no critic of equal influence with the original writers. It is the modern fashion to sneer at Buckle and his vast design of a History of Civilization, of which he was only permitted to lay the groundwork, but much of our modern change of emphasis in historical research is either explicit or implicit n hs work. Attention is turned from action to thought, from rulers to the common-people, from Acts of God to scientific phenomena. The present vogue, which he envisaged, is for a climatological approach to history. The influence of climate and the influence of disease are the two factors which have most usefully been brought to the

fore in recent years, and neither of them has any close affinity for that domination of thought over event which seems to be asserted by COLLINGWOOD.

We now see that progress and civilization are closely related to the distribution of disease. It is many centuries since the Latin poet HORACE asserted that all men could be wise save when they had a cold in the head. No great civilization has been established in those areas of the world where malaria is endemic or where the climate is well outside the optimum for human comfort. Two thousand years ago Aristotle, Hippocrates and Herodotus thought that the rise of Greece and the fate of the mighty empires of Asia Minor confirmed the excellence of the climate of Greece, yet, despite the influence of Montesquieu and of Buckle, it is only in this century that serious study of the effect of climate on history has been undertaken. The subject has been particularily brought to the attention of American scholars because of the effect on the way of life of a section of the American people of the denudation of some of the middle western states owing to excessive felling of forests and uneconomic usage of soil resources. In large areas of the United States and Canada human greed has produced a regression of civilization. It is obvious that what is going on under our own eyes today must have occured frequently in history and we now realise that those invasions of Europe led by Alaric and Attila were not so much the result of inspiring leadership as of the necessity for following the line of least resistance. These barbarian tribes were forced out of Asia by the failure of their feeding grounds.

It is now realised that there has been a great recession of water in the Near East. The Syrian desert is covered with the ruins of mighty cities where today it is almost impossible to support human life, but how few of our historians explain military defeats or even the fall of mighty civilizations in terms of exhausted resources caused by events outside human control. Of course humanity can contribute to the physical causes of its own destruction. The American farmer in the middle west certainly has. When the Arabs conquered Alexandria it was the second city of the Roman empire with a population of over a million, with four thousand public baths and four thousand theatres; all through the Roman empire the Roman army spread the use of public warm water baths, the ruins of many of which we can still see, but the fall of the empire resulted in the destruction of the baths and, more seriously, the complete loss of the knowledge of how they were

heated. In 950 A.D. under the rule of Abd-el-Rahman ii the population of Spain was calculated at thirty million; in 1594 under Philip ii, at the beginning of what some call Spain's Golden Age it had dropped to a little over eight million as a result of incessant warfare, the expulsion of the Jews and the Moors, the influence of the Inquisition and emigration to America. Spain has never recovered from that blood-letting. In this Spanish case we have a collection of general causes only recognizable over centuries and so like climate and disease too often overlooked. They produced that exhausted type of Spanish intellect exemplified in the famous address of the university of Cervera — the only university in Catalonia — to Ferdinand VII: "Far be from us the dangerous novelty of thinking."

The leading climatological historian, Ellsworth Huntington, explains American predominance in the world today by reference to its optimum temperature for human life and work, and the prevalence in the northern United States of stormy conditions which he contends are provocative of human thought and energy. Like all pioneers his tendency is to claim too much but his contributions to historical thought are undoubtedly significant and it is essential today that historians should look at mankind as a whole since all presentcivilizations take most of their new characteristics from western Europe. As cities all over the world become increasingly alike so also do the lives of intelligent people. Save for its natural beauty the corniche of Alexandria might be the skyline of any American city. Politically Egypt has had few relations with the United States in the past and present contacts are very uneasy yet consider the profound influence exercised on Egyptian civilization by the cinema, the motor car, the aeroplane and so much else of largely American provenance. How many Arabic historians have measured or estimated these influences? So far agricultural workers are not equally standardized with those in towns but perhaps in a thousand years all humanity may have evolved to a standard type, though since change is at an uneven pace it is also possible that the divergencies may increase.

Huntington regards the march of civilization as a great tide which moves steadily forward in a wide flat wave. On the top of the wave one can recognize huge swells due to a storm far out at sea. These cause the water to rise and fall so much that the tide is not noticed till some time has elapsed. The swells correspond to the rise and fall of nations due to the broad interplay of biological inheritance, psychical environment and cultural endowment. The

small waves are due to local winds which represent wars, new treaties, parliamentary debates, the influence of great personalities or of outstanding books.

Thus Huntington, though stressing climatological factors, recognizes many others including that of personality which is so completely overlooked by the Marxian interpretation of history and to which even Buckle, in revolt against the dominant tendencies of his time, gave too little value. The Russian revolution would have been something very different without Lenin; its development would have been considerably altered had Trotsky been substituted for Stalin. But personality can dominate history it cannot make it. There are too many other factors. When we study the Crusades we all know the names of the leaders but how much do we know of the influences which determined their success or lack of it. In 1098 300,000 men besieged Antioch; in 1099 the 60,000 who were left captured Jerusalem; by 1100 only 20,000 remained. In 1190 100,000 arrived on a new crusade at Antioch. Famine, plague and desertion — the last caused chiefly by terror — reduced the force to 500. General Leclerc, a first class French general was sent in 1801 to Haiti to overcome the negro revolt under that greatest negro statesman of history — Toussaint l'Ouverture. 22,000 out of 25,000 men died of yellow fever. In such case what is the use of generalship? Quite recently a paper contributed to a medical periodical proved that a prime cause of Montgomery's desert victories was the superior health enjoyed by his men compared with the condition of the German army. A General to be successful must learn from history! There is much work still to be done in order to study the general causes of historical events, to discern underlying trends which alter the course of history.

Unfortunately historians are no quicker than any other class in learning their lessons. Long after the heat of battle and argument the embers that remain are fanned by the limited and the ignorant. This in European history is particularly true of the Reformation period. The English reformation is still by many attributed to the unworthy desire of an English king, Henry viii, to take a new wife, thus overlooking not merely the past history of English revolt from Roman claims but also the similar divorce cases on which the king based his case. How many know that two months prior to Henry's case his sister Margaret had obtained a divorce in Rome on far flimsier grounds; that a previous pope had granted Henry iv of Castile permission to have two wives but

that Henry viii refused such a suggestion with conscientious horror. Too many look to history to substantiate their own opinions. It can do that but its destiny is much higher. The philosopher who wrote the Book of Ecclesiastes was asserting an eternal truth when he wrote: "He who increaseth wisdom increaseth sorrow" or as it has been said in modern times: "God has given to every man a choice between truth and repose."

Committing oneself to any philosophy of history is accordingly an act of faith and that faith will receive many blows from this side and from that. The nineteenth century was proudly convinced of the certainty of human progress. We are much less certain. Yet we can take heart from the deep pessimism of so many leaders of the past: Wellington in the last year of his life thanked God that he would not live to see the ruin which was coming upon England; in 1790 Burke asserted: "France does not exist politically, it is expunged out of the Map of Europe", in 1847 Disraeli felt: "In industry, commerce and agriculture there is no hope". Just as great minds do not necessarily recognize the trends of their own day neither are they sound judges of the future. How long did it not take the doctrine of the sovereignty of the people to become an accepted historical idea. To quote from RANKE the greatest of German historians: "There is no political idea which has had so profound an influence in the course of the last few centuries as that of the sovereignty of the people. At times repressed and acting only on opinion, then breaking out again, openly confessed, never realised and perpetually intervening, it is the eternal ferment of the modern world." The strength of feeling behind the nineteenth century growth of the idea of nationality was also long unrecognized. As late as 1862 the Czar, Alexander II, invited Bismarck to enter the Russian service. Only in a communist state could such an offer be possible today and even there it would be unpopular! Historians like Buckle and Lecky allowed much too little for the strength of human emotions. It has taken the influence of Freud and of the modern school of psychology to explain much previously overlooked in the history of human personality and activity.

Burckhardt, in many ways perhaps the most influential of nineteenth century historians, with his deep insight into human affairs was certainly a most accurate prophet: "The most ominous thing is not the present era ,but the era of wars upon which we have entered, and that is what the new spirit will have to adapt itself to. How much, how very much that men of culture have

loved will they have to throw overboard as spiritual luxury!... To me, as a teacher of history, a very peculiar phenomenon has taken place namely the sudden devaluation of all mere 'events' of the past. From now on, my lectures will stress the history of ideas, retaining only an indispensable scaffolding of events." Burckhardt hated those very things which he foresaw would inevitably mark the twentieth century — standardization, vulgarization, mere size but, most of all, he dreaded the worship of power. And yet even Burckhardt was very uncertain of his own historical aims. In 1874 he wrote to Nietzche, then a great intellectual force now everywhere recognized his inferior: "My poor head was never capable, as yours is, of reflecting upon the ultimate reasons, aims and disabilities of historical science... My task was to put people into possession of that solid foundation which is indispensable to their further work if it is not to become aimless. I have done what I could to bring them to take personal possession of the past — in any shape or form — and at any rate not to sicken them of it."

This must be the aim of every historian, the obtaining of personal possession of the past, scattering one's net as widely as possible, keeping the mind open to every wind that blows and yet persuing a journey on an even keel. Remembering that history is a school of political method, a storehouse of political precedent and a basis for political progress, but it is much more, it provides the substance for the studies of sociology, anthropology and archaeology, it enlightens much of our study of geography; there is no science which does not benefit from the historical approach. The means of civilization should never be mistaken for the ends. Modern inventions depend entirely for their value on the use to which they are put. The study of this use must be the method of historical enquiry. The work of the historian, in the widest sense, is therefore essential to an understanding of and mastery over our present civilization. His true function is the discovery of those universal patterns which bring order into what would otherwise be a chaos of individual facts and statements.

JAMES J. AUCHMUTY.

THE AMERICAN SYSTEM OF GOVERNMENT

Summary of a Public Lecture delivered by Dr. James J. Auchmuty, *Assistant Professor of Modern History on April, 17, 1947.*

The United States Constitution is the first written constitution of the modern kind, based on the theory that the individual is an end in himself and the state a means to the fulfillment of that end; that the object of government is the good of the governed and that, generally speaking, that good is to be found in the happiness of the governed. Ethically it is true that happiness is not the sole end of life but it is the only one of which politics can presume to take account. Quite deliberately the Fathers of the American constitution decided that good administration is not necessarily good government and that to avoid tyranny and promote individualism it was better, at times, to have no government rather than a bad one. This attitude is a luxury possible only for certain states, desirable for all, explicable in terms of background but most unsuitable for many countries of the modern world. Despite the opinions of nineteenth century liberals, constitutions cannot be transferred ready-made, and it is even more foolish, as has been suggested in the case of India, to transfer a constitution suitable for a homogeneous people with a common political tradition to a sub-continent conspicuous for its varieties of racial and religious experience.

Although parliamentarianism on the liberal democratic pattern is of British origin, with the exception of the British dominions, the fifty or more states which have adopted this method of government have borrowed at second hand rather than copying the original. Why? Because the American, the French and the Belgian constitutions, which are the popular models, are all rigid and in writing and easy to copy; but the British constitution, unwritten, alive and growing is not easy to catch at any given time.

The result is that too many constitutions are copies of copies, strait jackets rather than vehicles for growth and expansion.

The American constitution is the product of its environment. The leaders of the revolution were nourished on the writings of Locke and on the traditions of the English Puritan revolution; by the expulsion of the French from Canada they were free of any dangerous enemy on the North American continent. The majority of immigrants had come to America to avoid religious persecution but by 1776 the old sectarian spirit had softened and opinion was influenced by Voltaire and Montesquieu to a conviction of the superior value of the British constitution. Nevertheless the thirteen original colonies felt no real sense of united national loyalty during the War of Independence, 1776-1783. A new constitution was essential after the war if the colonies were not to drift apart and become thirteen independent republics, many with very divergent industrial and cultural backgrounds.

In the constitution the influence of Montesquieu was predominant, that of the radical Tom Paine of little significance. In *L'Esprit des Lois* Monstesquieu found the success of the British constitution to lie in the separation of the three great powers of government — executive, legislative and judicial. The 39 representatives who signed the draft constitution on September 17, 1787 had kept this very much in mind. The constitution provided for the unity of the nation in the person of a President, who unfortunately is both political and ceremonial head of the state, elected indirectly by the people of all the states; it recognized the equal sovereignty of the states in a Senate to which each state sent two representatives whose status was akin to that of an Ambassador; it acknowledged the sovereignty of the people in a House of Representatives whose members were proportional to the population. The executive was to have no share in the legislative body; members of the cabinet, a body which is not mentioned in the constitution, cannot sit in either branch of Congress. Finally a Supreme Court was established to act as guardian and interpreter of the constitution and this guardianship was actively extended during the long and notable career of Chief Justice Marshall.

The constitution specifically laid down those powers which fell to the central government, and the residue — a very considerable amount — are at the disposal of the states. The 48 states are in charge of local government, education, the police, the chartering of banks and companies, the care of roads, bridges and canals, and, most important, they have the power to decide who

is to vote and how, accordingly some states have kept negroes or those unable to pay a poll-tax from voting. It is the province of the Supreme Court to decide if or when the Federal and State governments are infringing on each others powers. As further checks on the dangers of tyranny frequent elections are provided for. The President and his understudy the Vice-President, a man almost without a job, have a four year term; a Senator sits for six years, and a Representative for two. As result the Senate has become the stronger branch of the legislature. Though the constitution is cumbrous, clumsy and slow it has had but 21 amendments in a century and a half. Save for Franklin Roosevelt no President has ruled for more than two terms. He is no longer elected by chosen intelligent leaders but in practice by a vote of the whole people, yet his policies may be nullified by the opposition of a legislature elected at a different time; the power of the Supreme Court has in political affairs, become too great; just as the position of the Cabinet is not sufficiently powerful and the American executive, not sitting in congress has by no means the experience or authority of a British cabinet. A flexible constitution of the British type could meet emergency situations much more quickly than a rigid American one. In a world dominated by the atomic bomb the latter may be outmoded, yet the frequency of elections, not merely to congress but also to positions in state and local government have made it the constitution of all the world most in touch with the people, it is a symbol of day by day democracy just as it is the first example of a successful federal constitution.

James J. Auchmuty.

THE OEDIPUS COMPLEX IN CORIOLANUS

English scholarship, which is only beginning to accept the method of interpreting certain plays and poems as historical allegory, has displayed an even greater reluctance to apply the methods of psycho-analysis to literature. This reluctance appears be based on the timorous view that something which is essential to literature may in this way be lost, be explained away; that, by too complete a mechanistic representation of the processes of artistic creation, the magic of the achievement may be analysed away.

This is a very narrow, bleak view to take of the endless variety of life, for it does not seem to me that the miracle of a flower's growth is in any way diminished by a knowledge of the behaviour of chromosomes, or that the marvel of a dog's intelligence is lessened by the discovery of the conditioned reflex. Science is still very far from being able to explain everything and psycho-analysis is beginning to adumbrate an unexplainable core to the strange world which is the human being, a core so far immeasurably deeper than the mere workings of the mind which, even in its unconscious functioning, no longer appears to be the final controlling force in our being. * Psycho-analysis does, however, help us to understand the significance to the human mind of certain myths and story patterns at different levels of consciousness and therefore enables us to understand why these myths persist and are popular.

Psycho-analysis helps us to understand why certain plays continue to be stage successes when the critics have condemned them as dramatic failures. We have all had the experience of feeling that a play is great without being able to find logical reasons for our feeling, and in this case our failure is not always due to our being without the necessary critical equipment, since the greatest and most practised critics have been as baffled as the ordinary play-goer. The most outstanding case of this, of course, is *Ham-*

(1) Georg Groddeck. The Book of the It.

let, and Dr. Ernest Jones * 1) has shown how the critics have consistently failed to evolve any satisfactory explanation of Hamlet's behaviour, or to get much beyond the judgement that the tragedy somehow fails in plot and in characterisation. And yet this play, in which Shakespeare is said to have failed to dramatise his material, has, even when translated into languages remote from English, a strange and powerful appeal to the imagination.

Dr. Ernest Jones who, with Otto Rank, is one of the few who combine mastery of psycho-analytical technique with a wide knowledge of art and literature, has worked out a convincing interpretation of the *Tragedy of Hamlet, Prince of Denmark* as a variation on the Oedipus theme. Freud and Rank had previously observed the Oedipus symbolism in *Hamlet* and *Julius Caesar,* and it is my purpose in the following notes to attempt to extend this kind of treatment to the *Tragedy of Coriolanus.*

Once more the old accusation may be held up against one that one is getting out of the play more than the dramatist ever intended to put into it, but in this case it is of necessity so. Ernest Jones has pointed out that in *Hamlet* Shakespeare was not wholly conscious of what he was about, and that the reason why Hamlet could not understand his own reluctance to kill his uncle was that Shakespeare himself was not aware of the complex in himself which was working itself out in his creative conception of this old tale. It is possible that Sophocles, with his knowledge of medicine, was more aware than any other subsequent writer who has used this theme, up to the time of the discovery of the Oedipus Complex, of the especial cathartic value of the dramatic treatment of this myth. * 2).

Let us see how the tragedy fits this terrible ancient story. Coriolanus' father is dead and he is never mentioned in the play. The father-hatred which is a part of the myth now takes the quite usual form of revolt against authority (much revolutionary activity springs from this complex) and becomes, in this case, an impulse to destroy Rome. The corresponding father-admiration, the desire for identification with the father, has attempted to express itself in Coriolanus' candidature for consulship, and is perhaps involved in his ultimate failure to destroy the city. Rome therefore, in terms of the myth, is his father against whom he rebels and his father with whom he wishes to identify himself, and whose place

(1) Ernest Jones. Essays in Applied Psychology.
(2) Edmund Wilson. The Wound and the Bow.

he wishes to take; so that at different times and to his own astonishment (O world, thy slippery turns) he finds himself wishing to govern it and determined to ruin it.

The impatience of Coriolanus with the democratic formalities of election and his refusal to follow the conventions are an extension of the child's hatred of his father's authority at home, and a sign of the irrational depths from which his impulses spring.

Coriolanus' mother lives and occupies an unusually important place in his life. His attachment to his mother is well known in Rome and during the first lines of the play we are told by the First Citizen that the heroic deeds of Coriolanus were performed not for a patriotic reason but that "he did it to please his mother and to be partly proud." This is a point which is generally missed in making of the play a tragedy of pride. Shakespeare does not waste hints of this kind in opening scenes, the pleasing of his mother comes first and is sufficiently known in Rome to be common street gossip. It is a mutual love and Volumnia gives away a part of the secret when she says to the retiring Virgilia, Coriolanus' wife, "if my son were my husband, I should freelier rejoice in that absence wherein he won honour than in the embracements of his bed where he would show most love." (I.iii. 3-6) It is his mother who rejoices in his triumphal return in Act II scene i. His wife has to be pushed rather awkwardly forward and Coriolanus shows some bitterness as he observes her unjoyful behaviour.

> Would'st thou have laughed had I come coffin'd home,
> That weepst to see me triumph? II. i. 175-6.

There is a clear resemblance between the position of the unfortunate Virgilia and that of the puzzled Ophelia. These two pleasant, normal young women are each neglected by men who are involved in an emotional tangle which is beyond the comprehension of plain and simple love.

It is his mother's power over him which in the end induces Coriolanus to spare Rome, though, as I have already suggested, identification with Rome as father plays some part in it too. So this conflict of mother-love and father-hatred is never resolved and he fails to achieve the double purpose of the myth, the love of the mother and the death of the father. This is his tragedy and this is why he must die.

Here, considering the two plays as patterns of the Oedipus story, is the exact reverse of the Hamlet situation. Hamlet can at any moment destroy his uncle, who, as Ernest Jones has shown,

is in part a father-substitute and therefore an object of identification, but his mother's behaviour has already tarnished the love between them. Coriolanus, on the other hand, retains his mother's love but fails to destroy his father, the state of Rome.

In *Coriolanus*, as in *Hamlet*, Shakespeare shows an amazing intuition in working out the supporting details to this statement of the myth. Consistent with a mother-fixation is Coriolanus' admiration for chastity and cold-bloodedness in woman. This to me is the only reason for his commendation of Valeria, for which I can see no dramatic reason.

The noble sister of Publicola,

The moon of Rome; chaste as the icicle

That's curdied by the frost from purest snow

And hangs on Dian's temple: dear Valeria. V. iii. 63-6.

His destructiveness of nature is similar to the sadistic tendency which Freud observed to be associated in Leonardo da Vinci with a mother-fixation (1). (That disease of the mind, the desire to be a dictator, carries violence and cruelty with it. The Caesars, Napoleons and Hitlers of the lunatic asylums have to be locked up because of this. Otherwise their belief would be as harmless as Mr. Shaw's idea that he is as great as Shakespeare). This violence and destructiveness is cleverly repeated in his little son who so ferociously mammocks the butterfly. The instinctive father hatred is charmingly illustrated in its inception in the behaviour of the little boy, for, when the women go out to meet Coriolanus who is advancing to destroy Rome, and there is talk of his treading on them, the boy flares up and says,

A shall not tread on me;

I'll run away till I'm bigger, but then I'll fight. V.iii. 129-130

So Shakespeare plays one of his most effective tricks with time, showing us face to face the hero as child and as grown man, the Oedipus complex in an early stage and in its terrible working out.

Thus the real tragedy of Coriolanus is not one of pride any more than that of Hamlet is one of over-meditation. The clue is given us by Shakespeare himself. He did it to please his mother.

The only justification for the applying of a psychoanalytical principle to a play, apart from providing a theory with yet another

---

(1) S. Freud. Leonardo da Vinci.

case-history, occurs when such application throws new light on obviously effective things in the play which cannot be adequately explained by ordinary critical methods. In the case of *Hamlet* psycho-analysis explains why a theme which appears to be unsuccessfully dramatised is capable of producing such a profound and universal effect. In the case of *Coriolanus*, although excessive and unusual pride may be the clue to much of his behaviour, it does not explain certain curious features of the play noted above, namely, Coriolanus' exaggerated and curiously timed admiration for chastity in woman, and the humble position of his wife throughout the play. The conventionally accepted pattern of the play as a conflict of pride against better impulses does not provide as rich or as poignant a view of the meeting outside Rome of the conqueror Coriolanus, the suppliant mother and the rebellious little son as emerges if the Oedipus myth pattern is applied. The situation then gains in interest and significance. The hero has half fulfilled the myth; but its fulfillment in the long run is not humanly possible. That is his tragedy and that is the inescapable fate that hangs over him.

The gods of Greek drama and the ineluctable forces they wielded have become the powers of the unconscious depths of the mind. The greatness of Shakespeare and Ibsen as modern dramatists is partly due to their intuitive realisation of this fact, a discovery subsequently elaborated and documented by Freud and others. Art once more has led and left to science the business of classification and statement in dead terms.

When a theme has previously been said to have been insufficiently or unsuccessfully dramatised, the judgement has been made in ignorance of the function of an underlying myth pattern, which may run contrapuntally to the action and of which the dramatist may be completely unconscious. But is there any reason why the dramatising of a theme should be limited to the conscious ordering by the dramatist of the material which his mind provides? That would surely be to impose too narrow and bleak a view of the creative process.

That awareness on the part of the dramatist of the function of the Oedipus complex as the mainspring of the action and his deliberate handling of it as such need not interfere with the effectiveness of a play has recently been demonstrated by Giraudoux in his *Electre*. But when a complex is raised to the conscious plane and becomes part of the logical structure of a play, then the un-

conscious counterpoint, which to a greater or lesser degree is apt to be present, may be provided by a quite differentimpulse from the unconscious life, an impulse of which the dramatist is therefore again unaware.

Herein lies the continuous interest of this kind of analytical procedure and its defence against the charge of destroying the wonder of a work of art.

GWYN WILLIAMS

L'ESPRIT DE SOLIDARITÉ CHEZ LES BÉDOUINS

(العصبية عند البدو)

Une loi absolue et infaillible a commandé et commande encore la vie bédouine : la loi de la solidarité. Partout dans les divers aspects de la vie quotidienne du bédouin, cette loi trouve facilement son application. La vie du désert est, en effet, pleine d'imprévus. Seuls les bras et les muscles du Bédouin le protègent dans l'immense étendue. Il n'existe ni autorité organisée et centralisée pour défendre sa cause, ni muraille fortifiée pour arrêter les assauts tentés par les brigands contre sa tente, aucune force de police n'est chargée de veiller sur ses troupeaux.

Cette vie, «plus que toute autre, impose à l'homme, pour subsister, un minimum de solidarité. Le Bédouin le réalise, dans la tribu, cellule instable, qui a une vie collective et des intérêts communs. L'unité de la tribu est un bien d'autant plus précieux, d'autant plus vanté, que l'individualisme le met sans cesse en péril»(1).

Ainsi la vie solitaire est-elle pour un bédouin le grand danger et exige-t-elle en contre partie un développement particulier de l'instinct de sociabilité. Le besoin de vivre en sécurité incite le Bédouin à être fort pour pouvoir se défendre. C'est dans l'association avec ses semblables qu'il espère trouver la force dont il a besoin. Toutefois, cette association sera plus efficace et plus durable si elle est faite avec des personnes auxquelles l'attachent des liens plus étroits que ceux de la simple solidarité humaine.

En d'autre terme, c'est par le lien du sang que l'homme cherchera, avant tout, à accroître sa puissance. De là, le désir ardent du Bédouin d'avoir une famille nombreuse, notamment des fils capables de porter, le cas échéant, les armes.

Les poètes arabes, dépositaires des traditions préislamiques, et gardiens de la loi du désert, proclamèrent sans cesse la néces-

---

(1) M. Gaudefroy Demonbynes, préface de l'Honneur chez les Arabes» par B. Farès, p. X, no. 2.

sité de maintenir des liens fraternels et soulignèrent sans arrêt celle de les conserver toujours plus serrés.

Qaïs ubn Asem (قيس بن عاصم) l'atteste :

أخاك ! أخاك ! إن من لا أخا له * كساع الى الهيجا بغير سلاح

«Ton frère, ton frère (1) [Entendez : appuie-toi sur ton contribule] celui qui n'a point de frère est pareil à un guerrier sans armes qui s'élance vers le champ de bataille».

«Le fils d'un oncle (2), sache-le est pour l'homme une aile. Le faucon peut-il, sans ailes, prendre le vol ?» (3).

Abou Zoubaïd ut-ta'i (أبو زبيد الطائي) proclame à son tour :

وان ابن عم المرء — فاعلم — جناحه * وهل ينهض البازي بغير جناح ?

«Ne pas éviter de mécontenter les siens, négliger les liens de parenté est une maladresse (4)».

Aussi, la méchanceté d'un proche parent, quoique très pénible, est-elle plus supportable et plus facilement pardonnable que celle d'un étranger. On doit le ménager, le tirer d'embarras, persuadé que demain sans doute on éprouvera le besoin de la même solidarité.

ولا أدفع ابن العم يمشى على شفا * وان بلغتني من أذاه الجنادع

ولكن اواسيه وأنسى ذنوبه * لترجعه يوما الى الرواجع

«Je ne pousserai pas mon parent qui marche au bord d'un abîme quand bien même les préludes du mal m'auraient atteints de sa part ;

«Au contraire, je l'aiderai largement et oublierai ses méfaits, afin qu'un jour les circonstances le fassent revenir vers moi. (5).

De son côté, Al Burj ubn Mushir attaï, (البرج بن مسهر الطائي) regrette amèrement de s'être brouillé avec les siens et d'avoir cherché refuge

---

(1) Le mot «Ahh» (أخ) qui signifie «frère», sert à désigner un membre quelconque du groupe ethnique (Dictionnaire Al Misbah, 16); d'où, par extension, l'expression courante: «ya ahal arab» (يا أخا العرب) (O toi qui fait partie des Arabes) — Farès, l'Honneur chez les Arabes, p. 142 No. 4.

(2) Les termes «Ibn ul-'am», (ابن العم) qui veut dire «fils de l'oncle, cousin paternel», prend couramment le sens de «parent, contribule». De nos jours, «tous les membres d'un hamû-lah (حمولة) ou d'une 'achîrah (عشيرة) s'appellent entre eux, sans exception «ibn 'amm ou ahh...» (ابن عم أو أخ) ... Daghestânî Famille Musulmane en Syrie, p. 178.

(3) Buhturi; Hamâsa, p. 245, 10 et 11; Maïdânî, I, 21.

(4) Id., p. 244, 18.

(5) Id. p. 246, 16 et suiv.

auprès du clan des Banû Kalb, par suite de leur perfidie et de leur mauvaise conduite à son égard, il n'a pas réussi à entretenir longtemps des relations amicales avec eux. Il implore ensuite la bienveillance de son groupe ethnique; il déplore de l'avoir abandonné et d'avoir ainsi entraîné ses femmes hors d'une résidence sûre et défendable. Il fait vœu enfin de demeurer éternellement en bons termes avec lui, si, à l'avenir, l'occasion lui permet de retourner auprès de lui (1)».

فنعم الحي (كلب) غير أنا * رأينا في جوارهم هنات
ونعم الحي (كلب) غير أنا * رزئنا من بنين ومن بنات
فان الغدر قد أمسى وأضحى * مقيما بين (خبت) الى (المسات)
تركنا قومنا من حرب عام * الا ياقوم للامر الشتات !
واخرجنا الايامى من حصون * بها دار الاقامة والثبات
فان نرجع الى الجبلين يوما * نصالح قومنا حتى الممات

Dans le même ordre d'idées, un autre poète déclare :

لعمري لرهط المرء خير بقية * عليه ، وان عالوا به كل مركب
من الجانب الأقصى وان كان ذاغنى * جزيل ، ولم يخبرك مثل مجرب

«J'en jure par ma vie, les proches parents d'un homme, quand bien même ils l'engageraient dans les pires difficultés, tiendront plus à sa vie et le secourront plus volontiers que les étrangers, même si ceux-ci vivent dans l'opulence. Personne ne peut mieux vous le dire qu'un homme instruit par l'expérience (2)».

Par ailleurs, le désert est une terre aride; il ne produit que de maigres herbes ça et là, à la limite d'une oasis ou à côté d'un puits. Aussi, voit-on souvent s'élever des contestations entre bergers au sujet de ces points fertiles et de leur occupation. De là des guerres continuelles, des luttes sans merci. De là aussi la nécessité absolue de collaborer étroitement entre membres d'un même groupe ethnique, clan ou tribu : tous pourront ainsi, le cas échéant, faire valoir leurs droits ou faire triompher leurs prétentions. De là enfin le besoin qu'éprouve le faible de trouver asile auprès du fort et d'être pris sous sa protection (3).

---

(1) Abû Tammam, Hamasa, I, 135-136.
(2) Ibid., I, 134, 6-7.
(3) cf., Ibn Haldûn, Muqaddima, p. 127 et suiv.

Telle fut, avant l'apparition de l'Islam, la vie des Bédouins dans la péninsule arabique : un esprit de solidarité (asabiyyah) qui, tout en laissant à l'individu une large liberté d'action, subordonnait l'exercice de cette liberté à l'intérêt commun. De son côté, l'individu n'éprouve aucun sentiment d'humiliation à s'effacer devant la collectivité dont il est membre. Il n'est même pas rare qu'il mette sa gloire propre dans celle du groupe. La solidarité entre membres du même groupe ethnique est telle, qu'un individu, tout en chantant ses propres exploits, essaie d'en attribuer le mérite à la collectivité toute entière. Le poète, à son tour, pour se glorifier, fait état dans ses poèmes, des hauts faits et des exploits accomplis par les siens.

Les joutes poétiques, extrêmement violentes souvent, qui mirent aux prises, à la fin du premier siècle de l'Hégire (VII[e] siècle de l'ère chr.) plus de quatre vingts poètes, entre autres, Jarîr et al-Farazdaq, nous montrent quel fut l'esprit de solidarité arabe à l'état pur. Durant des années entières, chacun d'eux cherchait, parfois non sans peine, à vanter, non ses propres qualités mais celles de sa tribu. Il fouillait le passé de son groupe ethnique pour dégager ce qui lui apparaîssait comme des actions d'éclat.

Quoiqu'en pleine période musulmane, les poètes en question utilisaient le procédé qu'employaient jadis leurs prédécesseurs de l'époque préislamique. Le genre littéraire reste le même, mais aux thèmes anciens s'ajoutent de nouveaux thèmes tirés de l'histoire de l'Islam. Al-Farazdaq se flatte et dit :

ان الذى حرم المكارم (تغلبا) * جعل النبوة والخلافة فينا
(مضر) ابي وأبو الملوك فهل لكم * يا آل (تغلب) من أب كأبينا
هذا ابن عمي في (دمشق) خليفة * لو شئت ساقكم الي قطينا

«Celui qui a refusé à Taghlib toute action noble et généreuse nous a accordé la dignité du prophète et le Califat.

«Mudar est mon aïeul et celui de souverains. Avez-vous, O Taghlib, un ancêtre comme le nôtre ?

«Mon cousin est Calife à Damas. Si je le voulais, il vous ferait mener comme des valets auprès de moi» (1).

Ce Farazdaq, brouillé avec Jarîr, ne s'en prend pas à son adversaire, mais à la tribu de celui-ci lorsqu'il déclare :

ان الزحام لغيركم فتحينوا * ورد العشى اليه يخلو المنهل
وانا ابن (حنظلة) الاغر ، وانني * في آل (ضبة) المعم المخول
فرعان قد بلغ السماء ذراهما * واليهما من كل خوف يعقل

(1) Cf. Diwân Jarir, T. 2 p. 150 (ديوان جرير ــ ٢ ص ١٥٠ طبعة ١٣١٣ هـ)

أوصى عشية حين فارق رهطه * عند الشهادة في الصحيفة (دغفل)
ان ابن (ضبة) كان خيرا والدا * وأتم في حسب الكرام وأفضل
ممن يكون بنو (كليب) رهطه * أو من يكون اليهم يتخول (1)

«Les heures d'affluence ne sont pas pour vous, guettez plutôt le moment où les bêtes boivent le soir», c'est alors qu'il n'y a pas de monde à l'abreuvoir (2).

«Je suis le descendant de l'illustre Hanzala et j'ai, dans la tribu de Dabba beaucoup de glorieux oncles paternels et maternels.

«Deux rameaux dont le faîte atteint le ciel; et c'est auprès d'eux qu'on cherche refuge contre toute crainte.

«Le soir, étant au plus mal, Daghfal (3) fait inscrire dans son testament: le descendant de Dabba a un père plus glorieux, plus noble ...que quiconque a les Banus Kulaïb comme proches parents paternels ou les a comme oncles maternels.

«Son mérite propre, parmi les gens bien nés, l'emporte et, est meilleur... (4).

Par ailleurs, qu'un guerrier se distingue, qu'un poète s'illustre ...la tribu entière s'honore. Un jour, se trouvant au lieu de réunion de Quraïch, «Utba ubn Rabi'ah (عتبة بن ربيعة) dit à ceux qui étaient avec lui: «Gens de Quraïch! N'irai-je pas trouver Muhammad pour lui parler et lui faire des propositions. Peut-être, en acceptera-t-il quelques-unes? Nous lui accorderons alors ce qu'il aura choisi et qu'il nous laisse en paix». — «Si, lui répondirent-ils. A son retour, après l'entrevue qu'il a eue avec le prophète, «Utba déclare: «J'ai entendu des propos. Par Allah, ce n'est point de la poésie, ni des Prédictions. Gens de Quraïch! Ecoutez-moi et accordez-moi ceci: laissez cet homme et ce qu'il est en train de faire. Ecartez-vous de lui... Si les Arabes arrivent à l'atteindre d'autres vous auront ainsi épargné cette tâche. Et s'il triomphe des Arabes, alors son royaume sera votre royaume, sa gloire sera votre gloire et vous serez, grâce à lui, les plus heureux du monde» (5).

Le cri d'alarme et l'appel à l'aide s'adressent également à cette unité sociale qu'est le groupe ethnique. Yâla 'fulân! (يا لفلان)

---

(1) cf. Diwân Tarîr, T. 2 p. 46; An-Naqâëd (النقائض) p. 174

(2) Vous pouvez ainsi plus aisément faire boire vos troupeaux. Le poète les accuse d'être faibles au point de ne pas pouvoir se défendre, ce qui est une grande humiliation pour un Bédouin.

(3) Un généalogiste arabe appelé Daghfal fils de Hanzalah, de la tribu des Banû Chaï-bân (Qâmûs, T. III, 376).

(4) Naqa'id I, 187, 27 et suiv. (édit. A. Bevan, Leyde).

(5) 1. Hichâm, I, 179-180.

Holà ! «Famille d'un tel, tribu d'un tel...» «Tout le groupe répondait à l'appel de l'un des siens et partageait la haine qu'il vouait à quiconque sur terre. Quand al-Barraq s'en fut délivrer sa fiancée, tout ses contribules lui prêtèrent leur concours» (1). Parlant de guerriers, al-Waddân ul-Mâziny (الودان المازني) s'écrie :

«Lorsqu'on leur crie «à l'aide», ils ne demandent pas à celui qui leur fait appel, ni pour quel combat, ni pour quel lieu» (2).

لا يسألون أخاهم حين يندبهم * في النائبات على ما قال برهانا

Ces traits et tant d'autres montrent d'une façon claire et évidente combien les liens d'amitié et de solidarité étaient serrés entre les contribules. «Ils ne demandent point à leur frère (entendez contribule) qui implore leur secours, dans le malheur, la preuve de ce qu'il avance». Autant une action d'éclat accomplie par un membre de la tribu fait honneur à sa tribu toute entière, autant un méfait attire sur elle toutes sortes de calamités. «Quand un poète satirisait un individu quelconque, sa satire, automatiquement, s'étendait sur tout le groupe (3)» — Jarîr met en garde les Banû Hanîfa contre son emportement :

أبني (حنيفة) ! أحكموا سفهاءكم * أني أخاف عليكم أن أغضبا

أبني (حنيفة) ! انني ان اهجكم * أدع (اليمامة) لا تساوي أرنبا

«Banû Hanîfa ! Empêchez vos hommes insolents [de m'irriter] ; je crains pour vous de m'emporter.

«Banû Hanîfa ! Certes, si je vous décochais une satire, al-Yamâma (4) ne vaudra plus le prix d'un lapin» (5) .

Même si le poète ne vise dans ses invectives que son adversaire, il ne peut pas s'empêcher de faire allusion à la tribu et de faire supporter à celle-ci une part de responsabilité.

«C'est parce qu'ils avaient le même naçab (origine) que tous les membres d'un groupe se trouvaient offensés dès qu'un de leurs essuyait un outrage; le Prophète voyant Hassân-ubn-Thâbit (حسان بن ثابت)s'apprêter à jeter l'anathème aux Quraïchîtes, lui dit : «Comment vas-tu les satiriser alors que je suis de Quraïch?» et

(1) B. Farès, l'Honneur... p. 140.
(2) I. Abd-Rabboh, al-'Iqd, III, 88.
(3) B. Farès, l'Honneur..., p. 139.
(4) Nom du pays des Banû Hanîfa.
(5) Jarîr, Dîwân, 1, 23 (Bas), édit. 1313 (Hég.).

Hassân de répondre : «je t'en extrairai comme l'on extrait un cheveu de la pâte» (1).

Cet esprit de solidarité se manifeste, d'autre part, lorsqu'un membre de la tribu est victime d'une agression quelconque ou se voit menacé. «Un jour les compagnons du Prophète se réunissent. Ils se disent les uns aux autres : «Par Allah ! Quraïch n'a point entendu lire le Coran à haute voix. N'y aurai-il pas parmi nous quelqu'un qui le lui fasse entendre? — «Moi», répond Abd-ul-Allah ubn-Mas'ûd. (عبد الله بن مسعود)— Non, répliquent-ils, «Nous craignons pour toi les Quraïchîtes. Il nous faudrait quelqu'un ayant derrière lui une Achîrah (عشيرة) un groupe ethnique capable de le protéger contre eux s'ils venaient à lui en vouloir» — Laissez-moi aller», répond-il, «Allah me défendra» (2).

Umar-ubn-ul Hattâb, (عمر بن الخطاب) avant de se convertir à l'Islâm, veut aller trouver le Prophète. Sur son chemin, il rencontre Na'îm-ubn Abdel-lâh, (نعيم بن عبد الله) qui lui demande où il allait» — Je vais trouver Muhammad, cet homme impie pour le tuer». — «Par Allah», réplique Na'îm,» tu as trop confiance en toi-même. Umar ! Crois-tu que les Banû Abd el Manâf te laisseraient continuer à fouler le sol (c'est-à-dire de vivre) si tu venais à tuer Muhammad?» (3).

Enfin, lorsque Umar-ubn-ul Hattab embrasse l'Islâm, il va à la Ka'bah (الكعبة) Une dispute s'élève entre les Quraïchîtes qui s'y trouvent et lui. Alors survient un Quraichîtes d'un âge avancé. Il s'approche et s'informe. «'Umar a apostasié», lui répond-on «Eh bien, réplique-t-il, quelqu'un a-t-il fait son choix, que lui voulez-vous? Croyez-vous que les Banû-Adiyy, fils de Ka'ba, vous livrent ainsi leur homme? Laissez-le en paix» (4).

A. Bourham
Docteur ès Lettres
Professeur-adjoint
à la Faculté des Lettres
(Alexandrie)

---

(1) Farès, l'honneur... p. 145; Buhturyll, 167; Jamharah, 13; Aghâny, IV, 4 Zahr-ul-Adâb, 1, 62.
(2) 1. Hichâmi, 192-17 et suiv.
(3) Ibid. 1, 211, 9-12.
(4) Ibid. 1, 214, 5-11.

STEFAN GEORGE, FRIEDRICH GUNDOLF AND THE MAXIMIN MYTH

In the poetry written previous to *Der Siebente Ring* (1), Gundolf tells us, Stefan George has not shown us his god, but only his god's "effect on his own life, his coloured reflection on earth" ("Noch hat er nicht ihn geschaut, nur sein Wirken in eigenen Leben, seinen farbigen Abglanz auf der Erde"). Since the publication of the preceding volume, *Der Teppich des Lebens*, however, a momentous event has occurred: in Munich George met a boy whom he calls Maximin and who was apparently extremely attractive and gifted. Maximin died after three years spent in close contact with the George Circle, in 1904. In this youth the poet found the embodiment of his Ideal:

> Um die Mitte des Lebens hat George den Menschen gefunden dessen Schönheit, Kraft, Glut, Reinheit, Fülle, Einfachheit, Adel, Anmut und Hoheit alles vergegenwärtigte was ihm je Geschichte bot, Zukunft verhiess. Sein eigenes Gebet, das göttliche Urbild und die menschliche Erscheinung waren eins geworden in Maximim.
> (In the middle of his life George has found the human being whose beauty, strength, fervour, purity, abundance, simplicity, nobility, grace and grandeur actualised everything that history offered him and the future promised. George's own prayer, the divine archetype and the human appearance had become one in Maximin) (2).

---

(1) 6 published volumes, that is, including *Das Jahr der Seele* (1897), which I believe contains that part of George's work which will survive long after the George Circle and the traditions of the Master have been forgotten; it is the last book in which George's poetic abilities prevail over his prophetic ambitions. In the title of the volume now under discussion (published in 1907) *Ring* is a reference to the rings visible in the cross-section of a tree-trunk, *Siebente* to the fact that this is George's seventh book of verse.

(2) *George*, Friedrich Gundolf (Berlin, 1916). A momentous book: the priest expounding the priest who expounds the God. Our objection is that Gundolf is concerned with 'Georgeanism' instead of with George's poetry; and that furthermore, instead of dealing honestly with the philosophy' of the movement, his intention is to bolster up the mystico-aesthetic esotericism of the Circle by a clever mingling of logical exposition and emotive, poetic prose.

George's great desideration — "the deification of the body and the embodiment of the deity" — had come to pass; the messenger from "the beautiful life" (who appeared in the previous volume) has been followed by the God of "the beautiful life". Gundolf is at some pains to explain and justify this phenomenon, to give it its logical place in Georgeanism — which of course must be at the very centre — and to shame those who might feel inclined to snigger or guffaw:

> Nur wem ein schöner Mensch Gott werden kann hat Augen für die Göttlichkeit des schönen Alls... Wer Georges Gedichte aus ihrem eigentlichen Ursprung empfindet der erstaunt nicht, in der Mitte seiner hellenisch-katholischen Welt eine Gottmensch-gestalt zu finden.
>
> (Only he for whom a beautiful human can become God has eyes for the divinity of the beautiful universe ...He who experiences George's poems from their proper source will not be surprised to find the figure of a God-Man at the centre of his hellenic-catholic world) (3).

Gundolf goes on to say that Germany and Greece are the only two nations for whom youth is more than *Naturzustand* (a natural state) — for whom youth is, in fact, *Geistlage* (a spiritual condition); he mentions particular examples — Achilles, Alcibiades, Alexander, Siegfried, Conradin (the last of the Hohenstaufens) and Hölderlin; and he closes his argument by declaring that George's deification of a contemporary German youth is

> der Ursprung seines Dichtens, der Grund seines Wesens, die Kraft seiner Welt
>
> (the fountainhead of his poetic work, the foundation of his nature, the strength of his world).

George's own account of the significance of Maximin (told in his *Maximin-Gedenkbuch*) tells us little more than we have gathered from Gundolf's remarks; here is an extract:

---

(3) Turning to the earlier poet, Friedrich Hoelderlin (as the student of George is bound to do, sometimes for explanation, sometimes for relief), we may compare this with what Hyperion, in the novel of that name, says about the Athenians:

> Der Mensch ist aber ein Gott, sobald er Mensch ist. Und ist er ein Gott, so ist er schoen.
>
> (Man is a god, however, as soon as he is man. And if he is a god then he is beautiful.)

> In him we recognised the embodiment of the omnipotent youth we had dreamed of, with its unbroken richness and purity, which even today moves hills and walks on the waters with dry feet — a youth that could receive our heritage and conquer new empires... The better we came to know him the more he reminded us of our ideal and the more we revered the extent of his unspoiled mind and the emotions of his heroic soul as well as their expression in his appearance, his gestures and his language...
>
> ...we writhed at the meaningless, torturing thought that we could never more touch those hands, that those lips could never more meet ours...
>
> We now can eagerly, after impassioned signs of veneration, erect his statue in our sanctuary, kneel before him and worship him, as we were prevented from doing by timidity as long as he was still among us (4).

Obviously the Maximin experience was of great importance in George's development; not, I think, in that it revealed to him any divine and hither-to unacknowledged truth, but rather by confirming him in the views which he already held, in just the same way that "Diotima" — a real woman — had encouraged Hölderlin more than a century before, by demonstrating the human possibility of achieving his ideals:

> Die Zeit doch heilt. Die Himmlischen sind jezt stark,
> Sind schnell. Nimmt denn nicht schon ihr altes
> Freudiges Recht die Natur sich wieder?
>
> Sieh! eh noch unser Hügel, o Liebe, sinkt,
> Geschiehts, und ja! noch siehet mein sterblich Lied
> Den Tag, der, Diotima! nächst den
> Göttern mit Helden dich nennt, und dir gleicht
>
> (Time heals though. Strong and swift are the gods today,
> And is not Nature reassuming
> All of her ancient and joyful power?
>
> O Love, before our path shall descend, her reign
> Shall come! And that day yet shall my mortal song
> Behold, which, Diotima! naming
> You with the heroes and gods, reflects you.
>
> *Diotima*, trans. J.B Leishman)

(4) Quoted by Capetanakis, *Demetrios Capetanakis: A Greek Poet in England* (London, 1947).

Therefore the commentator should not lay too much emphasis upon this rather obscure affair, for both poetic and 'philosophical' evidence indicates that it was more a personal crisis than artistic or religious apocalypse, and the poetry written afterwards is quite in line with that which preceded the Maximin experience — it is simply more explicit, more confident, more openly didactic. The boy-god's death was to George no tragedy: it was simply the confirmation of his godhead through sacrifice and, thus, the final confirmation of George's belief in the beautiful body and the beautiful spirit and in their union—it was, also, another reason for demanding obedience and dedication from those who remained (5). Hence his work is not made warmer and more 'human' through participation in the common sorrow of bereavement; on the contrary, it has become harder, colder, more self-confident and even less concerned with being persuasive when dealing with matters that are far from self-evident. Maximin is the centre of *Der Siebente Ring*, and *Der Siebente Ring* is the centre of George's canon: yet Maximin's influence on the poet was essentially unfortunate since it served to accentuate his weaknesses, to assure him beyond all doubt that his way was the right way, and to confirm him once and for all in his rôle of prophet and teacher. Worst of all, perhaps, Maximin became George's substitute for a clear definition of his beliefs: there, he seems to say as he points to Maximin, is the whole of my belief — but Maximin is dead, and *we* have only the poetry to go by.

But I must qualify what I said about Maximin's death not being regarded by George as a tragedy. *Ex cathedrâ* that was so; but the poet (whatever his relationship with Maximin may have been) had also lost a beloved friend, and the poem *Trauer*, with its unemphatic desolation, its quiet economical record of hopelessness, is a lament for the death of a friend rather than for the passing of a god:

Weh ruft vom walde.

---

(5) Both Jethro Bithell (*Modern German Literature*) and Professor E.M. Butler (*The Tyranny of Greece over Germany*) remark that the discovery of the God in Maximin came at a very convenient time for George. Three of his disciples, Wolfskehl, Schuler and Klages, had just begun a revolt against the Master's glorification of the Male Principle: their new gospel was the *Mutterrecht* of Bachofen, in which Woman (the Mother) is the great fundamental principle of life. It was necessary that George should exert his authority, and Maximin was convenient in being "schoen wie kein bild und greifbar wie kein traum" ("beautiful as no image, palpable as no dream"). But this does not prove that Maximin was produced solely as a species of *panem et circenses* to still the insurgents.

Er schmückte sich mit frischem laub umsonst.
Die flur erharrte dich dass du sie weihtest
Sie friert da du sie nun nicht sonnst:
Die zarten halme zittern an der halde
Die du nun nie beschreitest.

Was sind die knospen all die du nicht weckst,
Die äste all die deine hand nicht flicht,
Was sind die blumen all die sie nicht bricht,
Was sollen früchte sein die du nicht schmeckst!

Im jungen schlag ein krachen
Von stamm nach stamm - wann fällt der nächste?
Das morgendliche grün erschlafft,
Das kaum entsprossne gras liegt hingerafft.
Kein vogel singt... nur frostiger winde lachen
Und dann der schall der äxte.

(Woods cry in anguish.
In vain they decked themselves in leaves of spring,
The field awaited you to bless it, numb
With cold, since now no sun you bring:
The fragile grasses on the hillside languish
Where now you never come.

What are the buddings that you do not wake,
The branches that your fingers do not weave,
What are the flowers that you do not reave,
The fruits you do not taste - whom shall they slake?

In sappy timber cracking
Of stem for stem - what next is bowed?
The morning green is growing worn,
The blades scarce risen upward, lying shorn,
No bird sings... only frosty winds are clacking,
And then the axe is loud.

Sorrow, trans. C.N. Valhope and E. Morwitz)

This is personal in a way that little of George's poetry is personal: but so keenly is the personal sorrow felt, and yet so firmly controlled, that at this moment more than at any other we are near to believing that authentic deity has appeared on earth. Much nearer to believing this than when we are bleakly *told* that such has happened and loudly exhorted to cultivate a new cheerfulness:

Vereint euch froh da ihr nicht mehr beklommen
Vor lang verwichner pracht erröten müsst:

Auch ihr habt eines gottes ruf vernommen
Und eines gottes mund hat euch geküsst.

Nun klagt nicht mehr - denn auch ihr wart erkoren -
Dass eure tage unerfüllt entschwebt...
Preist eure stadt die einen gott geboren!
Preist eure zeit in der ein gott gelebt!

(Unite in gladness, now no longer darkened
And flushing for an age whose gold is flown:
The calling of a god you too have hearkened,
It was a god whose mouth has kissed your own.

You also were elect - no longer mourn
For all your days in unfulfilment sheathed...
Praise to your city where a god was born!
Praise to your age in which a god has breathed!

On the Life and Death of Maximin, trans.
C.N. Valhope and E. Morwitz)

Der Siebente Ring celebrates the appearance of a god on earth: the body has been deified and the deity has been embodied. The 'search for God' seems to have ended successfully. Yet the incarnation of the god has not clarified the nature of the god, and our conception of what George means by *das schöne Leben* — the beautiful life or the life of beauty — is as nebulous as it ever was: still only a conglomeration of the imprecise and even dubious ideas broached in the earlier books — the People (*das Volk*, not to be confused with 'people', *die tausendköpfige Menge*), the young knight, Greek wrestler and medieval minstrel of the *Bücher der Hirten - und Preisgedichte, usw.*, the Roman priest-emperor of *Algabal*, the "new love" that "alone can bring a new salvation", the mystical significance of Youth (which, however, we should not confuse with the Fascist boosting of *giovinezza*), "unser geist begierig nach verehrung" (6)... and all this, to further bewilder him who is rash enough to embark on an examination of the credentials of "the beautiful life", is backed up by appeals to such diverse figures as Goethe, Nietzsche, Pope Leo XIII, Frederick II, Jean Paul, Dante, Hölderlin, Rembrandt, Napoleon, Christ...

Gundolf describes this volume and the following one, *Der Stern des Bundes*, as "both of them holy writings" ("heilige Schriften"); but even he feels compelled to modify this description, to throw a sop to the idea of the poet as Poet:

(6) "our spirit eager to revere", *Leo XIII*, (*Der Siebente Ring*).

> Nichts liegt George ferner als Religion zu stiften, Mythus zu machen oder etwa gar einen Maximin-kult einzusetzen... Wenn das Maximin-buch eine heilige Schrift ist, so ist es das, weil ein heiliges Herz hier einfach ausspricht was ihm widerfahren, und der wird es am besten lesen der seine Belesenheit über das Wesen und die Formen der Religion oder der Hymnik schweigt vor dem Schlag dieses Herzens.
>
> (Nothing is further from George than the foundation of a religion or the making of a myth or even the institution of a Maximin-cult... If the Maximin-book is a holy writing then it is because here a holy heart simply expresses what befalls, and he will understand it best who keeps his book-learning about the nature and forms of religion or the Hymn silent before the beating of this heart).

The last phrase — "before the beating of this heart" — may seen to be strangely at odds with Gundolf's earlier contempt for those who found in the *Jahr der Seele* "a programme music to a heart-text" (7)... and how are we to reconcile these qualifications and modifications with the dogmatic statement which Gundolf has only just previously made, that

> ...erst seit dem Erscheinen Maximins wird für George sein Lebensgesetz, sein Schön und Hässlich, Gut und Schlecht, Hoch und Niedrig über sein eigenes Leben hinaus mehr und mehr zum Weltgesetz, d.h. zum Gottes-Reich?
>
> (...only since the appearance of Maximin has the law of George's life, his beautiful and Ugly, Good and Evil, High and Low, spread beyond his personal life, passing more and more into a world-law, i.e. the Kingdom of God).

If we have been informed that it is through Maximin that George's private, personal law or morality has developed into a universal law, a categorical imperative, the very Kingdom of God, then it is hardly logical to instruct us, almost in the same breath, to forget all about religion, myth and cult and simply listen in silence to "the beating of this heart". After all this (and the momentous impli-

---

(7) See the chapter dealing with the *Jahr der Seele:*
Das "Jahr" das wir hier mitwandeln ist weder ein aeusserer Ablauf von Naturvorgaengen noch eine landschaftsmalerische Programm-musik zu einem Herzenstext...
(The "Year" with which we wander here is neither an external unfolding of natural events nor a landscape-painter's programme music to a heart-text...).

cations of the previous books), we shall not be content to discover that Maximin's heart beats in the same way as our own frail, fallible human hearts — and, moving from heart-beat to flute-song, has not George himself in a poem from this volume promised

> dass morgen
> Leicht alle schönheit kraft und grösse steigt
> Aus eines knaben stillem flötenlied?
>
> (that tomorrow
> All beauty, greatness, strength will lightly rise
> Out of the quiet flute-song of a boy) (8).

We see that Gundolf, at one moment, is eager above all to dissociate his master from the various political, ethical, religious and philosophical panaceas current in the first two decades of this century and to single him out for a special kind of attention, as the performer of a different kind of function, as the Poet, whose concern is with the beating of the heart and with the emotions which life arouses. We see, too, that the next moment — in order to stress the overwhelming significance and the ubiquitous importance of George's work — he speaks of him in terms which inevitably carry with them philosophical, religious, ethical and even political implications: the heart is to beat to a new rhythm, life is to be wholly transfigured, poetry has been transformed into a

---

(8) Compare this and many other passages — eg. "Du geist der heiligen jugend unsres volks" ("You spirit of our nation's sacred youth") from a poem of the *Stern des Bundes* — with the conclusion of an early poem by Hoelderlin:

> Der Gott der Jugend waltet
> Noch ueber dir und mir
>
> (The God of Youth still governs
> Over you and me.
> from *Der Gott der Jugend*)

But apart from an occasional nostalgia for his earlier years Hoelderlin never shows signs of any great enthusiasm for Youth in the Georgean sense. Yet his epigram, *Sokrates und Alkibiades*, contains the very essence of Georgeanism — raising the question that the reader might well put to George and proposing the answer that George might well have given:

> Wer das Tiefste gedacht, liebt das Lebendigste...
>
> (Who has thought most deeply, loves what is most alive...)

That the answer is here expressed with a greater clarity (and, indeed, with a greater cogency) than George, at far greater pains than Hoelderlin, ever achieved, is perhaps due to the fact that Hoelderlin had less at stake: he never attempted to erect momentous structures upon either Youth or Beauty.

combination of myth and morality, the poet has turned into a priest who, in spite of his aloofness, keeps a sharp eye on his parishioners' secular activities... What is the reason for this exegetical uncertainty, this vacillation so strange in a person of Gundolf's intellect? The only reasonable explanation we can offer is that, against his will, Gundolf is forced to realise the disparity between the claims he is makingfor Georges's poetry and that poetry itself. "Georgeanism" has gone further than George's poetry warrants, and here we find its chief apostle involved in somewhat desperate (and not altogether honest) attempts to wrench the two into conformity.

D. J. ENRIGHT

DISTINCTIONS IN LITERARY CRITICISM

> *. . . Κατ' εἴδη δύνασθαι τέμνειν, κατ' ἄρθρα, ᾗ πέφυκε, καὶ μὴ ἐπιχειρεῖν καταγνύναι μέρος μηδέν, κακοῦ μαγείρου τρόπῳ χρώμενον.*
>
> Plato (Phaedrus)

That we live in a scientific age is a fact of which we neither wish nor need to be reminded. But the platitude inherent in this pertinent truth may be glossed by observing that the Renaissance was, in contrast to our own, an artistic age. So indeed were many other ages. But the Renaissance offers a more striking contrast, because it also affords a basis of comparison; that is to say, that whereas *we* adopt a scientific attitude even towards art, *it* adopted an artistic attitude towards science. For illustration, one has only to recall Leonardo da Vinci, whose mechanical and anatomical diagrams were finished works of art; or his letters, in which he refers to his own mechanical genius in terms reminiscent of those in which Prospero or Glendower boasted proud control of the spirit world. Or again, one may think of Machiavelli, whose political science found room for an epic hero in the person of Cesare Borgia. And then, there are those old charts, which, with their dolphins, sirens, sea-serpents, cannibals, and chubby-cheeked wind-gods, indeed resemble

> ...magic casements opening on the foam
> Of perilous seas in faery lands forlorn,

rather than an objective record of discovery.

As against this, in our own era, we may set the tortured theorising of successive modern schools of painting, modern textual criticism of literature and the proud title of "Scientific Bibliography" claimed by Professor Dover Wilson for his method; and more significant still, the invocation of psychology to lend a scientific flavour to the novel and to poetry. Only recently a writer in the

"Fortnightly" deprecated the scientific or analytical tendency in literary criticism as dry and uninspired (1). Yet it is just in the field of literary criticism that the modern scientific spirit may hope to encroach upon the frontiers of Art with some success.

It would perhaps be audacious to claim that literary criticism is more a science than an art. Such distinctions have to be preceded by very careful definition, and though we might venture to specify that the functions of science and art are respectively to discover new truth and to illuminate truth already known, there remains an objection to assembling the critical faculty without qualification in the realm of science. Indeed, the boundary line cuts literary criticism in two; while there are types of criticism which lie on the border, some owing their position to the critic's choice, others to his indecision. Hazlitt, for instance, is a predominantly artistic critic. Anyone who undertakes, as he did, that a genuine criticism should reflect "the colour, the light and shade, the soul and body of a work," is surely more concerned with illustration than with discovery in a definitive sense. Coleridge, on the other hand, is frankly definitive in his approach. He does not hesitate to assume that task, summarily rejected by Wordsworth, of "classing the cabinet of his sensations". Coleridge in his criticism is unquestionably a scientist.

With "artistic" criticism the present study is not concerned. It sets out, however, to impeach "scientific" criticism for not being, in many cases, as scientific as its general tone and style lead the reader to expect. That there is scope for such scientific criticism goes without saying. Literary criticism can be to literature what psychology is to life. Both sciences conduct an enquiry into the human mind. But as psychology reaches its ends mainly by analysis of the subnormal mind, criticism claims the abnormal, that is to say the super-normal, as its sphere, and makes genius, not mania, its starting-point. It is therefore desirable that anyone who undertakes literary criticism in a scientific spirit should adhere to scientific procedure, and one of the first essentials is an agreement as to the meaning of terms.

It is just this point in which the science of literary criticism has been so unfortunately lacking. Aristotle certainly tried to give criticism a scientific basis at what may be considered its birth. But data has accumulated since Aristotle's day. We have more phenomena to explain than were "dreamt of in his philosophy".

---

1) John Arlot in an article on C. Day Lewis' "The Poetic Image". (The "Fortnightly". June 1947).

The first ambiguity that must occur to anyone who deplores the chaotic state of critical terminology must centre round that word "poetry". For the way in which we understand it determines our attitude to major distinctions; or rather, it determines just what major and basic distinctions we will make. Few critics would be prepared to regard *poetry* and *verse* as synonymous; yet very few theoretical, that is to say scientific, critics avoid implying as much, when they venture to discuss these terms. And they imply, in this way, what they would almost certainly repudiate, not by direct confusion of the terms in question, but by the confusion of the opposites of those terms in the use of the single word "prose".

The importance of the question becomes clear when a critic begins to dogmatise about the "proper language" of verse or prose, or whenever *vers libre* is being discussed, to cite only two occasions where the point at issue is prejudiced by an unscientific application of terms.

Examine this sentence from Coleridge: "I write in metre because I am about to use a language essentially different from that of prose." We may take "metre" here as synonymous with *verse*. But what is meant by "prose"? Non-metrical composition? Such an interpretation is not helpful. "I write in metre because I am about to use a language different from that of non-metre"! An earnest enquirer may feel like the inquisitive child, who, in answer to his reiterated "why?", at last gets the exasperated ultimatum: "Because it is so"!

Yet if we take "prose" as the antithesis not of metre but of poetry, Coleridge appears to beg the question: "I write in metre because I am about to use a language that is not prosaic (i.e. a language that is poetic)." *But the necessary connection between verse and poetry is the point at issue, and cannot be assumed in this way*. Surely, this is the very connection which he is asserting in the teeth of Wordsworth's denial that there is or can be "any essential difference between the language of prose and metrical composition."

Coleridge has been misled by the ambiguity of the word "prose". Because he uses a word which has two senses, he assumes that he has established a real, as distinct from a purely verbal, association between the two senses. His argument would seem to be: "Since there is a clear connection between non-metrical and prosaic language (as is proved by the general use of the word "prose" to cover both meanings), so we may take it that there is

a connection between metrical and poetic language." One is not here questioning the conclusion, but the argument. The popular use of a word to cover two meanings does not prove anything. It admittedly represents an association in the popular mind. But it remains for the scientist to arbitrate as to the reality or speciousness of that association.

This is disconcerting, especially when one recollects the controversies and fashionable prejudices which have accumulated round the work of Dryden and Pope, not to mention any of their contemporaries or imitators. For it has been both asserted and denied that Dryden and Pope were no "poets", and that their verse was "prosaic". How can anyone venture on such a topic without the clearest notion of what he means by such terms as "poetry", "prose", and "verse"?

This trio of terms is a peculiarly unfortunate one. It is a case of: "Two's company, three's none." If we regard verse as the opposite of prose, and at the same time as something of a different order from poetry, of what is poetry the opposite? The assumptions which bring us to this dilemma are surely reasonable, and do no violence to the popular and received usage of words. Verse is readily distinguished from poetry in doggerel. "Verse in prose" sounds like nonsense, so we can safely take the two terms as counterparts, mutually exclusive. If, however, "prosaic verse" has quite a different implication and a readily apprehended meaning, it is due to the treacherous ambiguity of the word "prose". "Prosaic" is the opposite not of "verse" or "metrical", but of "poetic". The adjective marks a different contrast from that indicated by the noun. Could we not adopt some such word as "dissertation" to express the alternative to "poetry", and retain "prose" only as the opposite of "verse"?

Turning again the pages of the "Biographia Literaria", we find Coleridge criticising three stanzas from Daniel's "Civil Wars". Coleridge's terms are here prejudicial because he describes Daniel as "prosaic", and the ambiguity of that word has been made clear. But even apart from the question of ambiguity, the word has an unfortunate connotation. In fact, the word "poetic" suffers in much the same way, though as a critical term it is indispensable. For "prosaic" has a bad, and "poetic" a good connotation. That is to say, the terms are used more or less synonymously with "unimaginative" and "imaginative". One would never accuse the style of a cookery-book of being "unimaginative," because imagination is not a quality which one would

expect or desire in a cookery-book. "Imaginative", as a critical term then, means desirably imaginative, and "unimaginative" means undesirably unimaginative. And it is just because "prosaic" and "poetic" can be equated with these meanings that they become dangerous as terms to express two contrasted literary faculties. In the instance referred to above, Coleridge is using the word together with its connotation, in such a way as to suggest that the connotation follows from the meaning. These stanzas, he seems to say, exemplify a faculty other than that of poetry; they are of prose, prosaic; being prosaic, they are unimaginative. And "unimaginative", as we have seen, implies a defect. This is not logic. It is playing on words.

But however prejudicial Coleridge's terms are, the issue which he raises is significant: is dissertation in verse (to use our own term) a tolerable form of literature? Is verse, except as a vehicle of poetry, never justified? Our first instinct is to answer "No, never", making allowance, as Coleridge does, for mnemonic rhymes, doggerel, and necessarily pedestrian parts in long poems. Indeed, the last instance hardly amounts to an exception, as here the effect is *ultimately* poetic. But the full force of the question is not felt until one looks for the corollary. If dissertation in verse is intolerable, we shall be expected to condemn poetry in prose. Is prose never justified except as a vehicle of dissertation? It becomes very hard to be consistent. What a quantity of prose has been praised for the poetry which it contained! In this connection, one has only to mention the name of Sir Thomas Browne; and we do not feel that he needs any special pleading to justify the poetic qualities of his work! Yet on the other hand, for how long had it been, till comparatively recent times, the conventional attack on Dryden and Pope that their work amounted to mere prose? By which word must have been intended "dissertation", for nobody would wish to deny the faculty of versification to those writers. Coleridge alludes to a type of language which would be "vicious and alien in correct and manly prose." But he probably shirked stigmatising any prose passage for being poetic, in the way that he criticised Daniel's lines, specifically, for being prosaic, because he felt instinctively that such a criticism would, like Balaam's curse, resolve itself into a blessing. As has been observed, it is hard to call anything poetic without implying praise, just as it is hard to label anything prosaic without implying censure.

But if terms have acquired this misleading nature, it is at least

worth while investigating how they acquired it. Have we simply been prejudiced by the arbitrary use of terms? Or is there "method in their madness"? Have they acquired their misleading nature as a result of some fundamental prejudice in our own attitude?

To begin with, it would be well to define exactly what we mean by poetry and dissertation, and we may conveniently define them in terms which have themselves been defined at the outset of this study. By poetry, we mean the artistic use of language, and by dissertation, the scientific use of language. Poetry uses words to illuminate, dissertation to designate. The language of poetry has an explicit meaning, but it implies much more than that meaning; it illuminates the meaning in a way that music or painting illuminates. Dissertation, on the other hand, aims at achieving no more and no less than the explicit meaning. To the extent that it implies or suggests the indefinable it is either alloyed or vitiated.

But indeed, the greater part of literary composition is an alloy between poetry and dissertation. The two faculties are not easily found in their pure state - perhaps cannot be. It is vain to classify a work as poetry, and bind it accordingly to the observance of preconceived rules. One can only estimate that a writer's purpose lies at a certain pitch between poetry and dissertation, and murmur reproof if he takes a plunge too far in one direction or the other, or if his purpose itself entertains incongruities. Thus poetry and dissertation are more safely regarded, not as different faculties, but as different elements in the one faculty of literary composition; and the scientific critic will find it more convenient to speak, not of poets and writers of dissertation, but simply of writers or authors, in general.

Now what of verse and prose? These also are no hard and fast species. The Greeks spoke of their choruses as "logaoedic" compositions, suggesting that these, with their irregular and changing rhythms. were half-way between prose and verse. Much of Shakespeare's mature blank verse could be written in prose form without devastating loss; and modern *vers libre* represents just such another compromise - not to mention many parts of the Scriptures. There are even novelists who in their lyrical moments cross the border completely into verse, let alone linger on the brink of it. In such instances, it is not just a question of *poetry*, but of actual verse.

Wordsworth attributes to metre "the pleasure which the mind derives from the perception of similitude in dissimilitude." He

observes: "From this principle the direction of the sexual appetite, and all passions connected with it, take their origin... It would not be a useless employment to apply this principle to the consideration of metre, and to show that metre is hence enabled to afford much pleasure." This would stand as a very good definition of verse (by which we must understand something rather wider than metre, (1) something that will embrace the parallelism of Hebrew poetry). But in brief, we may say that verse is the adoption of more or less regular repetition in our language, prose its deliberate and studied avoidance; always bearing in mind that "regular" is a comparative term. Perhaps, even considerable tracts of our conversation have a loose verse form, comparable with *vers libre;* in which case, the Bourgeois Gentilhomme had not been talking prose all his life, after all. But prose, as a literary faculty or form, surely implies the *studied* avoidance of repetition, just as verse implies its *studied* cultivation.

But what connection have verse and prose with poetry and dissertation? To deny any correspondence between verse and poetry, even while rejecting their entire interdependence, would be taking too great a liberty with the ordinary associations of words. Let us formulate the connection as follows: - Verse originated as a "useful" art, as distinct from the "fine" art into which it later developed. It was first purely utilitarian in function, as an aid to memory, but later was adopted as a musical principle, that is to say, as a means to an artistic purpose, not as a means to a utilitarian purpose attended sometimes by incidentally artistic effects.

Now if poetry is the artistic use of language, verse, in so far as it serves an artistic purpose, is a contribution to poetry; though everything that is poetry will not employ the means of verse. There are other means. Roughly speaking, we may divide the sources of poetry into two: — lyric and graphic, to give them names. And in anticipation of protests, let it be said that the term «lyric» is much more usefully employed in denoting the musical element in poetry than as a vague word for any kind of short poem that lends itself to the anthologist. To the lyric element then, verse contributes. But even the lyric element in poetry may exist independently of verse. Sounds may be arranged for artistic

---

(1) Metre, rhyme, and alliterative verse are subdivisions of acoustic verse, as contrasted with the graphic or pictorial verse principle exemplified by Hebrew parallelism.

effect without involving a degree of regularity which qualifies them to be regarded as verse.

In addition, however, to this lyric element, we have to consider the graphic sources of poetry, the use of images, the pictorial as distinct from the musical content. Both elements are responsible for that artistic effect which distinguishes poetry from dissertation and gives to words an illuminating power that is not inherent in their mere meaning. The explicit meaning of the words is an element of dissertation which is, nevertheless, inevitable in poetry. Swinburne did his best to minimise this element; and perhaps when people talk about «pure poetry», they have in mind a type of poetry which would depend entirely on musical or pictorial effect, without reference to the sense of the words. James Joyce's work suggests an experiment in this direction. But it is probable that too much «purity» in art, as in eugenics, results in the loss of virility. And in the same way painters and sculptors may go too far in rejecting the humble propositions of what they call «representationalism.».

In poetry, however, the sense of the words does not merely provide a theme, to be embroidered with sounds and images. It may make a more subtle artistic contribution. One finds this so in Hebrew poetry, where the verse does not consist in the similitude of metre contrasting with the dissimilitude of the words, but in the similitude of the explicit meaning, which is restated in different words. The explicit meaning. then, discharges that function which is assigned to metre in most European poetry. It is precisely the meaning of the words which informs them with the properties of verse. For this reason Hebrew verse must remain verse (even as distinct from poetry) in translation. And as each restatement of the sense is apt to evoke a different, picture, we may say that such verse is based on imaginative, (1) not acoustic repetition, and that its contribution to poetry is made through graphic, not lyric channels. At this point it is worth noticing that the greater body of English literature derives its verse from acoustic sources, while its poetry, by way of contrast, is essentially graphic in type.

On the other hand, one need not look further than French or English neo-classic literature to discover the subtle artistic relation between the explicit meaning of words and the lyric element

(1) Imaginative in the sense of "image-making" or "picture-making".

in poetry. One might even describe it as a «contrapuntal» relation. When Pope wrote «The sound must seem an echo to the sense», if we understand him as indicating something more than a crude onomatopoeia, something in fact of which his own work is a constant example, we can but infer this «contrapuntal» use of the sense in poetry. That is to say, it is not just a question of vocal embroidery. Sound and sense contribute on an equal footing to an artistic effect; to an implicit meaning which does not permit of purely explicit statement (any more than the meaning of music does), though it makes use of explicit statement as a means to expression. A fair analogy is, perhaps, the joint contribution of words and music in a song. In Pope's pastoral addressed to Garth, nothing but this counterpoint of music and meaning accounts for that tenderness with which, whatever the immaturity of the poem, the words are laden; a tenderness which Handel must surely have felt when he interpreted it in terms of his own art. Yet many listeners who applaud the well-known sètting of «Where'er you walk» are deaf to that music for which Handel substituted his own. Purcell, it is related, with great delicacy of implicaton, refrained from tendering a similar office to Dryden's «Alexander's Feast», on the grounds that the words were their own music.

It is impossible, however, to speak of the English neo-classics in terms of enthusiasm without feeling that one is prejudicing a controversial question. Just how much importance may we attach to the verse of Pope and Dryden? Dr. Johnson says: «After all this, it is surely superfluous to answer the question that has once been asked, Whether Pope was a poet? otherwise than by asking in return, If Pope be not a poet, where is poetry to be found?» Place beside this Matthew Arnold's observation: «Dryden and Pope are not classics of our poetry, they are classics of our prose.» And finally, take into consideration the modern view, which tends to replace Pope and Dryden on the pedestals from which the Romantic Revival had somewhat unceremoniously hustled them. Faced with such fluctuating estimates, a modest deference to perplexed authority may well cause us to hesitate in our attempts to assess the real merit of the writers in question. We feel, however, that this discrepancy of opinions is aggravated and the whole position obscured owing very largely to the inconsistency of the usual critical terms employed; and there seems to be some hope that armed with other and more carefully defined terms, we may with greater confidence approach a balanced view. All arguments appear to turn on what is meant by *poetry* and what is

meant by *prose*. Some critics take the line that if verse can be proved unpoetic it is proved unliterary. But Matthew Arnold treats the reputation of Pope and Dryden fairly courteously before coming to the conclusion that they are «classics of our prose». Is the conclusion meant to neutralise the courtesy, reducing it to mere irony? Or did Arnold contemplate with equanimity the prospect of dissertation in verse? Mr. T. S. Eliot expressed the view, in his essay on Dryden, that nineteenth-century prejudice had its roots in the *material* of neo-classic verse. Generally speaking, the neo-classic writers wrought their verse from the accessories of street or tavern, boudoir or drawing-room, and employed it to celebrate occasions of state or flay their political and literary enemies; while the Romantics and their successors conceived it as the poet's duty to stock his imagination with the fauna and flora of the unspoiled countryside, and held that meditation, not satire, was the natural function of serious verse.

This divergence of taste certainly accounts for a good deal of the unpopularity into which the neo-classics fell during the nineteenth century. But it is surely not the whole reason. It should be noticed that in Doctor Johnson's time the question had already been *asked:* Is Pope a poet? The Romantics were not the first to ask that question. They were the first to give it a significant negative answer. In view, then, of what seems to be a perennial doubt, a fresh investigation will not come amiss, especially when we embark on it with newly defined terms. For the two-century-old debate concerning Dryden and Pope has revolved round the use of the words *poetry* and *prose;* and it is clear that the use of those words, hitherto made by analytical critics, has been in the main compromising and confusing.

It has already been suggested that failure to appreciate the neo-classic poets arose out of a deafness to their music as much as from a prejudice against the material of their verse. But what is the origin of that failure? Even if this also is prejudice, is not prejudice sometimes confirmed by the facts? It is certainly our duty to give it a fair hearing, and even to approach it sympathetically, in order to arrive at a balanced view.

Now, considering again Matthew Arnold's remarks about Dryden and Pope, and his use of the words «poetry» and «prose» in this connection, it becomes clear that by «poetry», he, like many other English critics, often means no more than *graphic* poetry. And it is precisely our contention that certain languages have a *graphic* and others a *lyric* genius. Among the former we would place

English, German and Hebrew; among the latter, Latin Greek, and the modern Romance languages. Compare an English translation from the Hebrew with one made from the Greek; Isaiah, say, with a translation of a Greek play. How perfectly the Hebrew lends itself to the English instinct for imagery! While the Greek mannerisms seem in translation to parody themselves. Again, it is worth comparing the success of Shakespeare in German translation with the tardy recognition of his greatness in France. Arnold himself stumbled on this distinction when he wrote: "The power of French literature is in its prose-writers, the power of English literature in its poets." But his onesided view of poetry prevented him from expressing the distinction in its true terms or apprehending its exact nature.

Perhaps it is unfair to accuse the nineteenth century critics of being deaf to the music of poetry. Who could be more musical or more popular in his own time than Tennyson? But it is clear that the taste of that epoch refused to accept music in certain combinations. It cherished the lyric where it was combined with the graphic element, almost to the exclusion of explicit meaning, as, for example, in Keats' "Ode to Autumn", or in Shelley's "Ode to the West Wind". But it could not tolerate music combined with explicit meaning to the exclusion of the graphic element.

At first sight, this might seem to be a passion for "pure" poetry which would suffer the intrusion of no non-artistic element, however artistic the total result. In this case the nineteenth-century critics are not to be accused of prejudice, but credited with a consistent principle of taste. But how can this be so, when the same pens which denounced Pope and Racine as prosaic, acclaimed Dante, Virgil, and Sophocles as mighty poets? The greatest Italian, Latin, and Greek poetry boasts the same recipe as the French and English neo-classics? It subsists, that is to say, in the blending of music with explicit sense, and what pictorial power it possesses is very much in the background. How then can the typical nineteenth-century criticism escape the charge of inconsistency and prejudice? One route of escape lies open to it; and that route leads through the varying genius of different languages. Musical effects in an unmusical language, one might claim, cannot give an artistic balance over the dissertational element unless they are assisted by graphic effects. One might with reason have insisted that English, and even French, have not the same musical capacity as Italian, Latin, or Greek; though it seems hard to regard French as an unmusical language. At any rate,

it could be urged that Pope and Dryden were trying to do with the English language something that had been done with the Latin language, and that the effects to which Latin lent itself were not so naturally accommodated by English.

But there is another nineteenth-century aversion which has to be taken into consideration — the aversion to didactic verse. This brings us back to the question : Is dissertation in verse a tolerable literary form? The objection is obvious. Is not the music of verse in such works a disadvantage? Is not any kind of poetry a disadvantage, in a work of which the avowed object is explicit instruction? Poetry will surely distract us when we need to concentrate our whole attention on following the often complex ratiocinations of the writer. And if there is to be no poetry, of what use is verse? This objection, as long as it is made consistently, both against the "Essay on Criticism" and the "De Arte Poetica", against the "Essay on Man" and the "De Rerum Natura", must be squarely met.

But verse has a *useful* as well as a *fine* purpose. We should do wrong to condemn *ipso facto* a composition in which verse has a merely mnemonic value. Much of Pope's "Essay on Criticism" is pure dissertation, as Matthew Arnold would have been quick to assert, but it has a mnemonic value which is integral to the purpose of the work. If all the dissertation that Pope wrote had been written in prose, his words would not live in our mouths to-day, in a multitude of ever recurring quotations.

But apart from this it must be admitted that passages of poetry may have their place in a didactic work. They usually intervene at a climax, as a relaxation to the reader's mind. At least, such poetic passages are generally allowed in a didactic prose work, as is instanced in the Dialogues of Plato. So why should we not expect them, *a fortiori*, in a composition where the useful element of verse can be transmuted so readily into the fine art of poetry? The "De Rerum Natura" contains many such passages; and it is worth noticing in this connection how much of Shakespeare's verse is pure dissertation, or nearly so, simply explaining the bald outlines of a situation in a style incomparably more matter-of-fact than we find in his great passages of poetic prose. In fact, it was Coleridge, one of the fathers of nineteenth-century criticism, who observed that a long poem could not be all poetry. Only the confusion of terms in the word "poem" gives an air of paradox to that statement.

But to recapitulate, in view of the now almost traditional Eng-

lish aversion to a poetry which tempers its music which dissertation, may we not expect to find an opposite and corresponding aversion in the critics of other languages which derive their poetry naturally from just such a combination of elements? In the French we certainly find it. Such phrases as "Shakespeare et la violence anglaise" (1) are so commonplace as to fall almost casually from the pen of a French critic. But among ancient critics, also, we find those who attack the poetic prose-writer in terms analogous to the severity with which English critics have attacked the writer of verse dissertation. This is exactly what we should expect: that the ancient Sir Thomas Browne or Jeremy Taylor will meet a comparable fate to that of the modern Horace or Lucretius. The following passage from Lucian is of interest:-

> But if History is to adopt this type of flattery, what else is it but a sort of poetic prose, deprived of its lofty accents, and leaving a residue of imposture all the more patently exposed because it is stripped of metre? This is a defect of the first order, that anyone should be unable to distinguish the appurtenances of poetry from those of history, and introduce into history all the hyperbole of legend, and such ornate writing as is proper only to the faculty of poetry. It is as if one should take some robust and stalwart athlete, drape him in purple and other meretricious accessories, rub in fard, powder his face - heavens! what a fool you'd make of him by that shameful exhibition! (1)

Antiquity had its Sir Thomas Brownes. One of them — from a literary point of view at least — was St Paul. But it is doubtful

---

(1) G. Lanson. "Voltaire". Hachette. V. 103. The book contains other references to English poetry in similar terms, that is to say, as an affront to classic taste.

(1) ἡ ἱστορία δὲ ἥν τινα κολακείαν τοιαύτην προσλάβῃ, τί ἄλλο ἢ πεζή τις ποιητικὴ γίγνεται, τῆς μεγαλοφωνίας μὲν ἐκείνας ἐστερημένη, τὴν λοιπὴν δὲ τερατείαν γυμνὴν τῶν μέτρων καὶ δι᾽ αὐτὸ ἐπισημοτέραν ἐκφαίνουσα; μέγα τοίνων, μᾶλλον δὲ ὑπέρμεγα τοῦτο κακόν, εἰ μὴ εἰδείη τις χωρίζειν τὰ ἱστορίας καὶ τὰ ποιητικῆς, ἀλλ᾽ ἐπεισάγει τῇ ἱστορίᾳ τὰ τῆς ἑτέρας κομμώματα, τὸν μῦθον καὶ τὰς ἐγ τούτοις ὑπερβολάς, ὥσπερ ἂν εἴ τις ἀθλητήν. τῶν καρτερῶν τούτων, καὶ κομιδῇ πρινίνων, ἁλουργίσι περιβάλοι, καὶ τῷ ἄλλῳ κόσμῳ τῷ ἑταιρικῷ καὶ φύκιον ἐντρίβοι, καὶ ψιμύθιον τῷ προσώπῳ, Ἡράκλεις, ὡς καταγέλαστον αὐτὸν ἀπεργάσαιτο αἰσχύνας τῷ κόσμῳ ἐκείνῳ.

NOTE:- Clarendon Press translators (1905) render πεζή τις ποιητικὴ as "poetry without the wings". This is significant. Why should such a deliberate periphrasis recommend itself to the translators, if "poetic prose" did not suggest a good connotation to an Englishman, such as πεζή τις ποιητικὴ obviously did not suggest to a Greek?

if Lucian, ideological considerations apart even, would have appreciated "Though I speak with the tongues of men and of angels". He would have asked: "What is it but poetical prose, etc.?" And his readers would not have suspected him, by that phrase, of paying a compliment. Yet the thirteenth chapter of Corinthians I is poetry, and not only poetry, but verse; poetry and verse on the Hebrew, graphic model, alien to classical antiquity.

Again, compare Lucian's scornful reflection on "poetic prose" with Arnold's pronouncement that Dryden and Pope are "classics of our prose." That is to say "classics of our dissertation." The comparison is significant. To the Greek, metre was such an important element in poetry, to the Englishman such an unimportant one. Or let us say: in Greek, a language of lyric genius, mere metre carried a work so much further toward being poetry, than it does in English, a language of graphic genius. It is also worth recalling that the term "purple patch" was coined by Horace (1) in a spirit of criticism; yet how indulgent that catchword sounds on the lips of many a modern English critic! Sir Arthur Quiller-Couch, in his introduction to the Oxford Book of English Prose even makes a special plea for it. But the "purple patch" as its name proclaims, represents a graphic element, and was as unnatural in Horace's tongue as it is natural in ours.

It is our contention here that Lucian's view expresses the normal attitude of the ancient world throughout its long literary history. Phrases in Aristotle, which might seem at first sight to weaken the force of our argument, really tend to support it. For instance, we find in the "Poetics": "Homer and Empedocles have nothing in common but the metre. It is right, therefore, to call the one a poet, the other a physicist rather." And again: "The work of Herodotus might be put into verse, and it would still be a species of history; with metre, as without it." These sentences taken by themselves would seem to reflect the English rather than what we have claimed was the Greek view of poetry. But if the

---

(1) Purpureus, late qui splendeat, unus et alter
Adsuitur pannus, cum Lucus et ara Dianae
Et properantis aquae per amoenos ambitus agros,
Aut flumen Rhenum aut pluvius describitur arcus.
Sed nunc non erat his locus. (De Arte Poetica. 15)

Note:- Surely "purple patch" refers not to any fleeting passage of poetic writing, but specifically to *graphic* poetry. For us, vivid imagery has a natural pertinence. Our cruder syntax requires this compensation. It was not so for the ancients.

two instances are taken in their context, it will be seen that Aristotle was using the word "poetry" in a different sense from that in which it was generally used even by his contemporaries, and he admits as much. "Poetry" in his vocabulary does not refer primarily to the manipulation of language, but of subject matter. It is to be contrasted with history and science. It is what we might term "composition" as distinct from "exposition". It deals with the hypothetical rather than the actual, with what might happen rather than what has happened; or if with what has happened, simply because the actuality has interest as a hypothesis (1). This being so, his failure to reserve any term for poetry in our sense of the word, as distinct from verse, only goes to suggest that for him, as for other ancient critics, there was no great distinction. For him, as for them, the music of able versification gave to the words that lustrous quality which renders them artistic.

Yet while a consideration of ancient criticism supports the theory of linguistic tendencies that we have put forward, one has only to cite examples of New Testament poetry to forestall any attack, based on this theory, against the English neo-classics (or indeed to cut off the possible line of retreat which we recommended to their assailants). For if Pope and Dryden are accused of cultivating a foreign, Latin faculty in English, a language that can ill accommodate it, the same attack must be directed against the Hebrew idiom of New Testament Greek. We are assured, in fact, with a suspicious suggestion of epigram, that the New Testament only makes such good English because it is such bad Greek. There is a significant truth in that. St Paul wrote Hebrew poetry in Greek, yet what he wrote was none the less poetry.

With an eye, then, to this analogy, we may say that the nineteenth-century aversion to the neo-classics had its root in a sound intuition; but that intuition was rendered incoherent by the obtuse reasoning which strove to interpret it; by a failure to make the right basic distinctions; a terminological failure.

The advantage of correct and basic distinctions is that they afford a balanced view. They leave us free to incline either to the classic or the romantic school, without attributing the attitude of the other side to stark insensibility; and indeed the personality neither of Matthew Arnold nor of Samuel Johnson will allow of such a construction. Classic verse, we see, is alien to the genius of our language, and we may choose to stress this, pointing out

---

(1) Poetics I and IX.

the difficulties under which a writer of Pope's pretensions was labouring, by the very nature of his intractable medium. On the other hand, it is possible for a writer to triumph over his medium; and the grafting of foreign stock may bring new virility into the literature of any language. If classical antiquity had been more ready to import from the Hebrew and other exotic sources, it might not have lapsed, as it did, into centuries of sterility.

But we must always recognise the special and often delicate task of a classic poet working in a romantic language. For it is no solecism to speak of "classic and romantic" languages, if, by these terms, we mean respectively languages which naturally avail themselves of explicit statement as a means to an artistic end, and languages in which the paucity of musical content makes this method a secondary recourse, and postulates the more usual invocation of a pictorial element at the expense of the explicit. Of course, if this terminology is adopted, Romanticism cannot be retained as the opposite of Realism; though the claim of the word in this respect is equally strong. Our principle must always be: one word, one meaning. Again, complications will ensue if we try to apply the terms "Classic and Romantic" to music or the plastic arts. But in this context the words already cover a multitude of meanings, all better expressed in other terms.

Mr. T. S. Eliot finds in the distinction of Classicism and Romanticism a fundamental issue of right and wrong, each side demanding our unequivocal allegiance or dissent (1). It is refreshing in this age of flabby agnosticism to be reminded of the existence of such vital issues. But it is in no such sense that the terms are used above. The only thing that is vital, from the point of view of literary criticism — as far as we are concerned — is to realise that the distinction exists; and that its basis rests as much in a writer's language as in his taste.

J. G. Warry

(1) "Function of Criticism". Selected Essays by T.S. El'ot. Faber p. 26.